التحليل الجغرافي للأدب



محمد جهاد إسماعيل

ليليث للنشر والتوزيع

إهــداء ٢٠١٥

ليليت للنشر و التوزيع
جمهورية مصر العربية

التحليل الجغرافي للأدب

نظرية أدبية جديدة

محمد جهاد إسماعيل



ليليت للنشر
والتوزيع

18

محمد جهاد إسماعيل

التحليل الجغرافي للأدب

رقم الايداع / 2050 / 2014ط1

الترقيم الدولى / ٠٠ - ٥٨ - ٥٣١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

غلاف / فاطمة عشري

ليليت للنشر والتوزيع

الإشراف العام / إيمان سعيد

هيئة تحرير ومراجعة

د/ سالم ابراهيم سالم

أ / رشا زقيرق

المراسلات : 60 ش سكينة بنت الحسين

كفر عبده - الإسكندرية

ت : ٠١٢٢٤٢٧٢٣٢٧

: ٠١٠١٧١٨٠٩٣٨

Dar.lilitte@gmail.com

lilettepublishing@gmail.com

www.lilithpublishinghouse.com



إهداء

إلى روح جدي

رجب أحمد إسماعيل، رحمه الله، وطيب ثراه

وجعل الجنة مثواه

إلى أبي

الأستاذ جهاد، أطال الله في عمره

مربي الأجيال .. ومعلمي الأول ..

ومن له الفضل علي، من قبل ومن بعد

مقدمة

خلال الأعوام الفائتة، عكفت بجد على دراسة مناهج النقد الأدبي، ومدارس النظرية الأدبية. لا أخفيكم أن التفكر في شؤون النقد والنظرية الأدبية، هو أمر محبب لنفسي، ويروقني كثيرًا. ولا أخفيكم أيضًا، أنني أستمتع بمطالعة كتب النقد والنظرية الأدبية، إذ أنني دائم التوق والشوق، لمتابعة كل ما هو جديد ومفيد، في هذين الحقلين الخصبين الثريين.

شعرت بالاستياء عندما وجدت أن النظريات الأدبية في مجملها، لا تلقي بالًا للجغرافيا، ولا تراعي الدور الكبير، الذي تلعبه الجغرافيا في صناعة الأدب. لقد درست كافة النظريات المعتبرة والمعروفة لدينا في علم النظرية الأدبية. وقد وجدت تلك النظريات جميعها، كأنها اتفقت مع بعضها البعض على شيء واحد، وهو إنكار دور الجغرافيا، وتنحيتها من عالم النظرية الأدبية!!. جلست كثيرًا مع نفسي، أفكر في الأسباب الكامنة وراء إقصاء الجغرافيا وتهميشها، فلم أجد سببًا وجيهًا واحدًا، يبرر ذلك الإقصاء الحاصل والتهميش.

إيمانًا مني بحق الجغرافيا الأصيل، في أن تكون لها نظريتها الأدبية الخاصة بها. فقد أرسيت في هذا الكتاب، قواعد وأساسات (نظرية التحليل الجغرافي للأدب)، وهي النظرية الأولى التي تفتح الباب على مصراعيه أمام الجغرافيا، كي تشارك بقوة وفعالية، في عالم النظرية الأدبية.

لعل أبرز ما يميز نظريتي الجديدة، هو تعاطيها ومعالجتها للنص الأدبي، من الناحية الجغرافية البحتة، يمكنني القول باختصار، إن نظريتي جاءت كي تنصف الجغرافيا، وجاءت أيضًا كي تقدم نمطًا جديدًا لقراءة الأدب، لم تأتِ بمثله من قبل، لا التفكيكية، ولا البنيوية، ولا الشكلانية، ولا التاريخية، ولا النفسانية، ولا باقي قبائل وعشائر النظرية الأدبية، في كتابي هذا، أشرح وأبين لكم بالتفصيل، كل ما يتعلق بنظرية التحليل الجغرافي للأدب. فبداية، أقدم لكم وصفًا دقيقًا وشاملًا للنظرية، ومن ثم أقدم لكم فرضيات النظرية الأربع، وهي بمثابة العواميد الأربعة، التي يقوم فوقها البنيان...بعد أن أقدم لكم وصف النظرية وفرضياتها، آخذكم إلى تطبيق النظرية على نصوص الأدب، وقد فضلت ولأسباب كثيرة ستعلمونها فيما بعد، أن تكون رواية (روبنسون كروزو)، هي أول نص أدبي تطبق عليه النظرية.

بين دفتي هذا الكتاب، لا أحدثكم فقط عن نظريتي (نظرية التحليل الجغرافي للأدب). بل أحدثكم أيضًا، عن اجتهادات أخرى لي في النقد الأدبي والنظرية الأدبية، وعلى رأس هذه الاجتهادات والمقاربات، تأتي نظرية (الأدب هو قوس قزح)، وهي نظرية هامة، ستطالعونها في بدايات الكتاب، وفصوله الأولى.

يا قارئي هذا الكتاب:-

ها أنا ذا، أنقل لكم علم أكرمني به ربي، وأبلغ لكم أمانة، كانت مودعة عندي.

ها أنا ذا، أسلم الرسالة، وأبلغ الأمانة..اللهم اشهد ..

غزة في ٢٠١٣/١٢/٣١

محمد جهاد إسماعيل

الباب الأول: توطئة وتمهيد للنظرية.

* الفصل الأول: مفاهيم عامة.
* الفصل الثاني: إبستمولوجيا الأدب (الأصل والأساس).
* الفصل الثالث: علاقة الجغرافيا بالأدب والنقد الأدبي.

الفصل الأول: مفاهيم عامة.

- الجغرافيا.
- الأدب.
- النقد الأدبي.
- النظرية الأدبية.

الجغرافيا

الجغرافيا هي علم، من أروع وأجمل العلوم التي أدركها الوجود وعرفتها البشرية. كلمة (جغرافيا) هي بالتأكيد ليست عربية، وإنما جاءت من اللغة اليونانية القديمة، وهي تتكون من شقين اثنين، هما (Geo) وتعني الأرض، و(Graphia) أي بمعنى الوصف، وبالتالي فالمعنى الكامل المتكامل لمصطلح أو كلمة (جغرافيا)، هو (علم وصف الأرض).

لكن هذا التعريف القديم لعلم الجغرافيا، لم يعد تعريفًا دقيقًا وجامعًا ومحيطًا بالقدر الكافي. فالجغرافيا مرورًا بعصورها العديدة المتعاقبة، وصولًا إلى أنماطها الحديثة، طورت من منهاج بحثها، وتوسعت في ميدان دراساتها، ومدارك علمها، وبالتالي صارت الجغرافيا غير مقتصرة على الاهتمام بالأرض وحدها، بل أصبحت تهتم وبشدة بالإنسان، الذي يسكن تلك الأرض ويعمرها.

لذلك يمكننا القول بأن الجغرافيا الحديثة، لا تدرس الأرض وكأنها كوكب خاو، شأنه شأن بقية كواكب مجرتنا الغير مأهولة. بل تدرس الأرض بوصفها وطن للإنسان، وتهتم بالأرض والإنسان على حد سواء، فكليهما مكملين لبعضهما البعض، وكليهما عنصرين هامين وأساسيين، في معادلة الحياة والوجود.

ينقسم علم الجغرافيا إلى قسمين كبيرين، هما الجغرافيا الطبيعية، والجغرافيا البشرية[1]. وينبثق عن كلا القسمين فروع جغرافية أخرى، أكثر تخصصًا وأكثر دقة، كل في مجال دراسته وميدان بحثه.

الجغرافيا الطبيعية تهتم بدراسة الأرض ببعدها المادي والفيزيقي. أو لوصف أكثر تحديدًا، تهتم الجغرافيا الطبيعية بدراسة الأغلفة الأربعة للكرة الأرضية، وهي الغلاف الجوي، والغلاف

(1) فتحي محمد أبو عيانة: الجغرافيا الإقليمية، دار النهضة العربية، بيروت 1986، ص 9.

المائي، والغلاف الصخري، والغلاف الحيوي[1]. أما الجغرافيا البشرية، فتهتم بدراسة الظواهر البشرية على سطح الأرض، ومدى تفاعل تلك الظواهر البشرية مع بيئتها الطبيعية. لذلك تذهب الجغرافيا البشرية إلى الاهتمام بدراسة العديد من تلك الظواهر الاجتماعية، التي تنتج عن تفاعل الإنسان مع بيئته المحلية، مثل توزيع السكان، وحركات الهجرة، وأنماط العمران، والأنشطة البشرية الحياتية الضرورية، وغيرها.

عند الحديث عن الجغرافيا الطبيعية والجغرافيا البشرية، لا يمكننا تجاهل أو نسيان علم الخرائط Cartography، لما له من أهمية كبرى في إثراء علم الجغرافيا وتطوره. يعد علم الخرائط جزء لا يتجزأ من علم الجغرافيا لما له من أهمية، وفي ذات الوقت لا يمكن تصنيفه ضمن أي من قسمي الجغرافيا (الطبيعية والبشرية)، فهو يخدم كليهما معًا. وتقوم أنشطة هذا العلم (أي رسم الخرائط)، على رصد وتبيين كلًا من الظواهر الجغرافية الطبيعية والبشرية على حد سواء.

تشمل الجغرافيا الطبيعية العديد من فروع الجغرافيا الدقيقة والمتخصصة، مثل الجغرافيا المناخية Climatology، وجغرافية البحار والمحيطات Oceanography، وعلم تشكل الأرض Geomorphology، والجغرافيا الحيوية Biogeography وغيرها.

الجغرافيا البشرية تضم هي الأخرى باقة من فروع الجغرافيا الدقيقة والمتخصصة، مثل الجغرافيا التاريخية Historical geography، والجغرافيا الاجتماعية Social geography، والجغرافيا السياسية Political geography، والجغرافيا الاقتصادية Economic geography وغيرها[2].

مما سبق نستنتج أن الجغرافيا متداخلة مع غيرها من العلوم والمعارف، وهذا إن دل على شيء، إنما يدل على اتساع أفق الجغرافيا وغزارة العلم الذي تفيض به على غيرها من العلوم والمعارف. فلولا مركزية الجغرافيا وأهميتها وغناها المعرفي، لما ترابطت وتداخلت مع غيرها من

(1) فتحي محمد أبو عيانة: الجغرافيا الإقليمية، دار النهضة العربية، بيروت 1986، ص 9.
(2) فتحي محمد أبو عيانة: الجغرافيا الإقليمية، دار النهضة العربية ، بيروت 1986، ص 15.

العلوم والمعارف، في سبيل تشكيل هذا الكم الكبير من الفروع العلمية المتخصصة، والتي بدورها تجعل من الجغرافيا، علمًا غنيًا ورياديًا، يأتي في صدارة الركب المعرفي.

درج الفلاسفة والمفكرين ومنذ أمد بعيد، على تصنيف العلوم والمعارف إلى، إنسانيات (تدرس الإنسان وشؤونه)، وعلوم طبيعية (تدرس الطبيعة وشؤونها).

وهنا لا تصنف الجغرافيا على أنها من الإنسانيات، ولا تصنف كذلك على أنها علمًا طبيعيًا صرفًا، بل تصنف على أنها علمًا إنسانيًا طبيعيًا أي أنها تنتمي إلى كلا التصنيفين معًا.

لا غرابة في ذلك، فسمات التصنيفين ينطبقان على الجغرافيا، من خلال قسميها الكبيرين. أي أن الجغرافيا الطبيعية تحقق انتماء الجغرافيا لأسرة العلوم الطبيعية. أما الجغرافيا البشرية فتحقق انتماء الجغرافيا لأسرة الإنسانيات أو العلوم الإنسانية.

الأدب

تعريف مصطلح (الأدب) شأنه شأن بقية المصطلحات الكبرى والمعقدة ك(الثقافة) و(الحضارة) و(المعرفة)، لم يكن يومًا محل إجماع واتفاق عند سائر الأدباء والفلاسفة والمفكرين. بل كان ولا زال موضعًا للاختلاف، والاجتهاد، وإعادة القراءة، والتغيير، والتطوير.

فلاسفة الكون ومفكريه، وتحديدًا مؤرخي الأدب منهم، جاءوا بالكثير من التعريفات لمصطلح (الأدب)، من هذه التعريفات ما كانت تتقاطع مع غيرها فتتعارض معها بالجملة، ومنها ما كانت تسير بالتوازي مع غيرها فتتفق معها جزئيًا أو بالكلية.

جميع هذه التعريفات جاءت نتيجة تأمل واستغراق في ماهية وحال الأدب، من قبل اولئك الفلاسفة والمفكرين. ولا شك إطلاقًا أن ثمرة جهد اولئك الفلاسفة والمفكرين، قد

نفعتنا كثيرًا في الوصول إلى صياغة التعريف الأنسب والأقرب لمفهوم الأدب، وبالتالي معرفة ما للأدب وما عليه، وصياغة حدوده التصورية، وبالتالي الفصل بينه ككيان وغيره من العلوم والمعارف.

لكن الكثير من هؤلاء المجتهدين في تعريف الأدب، وقعوا ضحايا لإشكالية (الإفراط والتفريط). فنهم من أفرط في تعريف الأدب، فأعطاه تعريفًا أكبر بكثير وأوسع من مساحته الفعلية، متجاوزًا بذلك حدود الأدب ككيان، ومتعديًا على نفوذ بعض العلوم والمعارف الأخرى.ومنهم من استهان بتعريف الأدب وقزمه كثيرًا، بحيث جعله غير متناسب مع حجم الأدب، وقدره، وامتداده الحقيقي.

باعتقادي أن التعريف الأشمل والأنسب لمصطلح أو مفهوم الأدب، وبحسب صياغتي الشخصية، هو كالتالي:

(الأدب هو تعبير راقي ومتقن وإبداعي عن التجارب الإنسانية الحقيقية الواقعية، وعن ما يصل إليه العقل الإنساني من تصور وخيال).

من هذا التعريف نستنتج أن الأدب ينقسم إلى ما هو (حقيقي) وما هو (خيالي). الحقيقي هو كل ما يوافق المنطق والواقع والعادة والعقل السليم، أما الخيالي فهو كل ما ينافي ذلك بالمطلق.

الأدب الحقيقي والأدب الخيالي، لكل منهما بعد جمالي خاص ومتميز عن الآخر، فلا يمكن بحال من الأحوال تخيل الأدب بلا حقيقة وواقع تستند إليه الأحداث، كما لا يمكن تخيل الأدب بلا خيال وخرافات ومبالغات وأساطير، لما تضفيه على النص من روعة وبهاء.

إذا ما تخيلنا الأدب كجذع شجرة عملاقة، فإن هذا الجذع يذهب إلى غصنين أو فرعين وارفين، هما (الشعر) و(النثر)، واللذان يذهبان بدورهما إلى الكثير من الأغصان الصغيرة، والتي تنتهي بدورها إلى أغصان أصغر منها، ومن ثم إلى الأوراق الخضراء، والأوراق بطبيعة الحال هي النصوص الأدبية.

أي أن للأدب فرعين رئيسيين وكبيرين، هما الشعر والنثر، ومن كل منهما تخرج الفروع فنسميها أنواع أو أجناس أدبية، وتلك الأنواع أو الأجناس الأدبية تنبثق عنها أنواع وأجناس أدبية أصغر منها، تكون أكثر دقة وتفصيل (غالبًا في النثر).

ففي النثر نجد أنواع أدبية كثيرة: كالرواية، والقصة القصيرة، والمسرحية، والسيرة، والمقالة.

وفي الشعر نجد أيضًا أنواع أدبية كثيرة: كالشعر الغنائي، والشعر التمثيلي، والشعر الملحمي، والشعر القصصي.

حتى لا يلتبس عقل القارئ عند التفكير في هذه التقسيمات، هذين نموذجين أو مثالين عن تصنيفات شجرة الأدب، (من الأكبر إلى الأصغر) أي (من جذع الشجرة حتى أوراقها الخضراء).

مثال (١): الأدب - النثر - الرواية - الرواية التاريخية - رواية الحرب والسلم[1].

مثال (٢): الأدب - النثر - القصة القصيرة - قصة الخيال العلمي - قصة المماسات[2].

أشار الكثيرين من الفلاسفة والمفكرين والنقاد إلى الأدب، على أنه أحد الفنون الجميلة الخمس. لكن اختلف مؤرخو الأدب على بداية التاريخ الفعلي للأدب الشفهي، والذي بلا شك يسبق الأدب المكتوب بكثير.

أما الأدب المكتوب، فيرجح الكثيرين من مؤرخي الأدب أن البداية التاريخية الفعلية له، جاءت من خلال الأدب السومري القديم.

---

(1) هي رواية تاريخية، كتبها الأديب الروسي الشهير ليو تولستوي Leo Tolstoy.

(2) قصة المماسات Tangents، هي قصة قصيرة تنتمي إلى جنس الخيال العلمي، كتبها الأديب الأمريكي كريغ بير Greg Bear.

يرجح مؤرخو الأدب أن الملحمة الشعرية العتيقة (جلجامش)، هي أقدم نص أدبي مكتوب عرفه التاريخ. ملحمة جلجامش والتي تنتمي للأدب السومري، كتبت باللغة الأكدية قبل نحو أربعة آلاف عام تقريبًا، ودونت تلك الملحمة الخالدة على اثني عشر لوحًا طينيًا، تمكن منقبو آثار غربيين من اكتشافها في القرن التاسع عشر للميلاد.

الأدب هو ظاهرة معجزة ومثيرة للإعجاب، تمتاز بالتلقائية وتخلو من التكلف، تستعرض تجارب الإنسان، فتصف نجاحاته وإخفاقاته، أوقاته السعيدة والحزينة، وتتناول أحوال الأمصار والأزمان بشكل بديع، يمتع القارئ، ويزيل عنه رهبة المسئولية وانفعال التركيز، واللذان عادةً ما يلازمانه عند قراءته للعلوم الطبيعية التجريبية الجافة، ونصوص الدين

النقد الأدبي

لولا وجود الأدب لما ظهر النقد الأدبي، فالنقد الأدبي لم يظهر إلا كردة فعل ونتيجة لظهور الأدب؛ لذا فأسبقية الأدب عن النقد الأدبي تعد أمرًا حتميًا، ووفقًا للبديهيات الرياضية والمنطقية، لا مجال فيه للشك أو الاجتهاد.

يخلط البعض بين مصطلحي (النقد) و(الانتقاد)، معتقدين بوجود ترادف أو تقارب في المعنى بين المصطلحين، ظنًا منهم أن النقد هو بالضرورة انتقاد. لذلك يعتقد هؤلاء أن النقد الأدبي ما هو إلا انتقاد ومعارضة وتهجم واختلاف في الرأي مع الأعمال الأدبية المختلفة وكتابها، فتتشكل في أذهان هؤلاء صورة نمطية خاطئة، فحواها أن مهمة النقد الأدبي ما هي إلا مهاجمة النصوص الأدبية وتبيين مثالبها ونقائصها، والتحامل على كتابها ومؤلفيها !.

ولكن بالطبع لم تكن وظيفة النقد الأدبي وغايته يومًا هي انتقاد النصوص الأدبية ومخالفتها فقط لمجرد الانتقاد والاختلاف، ولم تكن عقيدة النقد الأدبي الصحيحة مرتكزة يومًا على مشاكسة

المؤلفين والأدباء، سواء من خلال الاستهتار بجهودهم، أو الاستخفاف بمنتوجاتهم الفكرية والأدبية. بل ترتكز العقيدة النقدية الصحيحة والقويمة في الأساس، على الإنصاف والأمانة العلمية، والمسئولية الأخلاقية، والصدق والشفافية، وتجنب المجاملة أو المبالغة، وعدم التجريح أو الإساءة.

لذا فالناقد الأدبي بحسب العقيدة النقدية القويمة والصحيحة، مطالب بالصدق والأمانة عند صياغته آراءه النقدية، فهو مطالب بأن يثني على كل ما يستحق المديح والثناء، ومطالب بألا يتردد في ذم كل ما يستحق الذم والانتقاد.

من بين التعريفات المتعددة لمصطلح النقد الأدبي، يبدو التعريف التالي هو الأكثر تعبيرًا وتوصيفًا: (النقد الأدبي هو مجموع الدراسات التي تقوم على تعريف، وتصنيف، وتحليل، وتفسير، وتقييم الأعمال الأدبية المختلفة)[1].

من هذا التعريف نستنتج عمق النقد الأدبي وشموليته، فهو لا يتسم بالضحالة أو السطحية في قراءة النص الأدبي والتعاطي معه، بل يرتكز ويقوم على القراءة العميقة والمستفيضة والدقيقة للنص الأدبي، ومن كل الجوانب.

مهمة النقد الأدبي بحسب هذا التعريف، تبدو أكبر بكثير مما قد يظن البعض. فتعريف الأدب ومسمياته ومصطلحاته هي أحد مهمات النقد الأدبي، وكذلك تصنيف الأنواع والأجناس الأدبية (من الأكبر إلى الأصغر)، وكذلك تحليل جزيئيات النص وتفسير دلالاته، وتقييم أسلوب الكاتب واستنتاج تجلياته، هذه جميعها من مهمات النقد الأدبي.

(1) Abrams M. H : A Glossary of Literary Terms – Fourth Edition – Holt، Rinehart، and Winston – Texas 1993 – P 39.

لولا ظهور النقد الأدبي لما اكتسب الأدب كل هذا التألق والجمال، فبدون النقد الأدبي لا تكتمل مقاصد الأدب، ولا تتم رسالته، ولا ترتقي مكانته، ولا يصل إلى هذه الدرجة التي وصل إليها اليوم من الإبداع والإمتاع والإقناع.

النقد الأدبي أضفى نزعة جمالية خاصة على الأدب، وكان للنقد الأدبي الدور الريادي والأساسي في توجيه المؤلفين والأدباء، وتحسين أدائهم وتطوير قدراتهم والارتقاء بها، نحو كتابة أكثر اتقانًا، ونصوص أكثر بهاء وروعة.

يشير التاريخ إلى أن الفيلسوف اليوناني أفلاطون Plato، كان أول من أرسى دعائم النقد الأدبي، وذلك تحديدًا في القرن الخامس قبل الميلاد. استكمالًا لدور المعلم أفلاطون، جاء الدور الريادي لتلميذه أرسطو Aristotle، والذي بدوره أضاف إسهامات كبيرة جدًا إلى تلك التي توقف عندها معلمه أفلاطون، فتفوق التلميذ على أستاذه، وأبدع الاثنان معًا في التأسيس لصرح النقد الأدبي، الذي صار اليوم شامخًا عظيم الشأن.

بعد أفلاطون وأرسطو، تطور النقد الأدبي أكثر فأكثر، وذلك بفضل العديد من المفكرين والفلاسفة والنقاد والشعراء، مثل الشاعر الروماني حورس Horace، والناقد اليوناني لونجينوس Longinus، والشاعر الإيطالي دانتي Dante، وصولًا إلى الشاعر والناقد الإنجليزي فيليب سدني Philip Sidney، والإنجليزي الآخر متى أرنولد Matthew Arnold، وغيرهما[1].

أما في العصر الحديث فقد تطور النقد بشكل كبير، وخصوصًا مع ظهور المدارس الأدبية والنقدية المختلفة، وكذلك ظهور النظريات الأدبية المتنوعة. ويعد الناقد الروسي ميخائيل باختين Mikhail Bakhtin، والناقد الإنجليزي إيفور أرمسترونغ ريتشاردز I.A Richards، والناقد الفرنسي رولان بارت Roland Barthes، من أشهر رواد النقد الأدبي وبناته في العصر الحديث.

---

(1) Bressler C. E : Literary Criticism: An Introduction to Theory and Practice - Prentice Hall - New Jersey 1994 - P 12 - 25.

النظرية الأدبية

النظرية من حيث المعنى اللغوي والبسيط هي (مجموعة من الأفكار والمبادئ تحاول توضيح وتفسير ظاهرة أو أمر معين، أو تحاول تبرير اعتقاد أو رأي معين). أما التعريف الأمثل لمصطلح النظرية الأدبية فهو:

(النظرية الأدبية هي عبارة عن منهج فلسفي يتألف من مجموعة من الأفكار والمبادئ، يجمعها إطار إيديولوجي مشترك، وتهدف في النهاية إلى دراسة وتحليل وتقييم وتفسير الأعمال الأدبية المختلفة، وفق منظورها الخاص).

هذا التعريف القريب من تعريف النقد الأدبي، يؤكد على أن النظرية الأدبية ما هي إلا ضرب من ضروب النقد الأدبي، وفرع من فروعه، أي أن علاقة النظرية الأدبية بالنقد الأدبي، هي علاقة الجزء نحو الكل. ونستنتج من ذلك أن ميدان النقد الأدبي هو أوسع وأشمل من ميدان النظرية الأدبية. وبالتالي فإن كل منظر أدبي وكل متبع ومطبق لذلك التنظير هو ناقد أدبي، ولكن ليس كل ناقد أدبي هو منظر أو متبع أو مطبق لنظرية أدبية بالضرورة.

هناك رأي آخر مخالف، يعتقد بوجود تطابق تام بين مفهومي النقد الأدبي والنظرية الأدبية، بدعوى أن الأخيرة لم تترك كبيرة ولا صغيرة في عالم النقد الأدبي إلا وقد أفردت لها ذكرًا وخصصت لها دراسة. وبحسب هذا الرأي يكون مفهوم النقد الأدبي، هو ذاته مفهوم النظرية الأدبية.

باعتقادي أن الرأي الأول، القائل بجزئية النظرية الأدبية تجاه كلية النقد الأدبي، هو الرأي الأسلم والأقرب إلى الصواب، وذلك لسبب بسيط جدًا، وهو أن النقد الأدبي محيط واسع تتكاثر فيه المصطلحات والمفاهيم بعشوائية وتلقائية، ويتقبل الاجتهادات البسيطة، ويعرفه جميع قراء الأدب ومتذوقوه تقريبًا، أما النظرية الأدبية فهي مجموعة من المعايير والمفاهيم المنضبطة

والدقيقة، ولا يعرفها غالبًا سوى الأكاديميين، والنقاد والقراء والمتذوقين، المتقدمين في الدراسة والبحث.

بين مجموعة أو نخبة من المثقفين المتحضرين، ربما نجد النظرية الأدبية تحل بعض الشيء بدلًا من النقد الأدبي التقليدي، ولكن في مكان منعزل عن التحضر كالبادية مثلًا، هل سنجد متذوقو الشعر من البدو الرحل يستخدمون النظرية الأدبية في نقدهم لقصائد شعرائهم ؟!.

أم سيستخدمون النقد الأدبي التقليدي، والذي يمتاز بكونه فضاء رحب وواسع من التلقائية والعفوية، والمحاولات والاجتهادات البسيطة، الخالية من التعقيد والتكلف.

هذه المقارنة بين نقد المتحضرين ونقد البدائيين، ما هي إلا مثال يؤكد لنا، على أن مفهوم النقد الأدبي هو أوسع وأشمل وأكثر شيوعًا من مفهوم النظرية الأدبية.

هناك ملاحظة هامة لا بد من الإشارة إليها، ألا وهي أن هناك بعض النقاد البدائيين أو غير المتبحرين في النقد الأدبي الحديث، قد يطبقون في نقدهم أو يوافقون بذلك النقد أحد النظريات الأدبية المعروفة، مع أنهم غير ملمين، من حيث الدراية والمعرفة بتلك النظرية، أو حتى بسائر النظريات الأدبية من حيث الأساس.

كما قلنا من قبل أن النقد الأدبي قد أدى ظهوره إلى زيادة قيمة الأدب، نقول أيضًا أن النظرية الأدبية قد زادت وإلى حد كبير، من قيمة النقد الأدبي. لأن النظرية الأدبية، وخصوصًا النظرية الأدبية الحديثة، قد نظمت ورتبت أوراق النقد الأدبي المبعثرة، ووضعتها في قوالب فلسفية محكمة ومرتبة. وذلك ببساطة لأن النظرية الأدبية قد أدخلت على النقد الأدبي نظام (التخصص).

ولعل المتأمل جيدًا في النظريات الأدبية الحديثة، يلاحظ ذلك التخصص الدقيق الذي تمتاز به كل نظرية من هذه النظريات، فلكل نظرية من هذه النظريات طابعها الخاص، وتخصصها النقدي والبحثي المختلف عن غيرها من النظريات.

أي من هذه النظريات ما نجدها تختص بالقراءة السياسية للنص، ومنها ما تختص بالقراءة الأنثروبولوجية للنص، ومنها ما تختص بالقراءة الاجتماعية، أو القراءة التاريخية، أو القراءة الاقتصادية، وهكذا.

أما من ناحية مقاصد النظرية الأدبية أو النظريات الأدبية وأهدافها، فمن هذه النظريات من تركز اهتمامها وبحثها ودراستها على النص دون سواه، ومنها من تركز على القارئ أو المتلقي دون سواه، ومنها من تركز على الكاتب أو المؤلف، وهكذا.

ظهرت النظرية الأدبية تقريبًا مع ظهور النقد الأدبي، وأفرد أفلاطون و أرسطو الكثير من كتاباتهما وجهدهما الفكري لذلك المجال الإبداعي. وظلت النظرية الأدبية من بعدهما تتقدم وتتطور عبر الأزمان المتعاقبة، لكن بشيء من البطء.

في القرون القليلة السابقة للقرن العشرين، وتحديدًا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بدأت وتيرة تطور وتقدم النظرية الأدبية تتسارع وبشكل كبير، أما النهضة الحقيقية للنظرية الأدبية فقد كانت فعليًا مع بدايات القرن العشرين، وما زالت مستمرة إلى يومنا هذا.

في القرن العشرين، بدأت تباعًا تظهر الكثير من النظريات الأدبية الإبداعية والمتميزة. بداية من الشكلانيين الروس **Russian Formalism**، والنقد الحديث **New Criticism**، وصولًا إلى البنيوية **Structuralism**، والتفكيكية **Deconstruction**، والنقد النسوي **Feminism**، ونظرية التلقي **Reception theory**، وصولًا إلى التاريخية الجديدة **New Historicism**، وأخيرًا النقد البيئي **Ecocriticism**، وغير هذه النظريات، الكثير والكثير من النظريات الأخرى.

الفصل الثاني:
إبستمولوجيا الأدب (الأصل والأساس)

- ما هو أصل الأدب ؟
- الأدب هو قوس قزح.
- مكونات الأدب.

ما هو أصل الأدب ؟

كما ذكرنا من قبل، لولا وجود الأدب لما ظهر النقد الأدبي، ولما ظهرت النظرية الأدبية. فما النقد الأدبي والنظرية الأدبية إلا انعكاس ونتيجة للأدب. وإذا ما أردنا أن نحسن فهم النقد الأدبي والنظرية الأدبية تحديدًا، فإنه يتوجب علينا الاستغراق والخوض والتحري وبعمق في أصل الأدب أو الظاهرة الأدبية، والوصول إلى جذورها الحقيقية.. كما قرأنا في الفصل الأول، فإن تعريفي النقد الأدبي والنظرية الأدبية، متداخلان إلى حد بعيد، ويتطابقان سويًا في مهمة واحدة ومشتركة، ألا وهي تفسير وتحليل الأدب أو الظاهرة الأدبية.

بما أن مهمة كلًا من الناقد الأدبي والمطبق للنظرية الأدبية، هي تفسير وتحليل النص الأدبي، فمن المؤكد أن مهمة التفسير والتحليل تلك لن تكون ناجعة وموفقة بشكل كامل، ما دام ذلك الناقد الأدبي أو المطبق للنظرية الأدبية غير ملم بأصول الأدب، وأساساته التي بني عليها، ومواده التي تكون منها.

بما أن الأدب هو الأساس، وهو المدماك الأول الذي بني فوقه النقد الأدبي والنظرية الأدبية، فبذلك يكون أصل الأدب، هو ذات الأصل والأساس لكل من النقد الأدبي والنظرية الأدبية. وإذا ما أراد الفلاسفة والمفكرين والنقاد أن يهونوا على أنفسهم عناء مهمة فهم الأدب أو الظاهرة الأدبية بكافة تجلياتها وتفريعاتها وظواهرها وأجناسها وأنواعها، فإنه يتوجب عليهم الاجتهاد أولًا في التعرف جيدًا على أصول الأدب وأساساته ومكوناته التي جاء من خلالها. فالعارف لأصل الأدب وأساسه، لا يستعص عليه مطلقًا فهم أي مسألة أو ظاهرة أدبية مهما كانت تتضمن من تعقيدات. شأنه في ذلك شأن الطبيب الماهر، الملم جيدًا بأصول الأعضاء البشرية، ووظائفها، وحالات قوتها وضعفها، فطبيب كهذا لا يستعص عليه تشخيص أو فهم حالة مرضية معينة، وبالتالي الاجتهاد في علاجها.

لا أقصد بأصل الأدب، الأصل التاريخي أو البداية التاريخية للأدب، أي لا أقصد الأدب السومري أو ملحمة جلجامش كما جاء في الفصل الأول، ولكن بمصطلح (أصل الأدب) أقصد، الأصل التكويني للأدب، أي مكوناته، والمواد التي نشأ منها وتركب بفعلها.

من الطبيعي أن يعتقد الجميع أن المقصود بأصل الأدب، هو الأصل التاريخي أو البداية التاريخية للأدب. لأن غالبية الباحثين والدارسين ركزوا على التأصيل التاريخي للأدب، وفي المقابل أهملوا التأصيل المادي والمعرفي والمصدري للأدب.

طبيعة مكونات الأدب والمواد التي يتشكل منها، لا تتأثر لا من قريب ولا من بعيد بدوران عجلة التاريخ، فلا تتغير البتة بتغير الزمن من عصر لآخر، لأن مكونات الأدب التقليدية والمواد التي يتشكل منها دائمًا، هي ذات المواد والمكونات التي تتألف منها سائر الأعمال الأدبية، وفي شتى العصور، أي سواء في الماضي السحيق، أو الحاضر المعاصر، أو المستقبل البعيد.

أي أن المواد والمكونات التي تشكلت منها ملحمة جلجامش وكذلك ملحمتي الإلياذة والأوديسة، هي نفسها ذات المواد والمكونات التي تشكلت منها مسرحيات إبسن Ibsen، وروايات ماركيز Marquez، وأشعار أدونيس. وحتى الأعمال الأدبية التي ستكتبها الأجيال القادمة بعد مئة أو مائتي عام، سوف تكون مركبة ومتشكلة من ذات المواد والمكونات.

بما أن مكونات الأدب التي تتشكل منها الأعمال الأدبية المختلفة، تبقى كما هي ولا تتغير في شتى الأزمان والعصور، إذًا فهي ثابتة وخالدة لا تتغير، تمامًا كما الألوان السبعة التي يتكون منها قوس قزح، والتي بحكم قوانين الطبيعة لا يمكن لها أن تتغير يومًا ما. إنه ولا شك تشابه رائع ذلك الذي يجمع بين أصل الأدب وقوس قزح، لذا دعونا نتعرف على المزيد من الوجوه الأخرى لذلك التشابه الرائع الذي يجمعهما.

الأدب هو قوس قزح

عندما أردت أن أخوض وأبحث في أصل الأدب والمواد التي يتركب منها، وجدت الأدب في مخيلتي يبدو أشبه ما يكون بقوس قزح، متألق وبهيج الألوان.

قوس قزح، أو ظاهرة قوس قزح، تلك الظاهرة الطبيعية الرائعة تتألف من ألوان عدة، وبالتالي مكونات عدة، ومواد عدة، وذلك إذا ما اعتبرنا الألوان هي بمثابة المكونات والمواد التي تتألف منها بانوراما ذلك القوس الرائع.

ظاهرة قوس قزح هي رمز وإيحاء للتجانس والتوافق بين المكونات والألوان المتعددة، وجمال ذلك القوس، لم يأتِ إلا بفعل ذلك التجانس والتوافق بين مكوناته وألوانه، وإلا كيف سيكون منظر قوس قزح لو كان متألفًا من لون واحد. بالطبع لن يكون حينها بهذا البهاء والتألق الأخاذ.

بعد دراستي وبحثي المستفيضين في أصل الأدب، وصياغتي لرؤيتي الشخصية في ذلك الاتجاه، أرسيت قواعد نظرية (الأدب هو قوس قزح)، كي تعبر عن رأيي في تلك القضية الهامة. وفي الحقيقة لم أجد كما أسلفت، أي شيء يعبر عن وصف حالة أصل الأدب، أفضل من ظاهرة ومنظر قوس قزح.

إذا ما عقدنا مقارنة بين الأدب وقوس قزح، ربما نجد مسألة واحدة يختلف فيها الأدب عن القوس، وهي أن الأدب من صنع الإنسان وبنات أفكاره، ومن نتاج عقله وتأملاته. أما قوس قزح فهو ظاهرة طبيعية بيئية، من صنع خالق الأكوان وتدبيره تبارك وتعالى.

أما في بقية المسائل فهناك تطابق تام بين هاتين الظاهرتين المثيرتين للإعجاب. فكلاهما ظاهرتين إبداعيتين، قوس قزح كما قلنا من إبداع رب العالمين وعجائب قدرته، والأدب من إبداعات البشر. قوس قزح يتكون من ألوان تتجمع في إطار من التجانس والتناغم، وكذلك الأدب يتكون من ألوان تتجمع في إطار من التجانس والتناغم.

النصوص الأدبية غالبًا ما تكون مطبوعة بالحبر الأسود، وبالتالي فليس بمقدور القارئ أو المتذوق أن يرى ألوانها بوضوح واقعي وحقيقي، كرؤيته لألوان قوس قزح المتألقة في السماء، ولكن يتعين على ذلك القارئ أو المتذوق أن يتأمل في معنى ودلالات وتجليات النصوص الأدبية، كي يدرك ألوانها البهية بعقله وتأمله وليس بعينه المجردة، التي يرى بها الحبر الأسود للنصوص، والظواهر الطبيعية المختلفة.

بدون التأمل مليًا في كل لون من ألوان قوس قزح على حدة، وبدون استقصاء الحقائق حول المسببات الفيزيائية والكيميائية لهذه الظاهرة الطبيعية، لن يستطيع المتأمل معرفة القيمة الجمالية والتكوينية لهذا القوس. وكذلك بدون التأمل في عناصر تركيب الأدب ومواد بنائه، لن يستطيع المتأمل أو الدارس معرفة القيمة الجمالية والتكوينية للأدب.

وللتعرف على ماهية نظرية أصل الأدب، أو كما أسميها، نظرية (الأدب هو قوس قزح)، علينا أن نسأل أنفسنا هذا السؤال الهام:

- ما هي مكونات الأدب ؟.

مكونات الأدب

الأدب ليس كيانًا علميًا أو معرفيًا قائمًا بذاته من حيث التأصيل والتأسيس الذاتي. أي أنه ليس كالأحياء، أو الفيزياء، أو الجغرافيا، أو الاقتصاد، وغير ذلك. فعلم الأحياء مثلًا له أسس علمية خاصة به كعلم، وتقتصر عليه فقط، بحيث تضمن له هويته الخاصة، والمختلفة عن غيره من العلوم والمعارف. وحتى الفيزياء، أو الجغرافيا، أو الاقتصاد، جميع هذه العلوم لها أساساتها العلمية وأصولها الخاصة، والتي تكفل لها التفرد عن غيرها من العلوم، فتظلل حدود كياناتها المستقلة، وتحدد معالم الهوية الخاصة بكل منها.

خلاصة القول أن أساسات بنيان الأدب وأصوله التي تكون وتشكل من خلالها، لا تمكن له من حيث (الأسس والأصول) من التفرد بشخصية أو هوية خاصة به، بحيث تكون متميزة وفارقة عن غيره من العلوم والمعارف.

نفهم من ذلك أن علم الفيزياء مثلًا، له تقريبًا أصول وأساسات صافية ونقية، من كونها (فيزيائية) صرفة بالأساس، وكذلك علم الاقتصاد، له تقريبًا أصول وأساسات واضحة المعالم، من كونها (اقتصادية) بحتة بالأساس[1]. لكن الأدب ليس له أصول وأساسات صافية ونقية، بل أفضل ما توصف به أصول وأساسات الأدب، هو أنها هجينة ومخلطة، أي أنها ليست من صنف أو نوع واحد من العلوم والمعارف، ولا يغلب عليها صنف أو نوع واحد من العلوم والمعارف، بل هي من أصناف وأنواع شتى.

والفرق هنا يبدو واضحًا، فأساسات وأصول الفيزياء واضحة المعالم وشبه نقية من الشوائب، أي أنها تقريبًا أو إلى حد بعيد، غير مختلطة بشوائب من العلوم الأخرى (على الأقل في مرحلة الأصل والأساس)، وكذلك علم الاقتصاد، ونحوهما من علوم أخرى[2].

أما الأدب، فأساساته وأصوله التكوينية تفتقد مطلقًا إلى الانسجام والصفاء والنقاء، وهي عبارة عن خليط معقد من شتى أنواع العلوم والمعارف.

نظرًا لتشابك العلوم والمعارف وترابطها بشكل معقد، علينا أن نقر أنه قلما يوجد هناك علم صافي الأصل والأساس تمامًا، وبشكل مطلق. فلا بد أن يتأثر علم ما بغيره من العلوم، سواء في مرحلة أصوله وأساساته أو حتى في مرحلة نتائجه ومخرجاته. صحيح أن الكثير من العلوم تستعير

(1) أصول وأساسات علمي الفيزياء والاقتصاد، تتأثران كثيرًا بعلم الرياضيات، لكن بالرغم من ذلك يظل لدينا منهج فيزيائي مستقل وواضح المعالم، ومنهج اقتصادي مستقل أيضًا وواضح المعالم. وبالتالي فلكل من الفيزياء والاقتصاد، أصول وأسس متجانسة وواضحة المعالم.

(2) تختلف وتتفاوت درجة نقاء وصفاء أساسات وأصول العلوم، من علم إلى آخر. فعلى سبيل المثال، ثمة فرق وتباين بين علم أصوله وأساساته شديدة النقاء والصفاء كالرياضيات، وعلم آخر أصوله وأساساته شديدة التنوع والاختلاف، كالأنثروبولوجيا أو علم الاجتماع.

من غيرها بعض الإسهامات، وفي المقابل تعير، لكن في النهاية يبقى لهذه العلوم أطر تحفظ لها هويتها الخاصة والمميزة لها، أي أن الهياكل الأساسية لأصول هكذا علوم تكون أقرب إلى التماسك والانسجام، وتكون أبعد ولو بشكل متفاوت عن الخلط والامتزاج بباقي العلوم.

لكن في حالة الأدب، كما أسلفنا الأمر يختلف تمامًا، فمكونات الأدب التي يتأسس منها تخلو تمامًا من المركزية، وتبدو جميعها كفتات متناثر وقطع مبعثرة، فأصول الأدب كما ذكرنا ليس لها هوية خاصة بها، لتكون فارقة[1] وتميزها عن البقية، بل أصول الأدب وأساساته التكوينية كما قلنا جاءت من كل حدب وصوب، أي من كل العلوم والمعارف تقريبًا عدا الأدب نفسه، أي أن الأدب لم يسهم مطلقًا في تكوين وخلق أساساته وأصوله ولو بقيد أنملة !!.

إذا ما أجرينا عملية تشريح لجسد الأدب، وفككنا مكوناته، وتتبعنا مصادره وأصوله، فإننا سوف نجد أن الأدب قد جاء بأصوله وأساساته من بقية العلوم والمعارف. أي أن أصول الأدب وأساسات بنائه مشتقة من العلوم الطبيعية، والإنسانيات، والماورائيات، وغير ذلك.

أي أن أصول الأدب وأساساته التي يتكون منها هي عبارة عن مكونات ومعلومات ودلالات تاريخية، وسياسية، ونفسية، واجتماعية، وجغرافية، وبيولوجية، وانثروبولوجية، وجمالية، وغير ذلك، وبما أن الأدب هو نشاط بشري وكذلك تعبير عن التجارب الإنسانية، نجد أثر وإسهام الإنسانيات في أصول الأدب وأساساته أكبر من أثر وإسهام العلوم الطبيعية، وهذا ما يبدو بشكل ملحوظ وواضح.

لذلك لو اتخذنا قطعة عشوائية من نص أدبي ما، وتأملنا جيدًا في تلك القطعة، فإننا سوف نجدها تحتوي على مفردات ومعلومات ودلالات وإيحاءات سياسية، واقتصادية، واجتماعية، وانثروبولوجية، ولغوية، وبيئية، وميثولوجية، وفلسفية، وغيرها.

---

(1) الأدب هو الأسلوب، الذي من خلاله يتم تجميع وصياغة وصقل الإسهامات، التي تتوافد من مختلف العلوم والمعارف، لتشكل في نهاية المطاف النص الأدبي، أي أن الأدب يساهم في بناء نفسه هندسيًا، لكنه لا يساهم في بناء وصب اللبنات، التي بدونها لا تقوم عملية البناء من حيث الأساس.

وهذه النظرية[2] تنطبق على شتى أنواع الأدب، سواء النثر أو الشعر، سواء المسرحية أو الرواية، أو حتى القصة.

لذلك أقترح على من أراد التثبت من صحة هذه النظرية وصدقها، أن يتخذ نصوص أدبية متنوعة لغرض الدراسة، على أن يكون كل نص من هذه النصوص ممثلًا لجنسًا أو نوعًا أدبيًا مختلفًا. أي عليه أن يتخذ ويدرس نص أدبي، تارة من رواية، وتارة من قصيدة، وتارة من مسرحية، وتارة أخرى من قصة أو سيرة، وهكذا.

بلا شك، إن الدارس أو المتأمل في تلك النصوص، سيخلص إلى نتيجة واحدة مفادها أن هذه النظرية تنطبق على سائر الأنواع والأجناس الأدبية. وأن الأدب بشتى ضروبه وأنواعه، يستعير مواد البناء التي تشيد بها نصوصه، من العلوم والمعارف الأخرى. أي أن الأدب لا يعتمد على ذاته في بناء نفسه، بل يعتمد كليًا على إسهامات الآخرين ومنحهم ومشاركاتهم.

مشاركات العلوم والمعارف المختلفة في تكوين النص الأدبي لا تظهر بوضوح في بنية النص، أي في تواجده بالحبر الأسود على ظهر الصفحات البيضاء. فتلك الإسهامات والمشاركات تكون ممزوجة وذائبة تمامًا في ثنايا النسيج اللغوي للنص. فبدون تحليل وتأمل جيدين، وبدون تفكيك واستكشاف لإيحاءات ومكنونات النص، لن يستطيع القارئ أن يحدد ما للتاريخ، وما للسياسة، وما للاجتماع، وما للفلسفة، وما للاقتصاد من نفوذ وإسهامات، في تكوين النص الأدبي.

طبعًا لا يستطيع أحد أن يتخيل النص الأدبي وكأنه معلومات لجة متناثرة، أتت من إسهامات العلوم والمعارف، بدون وجود إطار يجمعها ببعضها البعض ويضمها في قالب واحد.

لمزيد من التوضيح، نقول أن النص الأدبي يتكون دائمًا وفي كل الحالات من عنصرين لا ثالث لهما. أما العنصر الأول فهو (المعلومات)، والعنصر الثاني هو (اللغة):

(2) من هنا وحتى نهاية الفصل، المقصود هو نظرية (الأدب هو قوس قزح).

(١) **المعلومات**: وهي ما للعلوم والمعارف المختلفة من إسهامات ومشاركات في بناء وتشييد النص الأدبي، وقد تحدثنا كثيرًا عن هذه المسألة، في إطار حديثنا المستفيض عن أصل الأدب وأساساته التي يتكون من خلالها.

(٢) **اللغة**: وهي الأداة التي تتحول بفعلها المعلومات الخام والمختلفة الأنواع والمصادر، إلى نص أدبي جمالي إبداعي، سائغ للقراءة والفهم والتمتع. أي أن اللغة هي التي تحول أصول الأدب ومواده الخام التي تأتي من مختلف العلوم والمعارف، إلى نص أدبي مترابط ومتجانس، جاهز للقراءة والتذوق. ولعل حروف الجر وعلامات الترقيم، هما أفضل ما يعبران عن روح وظيفة اللغة كما نقصد بها هاهنا، فباقي عناصر اللغة كالأسماء والأفعال والصفات، قد تكون في الكثير من الأحيان بحد ذاتها معلومات، أكثر منها لغة بالمعنى الذي ننشده ها هنا للغة.

الإسهامات المختلفة للعلوم والمعارف في بناء وتأسيس الأدب، لا تظهر بشكل سهل وساذج داخل البنية التكوينية للنص الأدبي، أي ليس من السهولة بمكان العثور عليها والتوقف عندها من خلال مجرد قراءة عابرة للنص الأدبي، وبالتالي هكذا إسهامات أو معلومات تحتاج من المتتبع لها، أن يخصص لها ما هو أعمق من القراءة العابرة أو السطحية للنص، وأعني بذلك قراءة النقد الدقيق، والتمحيص، والتغلغل في أعماق نسيج النص، واستنطاق مكنوناته.

كما أسلفنا، يتعين على الدارس أو الناقد أن يرصد إسهامات العلوم والمعارف المختلفة داخل بنية النص الأدبي، وذلك من خلال إتباعه منهج تحليلي دقيق عند قراءته واستكشافه ذلك النص. لأن هذه الإسهامات قد تختلط ببعضها البعض في عدة مواضع داخل النص، وبالتالي يتعسر على الدارس أو الناقد، الفصل بين هذه الإسهامات وفرزها، وبالتالي يتعذر عليه تصنيفها تحت أي فرع من فروع العلوم والمعارف. كما أن هذه الإسهامات ربما تتماهى وتتداخل مع المكونات الأخرى للنص، وتذوب وتنصهر داخل السياق اللغوي للنص، بشكل يجعل مهمة تمييزها وتصنيفها أمرًا مشتتًا بين خيارين، أهي من إسهامات العلوم والمعارف في بناء النص، أم هي من الضروريات اللغوية التي لا تتوثق عرى النص إلا بها.

المتتبع والمراقب لإسهامات العلوم والمعارف في بنية النص الأدبي، بالتأكيد لن يجدها كلها ذات نفس الشكل أو الهيئة. بل سيجد تلك الإسهامات تأخذ مواقعها داخل بنية النص الأدبي، بأشكال وهيئات متعددة. فهذه الإسهامات قد تأتي في بعض المواضع بشكل صريح ومباشر، أي تظهر في النص من خلال كلمة واحدة أو كلمتين أو حتى جملة صغيرة. وتارة أخرى تكون الإسهامات ذات مغزى إيحائي ودلالي، فتأتي في سياق جملة، أو سطر، أو فقرة، أو حتى صفحة بأكملها.

وهذا لا يعني وجود تنافر أو اختلاف بين كلا الفريقين من الإسهامات، ففي صفحة ما بداخل نص أدبي معين، يمكننا أن نجد سياق تلك الصفحة بأكملها يعبر عن اتجاه دلالي وإيحائي معين، وربما في قراءة نقدية أخرى لهذه الصفحة، وبنمط أكثر تفكيكًا وتحليلًا، نتمكن من حصر وتحديد هوية كل العلوم والمعارف التي أسهمت ولو بكلمة واحدة في بنية وتكوين الصفحة.

مثلًا إذا كان السياق العام لهذه الصفحة يعطي مدلولًا وإيحاءات نفسية صرفة (علم نفس)، فإن هذا لا يتنافى ولا يمنع من تحديد انتماءات الكلمات والعبارات داخل تلك الصفحة، وكل على حدة. فكون تحليلنا لمجمل الصفحة على أنها نفسية، هذا لا يلغي إمكانية تحليل كلمات هذه الصفحة وبشكل دقيق، فلا مانع في هكذا صفحة نفسية، من وجود كلمات سياسية، واجتماعية، وفلسفية، وجغرافية، ودينية، ولغوية، وبيئية، وهكذا.

الإسهامات التي تأتي صريحة ومباشرة وتظهر في النص من خلال كلمة أو كلمتين أو جملة صغيرة، دعونا نسميها (إسهامات بسيطة)، أما الإسهامات التي تأتي بخلاف ذلك، دعونا نسميها (إسهامات معقدة).

وهنا لا بد من تقديم أمثلة توضيحية حول هذه القضية، كي تصبح سائغة للفهم والاستيعاب. لذلك أقدم لكم أمثلة على الإسهامات (البسيطة)، والإسهامات (المعقدة)، والأمثلة هي عبارة عن اقتباسات من رواية (موسم الهجرة إلى الشمال)، أشهر أعمال الروائي السوداني (الطيب صالح)، والذي لقبه النقاد، عبقري الرواية العربية.

أولًا: الإسهامات البسيطة.

إعلانات عن دروس في ركوب الخيل، قطط سيامية زرقاء للبيع. فتاة (١٧ سنة) مهذبة، من عائلة محترمة، تبحث عن عمل، سيدة ورثت لقب ليدي (٣٠ سنة) ترغب في وظيفة في الخارج، أخبار الرياضة. وست هام يهزم بيرهل. وست هام يفوز. جين تني يغلب جاك دمبسي. رسالة من ظفر الله خان يفند فيها آراء سير شمانلال ستالفاد بشأن النزاع بين المسلمين والهندوك في البنجاب. رسالة تقول: « الجاز موسيقى مرحة في عالم مظلم «. فيلان وصلا من رانغون أمس، وسارا على الأقدام من مرسى تلبري إلى حديقة الحيوان. مربي أبقار هجم عليه ثور في مزرعته وبقر بطنه. رجل سرق أربع موزات حكم عليه بالسجن ثلاث سنوات، الأخبار الإمبراطورية والخارجية. عرض جديد من موسكو لتسديد الدين الروسي لفرنسا. فيضانات في سويسرا، الدسكفري سفينة كابتن سكت عادت من البحار الجنوبية. هرسترسمان ألقى خطابًا عن نزع السلاح في جنيف يوم السبت. وأيضًا أدلى هرسترسمان بتصريح لصحيفة « ماتان» أيد فيه خطاب الرئيس فون هندنبرغ في تانبرج الذي رفض فيه أن ألمانيا مسئولة عن نشوب الحرب. المقالة الافتتاحية عن معاهدة جدة التي وقعها سير غلبرت كليتن بالنيابة عن بريطانيا العظمى والأمير فيصل بن عبد العزيز آل سعود نيابة عن أبيه ملك الحجاز ونجد ومحمياتهما. الحالة الجوية في إنجلترا وويلز، الرياح في الغالب بين الغربي والشمال الغربي، قوية أحيانًا في الأماكن المكشوفة، فترات طويلة من الهدوء ولكن مع فترات من العواصف الممطرة وأحيانًا أمطار محلية[1].

في الاقتباس السابق، نشاهد الإسهامات البسيطة للعديد من العلوم والمعارف، وهي تتداخل في بنية النص الأدبي، وتشارك في بنائه بشكل بديع ورائع. يمكننا استخراج تلك الإسهامات من النص، وتفكيكها وتحليلها وتصنيفها وفقًا لنوع العلم أو المعرفة أو الفن الذي جاءت منه، أي على النحو التالي:

(1) الطيب صالح: موسم الهجرة إلى الشمال، طبعة دار العين، القاهرة 2004، ص 135.

١) سياسة: خطاب الرئيس- نشوب الحرب- الأمير فيصل بن عبد العزيز آل سعود- ظفر الله خان- ملك الحجاز- فون هندنبرغ- معاهدة جدة- سير غلبرت كليتن- نزع السلاح- هرسترسمان- النزاع- الإمبراطورية.

٢) اقتصاد: تسديد الدين الروسي لفرنسا، تبحث عن عمل- مربي أبقار- مزرعته.

٣) جغرافيا: موسكو- سويسرا- تانبرج- البحار الجنوبية- جنيف- في الخارج- ألمانيا- نجد -بريطانيا العظمى- رانغون- انجلترا- ويلز- مرسى تلبري- البنجاب- الأماكن المكشوفة.

٤) رياضة: ركوب الخيل- وست هام (فريق كرة قدم)- بيرهل (فريق كرة قدم)- جين تني (ملاكم)- جاك دمبسي (ملاكم).

٥) أنثروبولوجيا: فتاه- سيدة- رجل- أبيه.

٦) علم الحيوان: قطط سيامية- حديقة حيوان- ثور- فيلان- أبقار.

٧) علم الاجتماع: عائلة محترمة- تبحث عن عمل- ورثت لقب ليدي- ترغب في وظيفة- النزاع.

٨) صحافة: الأخبار- أخبار الرياضة- المقالة الافتتاحية- صحيفة ماتان.

٩) علمي المناخ والطقس: الحالة الجوية- الرياح- العواصف الممطرة- أمطار محلية- فيضانات.

١٠) دين: المسلمين- الهندوك.

١١) علم الجريمة: سرق.

١٢) قانون: حكم عليه بالسجن.

١٣) رياضيات: أربع.

١٤) موسيقى: الجاز.

١٥) علم النبات: موزات.

١٦) فلسفة: عالم مظلم.

ثانيًا: الإسهامات المعقدة.

١) في الاقتباس التالي نجد بصمات علم التاريخ واضحة في سياق النص الأدبي:

« كان أبوه من العبابدة، القبيلة التي تعيش بين مصر والسودان. إنهم الذين هربوا سلاطين باشا من أسر الخليفة عبد الله التعايشي، ثم بعد ذلك عملوا روادًا لجيش كتشنر حين استعاد فتح السودان. ويقال إن أمه كانت رقيقًا من الجنوب. من قبائل الزاندي أو الباريا، الله أعلم. الناس الذين ليس لهم أصل، هم الذين تبوأوا أعلى المراتب أيام الإنجليز»[١].

٢) في الاقتباس التالي نجد بصمات السياسة:

«كل الذي يفلحون فيه يجيئون إلينا مرة كل عامين أو ثلاثة بجماهيرهم ولواريهم ولافتاتهم .. يعيش فلان ويسقط علان. كنا مرتاحين أيام الإنجليز من هذه الدوشة». وبالفعل يمر بنا جمع من الناس في لوري قديم وهم يهتفون: «عاش الحزب الوطني الديمقراطي الاشتراكي». هل هؤلاء الناس هم الذين يطلق عليهم «الفلاحون» في الكتب؟ لو قلت لجدي إن الثورات تصنع باسمه، والحكومات تقوم وتقعد من أجله، لضحك، الفكرة تبدو شاذة فعلا»[٢].

٣) في الاقتباس التالي نجد بصمات علم الاجتماع:

«وصل بنا الحديث إلى موضوع الزواج المختلط، وتحول الحديث من نقاش عمومي إلى كلام عن حالات محددة. ثم من هم المتزوجون من أوروبيات؟ ثم من انجليزيات؟ من هو أول سوداني تزوج انجليزية؟ فلان؟ لا. فلان؟ لا. وفجأة .. مصطفى سعيد. قالها الشاب المحاضر في الجامعة،

(1) الطيب صالح: موسم الهجرة إلى الشمال، طبعة دار العين، القاهرة 2004، ص 50 – 51.
(2) نفس الكتاب، ص 60.

وعلى وجهه إحساس الفرح ذاته الذي لمحته على وجه المأمور المتقاعد. ومضى الشاب يقول، تحت سماء الخرطوم المرصعة بالنجوم في أوائل فصل الشتاء: «مصطفى سعيد كان أول سوداني تزوج انجليزية، بل إنه كان أول سوداني تزوج أوروبية إطلاقًا. أظن أنكم لم تسمعوا به، فقد نزح من زمن تزوج في انجلترا وتجنس بالجنسية الانجليزية.»[٣].

٤) في الاقتباس التالي نجد بصمات علم الاقتصاد:

« وسمعت منصور يقول لرتشارد: «لقد نقلتم إلينا مرض اقتصادكم الرأسمالي. ماذا أعطيتمونا غير حفنة من الشركات الاستعمارية نزفت دمائنا ولا تزال؟» وقال رتشارد: « كل هذا يدل على أنكم لا تستطيعون الحياة بدوننا، كنتم تشكون من الاستعمار، ولما خرجنا خلقتم أسطورة الاستعمار المستتر. يبدو أن وجودنا، بشكل واضح أو مستتر، ضروري لكم كالماء والهواء»[٤].

٥) في الاقتباس التالي نجد بصمات الأنثروبولوجيا (علم الإنسان):

« ما جنسك؟» هل أنت أفريقي أم آسيوي؟».

قلت لها: «أنا مثل عطيل. عربي أفريقي».

نظرت إلى وجهي وقالت: «نعم. مثل أنوف العرب في الصور. لكن شعرك ليس فاحمًا ناعمًا مثل شعر العرب».

«نعم. هذا أنا وجهي عربي كصحراء الربع الخالي، ورأسي أفريقي يمور بطفولة شريرة»[٥].

---

(3) نفس الكتاب، ص 51 – 52.

(4) نفس الكتاب، ص 56.

(5) نفس الكتاب، ص 37.

٦) في الاقتباسين التاليين نجد بصمات الجغرافيا، واضحة:

«ويخرج من السجن، وينتشر في أصقاع الأرض؛ من باريس إلى كوبنهاجن إلى دلهي إلى بانكوك، وهو يحاول التسويف. وتكون النهاية بعد ذلك في قرية مغمورة الذكر على النيل»[١] «والنهر، النهر الذي لولاه لم تكن بداية ولا نهاية، يجري نحو الشمال، لا يلوي على شيء، قد يعترضه جبل فيتجه شرقًا، وقد تصادفه وهدة من الأرض فيتجه غربًا، ولكنه إن عاجلًا أو آجلًا يستقر في مسيره الحتمي ناحية البحر في الشمال»[٢].

٧) في الاقتباس التالي نجد بصمات الإيكولوجيا (علم البيئة):

«الحقول نيران ودخان. هذا أوان الاستعداد لزراعة القمح ينظفون الأرض ويجمعون أعواد الذرة والجذوع الصغيرة، ذكريات الموسم الذي انتهى، ويكومونها أكوامًا وسط الحقول ويحرقونها. الأرض سوداء مبسوطة تستعد للحدث القادم. الرجال قاماتهم منحنية على المعاول وبعضهم خلف المحاريث. قمم النخل ترتعش للهواء الخفيف وتسكن، وبخار حار يتصاعد من حقول البرسيم المروية، تحت وطأة الشمس في منتصف النهار ومع كل هبة ريح يفوح أريج الليمون والبرتقال واليوسفندي. خوار ثور أو نهيق حمار أو صوت فأس في الحطب ولكن الدنيا قد تغيرت.»[٣].

---

(1) نفس الكتاب، ص 64.

(2) نفس الكتاب، ص 64.

(3) نفس الكتاب، ص 117 - 118.

٨) في الاقتباسين التاليين نجد بصمات شئون وقضايا الدين:

«إزابيلا سيمور قالت له: «المسيحيون يقولون إن إلههم صلب ليحمل وزر خطاياهم. إنه إذن مات عبثًا. فما يسمونه بالخطيئة ما هو إلا زفرة الاكتفاء بمعانقتك»[٤].

«كفرت بدينها وعبدت إلهًا كعجل بني إسرائيل يا للغرابة. يا للسخرية. الإنسان لمجرد أنه خلق عند خط الإستواء، بعض المجانين يعتبرونه عبدًا وبعضهم يعتبرونه إلهًا، أين الاعتدال؟ أين الإستواء؟»[٥].

٩) في الاقتباس التالي نجد بصمات فني الهندسة والديكور:

«قاعة الاستقلال» التي بنيت لهذا الغرض، وكلفت أكثر من مليون جنيه، صرح من الحجر والأسمنت والرخام والزجاج، مستديرة كاملة الاستدارة، وضع تصميمها في لندن، ردهاتها من رخام أبيض جلب من إيطاليا، وزجاج النوافذ ملون، قطع صغيرة مصفوفة بمهارة في شبكة من خشب التيك، أرضية القاعة مفروشة بسجاجيد عجمية فاخرة، والسقف على شكل قيمة مطلية بماء الذهب، تتدلى من جوانبها شمعدانات كل واحد منها بحجم الجمل العظيم. المنصة حيث تعاقب وزراء التعليم في أفريقيا طوال تسعة أيام من رخام أحمر كالذي في قبر نابليون في الإنفاليد، وسطحها أملس لماع من خشب الأبنوس. على الحيطان لوحات زيتية، وقبالة المدخل خريطة واسعة لأفريقيا من المرمر الملون، كل قطر بلون.»[٦].

---

(4) نفس الكتاب، ص 99 - 100.
(5) نفس الكتاب، ص 100.
(6) نفس الكتاب، ص 109 - 110.

١٠) في الاقتباس التالي نجد بصمات الببليوغرافيا:

«والكتب .. على ضوء المصباح أراها مصنفة مرتبة. كتب الاقتصاد والتاريخ والأدب علم الحيوان جيولوجيا. رياضيات. فلك. دائرة المعارف البريطانية. غبون. ماكولي. طوينبي. أعمال برنارد شو كلها كينز. توني. سميث. روبنسن، مقالة عن الاقتصاد الماركسي. علم الاجتماع علم الأجناس. علم النفس. طوماس هاردي. طوماس مان. أي جي مور، طوماس مور، فرجينيا وولف. وتغنشتاين. اينشتاين. برايرلي. نامبير، كتب سمعت بها وكتب لم أسمع بها. دواوين لشعراء لا أعلم بوجودهم. يوميات غردون. رحلات غلفر. كلينغ. هوسمان تاريخ الثورة الفرنسية، طوماس كارلايل. محاضرات عن الثورة الفرنسية، لورد أكتن، كتب مجلدة بالجلد، كتب في أغلفة من الورق كتب قديمة مهلهلة، كتب كأنها خرجت من المطبعة لتوها. مجلدات ضخمة في حجم شواهد القبور. كتب صغيرة مذهبة الحوافي في حجم ورقة الكوتشينة. توقيعات. إهداءات. كتب في صناديق، كتب على الكراسي، كتب على الأرض. أية دعابة هذه؟ ماذا يقصد؟ أوون. فورد. ستيفان زفايغ. أي جي براون. لاسكي. هازلت، أليس في أرض العجائب رتشاردز، القران بالإنجليزية. الإنجيل بالإنجليزية، غلبرت مري أفلاطون اقتصاد الاستعمار، مصطفى سعيد. الاستعمار والاحتكار، مصطفى سعيد. الصليب والبارود، مصطفى سعيد اغتصاب أفريقيا، مصطفى سعيد. بروسبرو وكاليبان. الطوطم والتابو، داوتي ..لا يوجد كتاب عربي واحد.»[1].

١١) في الاقتباس التالي نجد بصمات علم الجمال (الأستاطيقا):

« نحن هكذا وهي تطرب للشعر وتطرب للشراب، تسقيني لذاذات الأكاذيب العذبة وأنسج لها خيوطا دقيقة مريعة من الأوهام. تقول لي إنها ترى في عيني لمح السراب في الصحاري الحارة.

(1) نفس الكتاب، ص 123 - 124.

وتسمع في صوتي صرخات الوحوش الكاسرة في الغابات، وأقول لها إنني أرى في زرقة عينها بحور الشمال البعيدة التي ليس لها سواحل. وفي لندن أدخلتها بيتي، وكر الأكاذيب الفادحة، التي بنيتها عن عمد، أكذوبة أكذوبة. الصندل والند وريش النعام وتماثيل العاج والأبنوس والصور والرسوم لغابات النخل على شطان النيل، وقوارب على صفحة الماء أشرعتها كأجنحة الحمام، وشموس تغرب على جبال البحر الأحمر، وقوافل من الجمال تخب السير على كثبان الرمل على حدود اليمن، أشجار التبلدي في كردفان، وفتيات عاريات من قبائل الزاندي والنوير والشلك، حقول الموز والبن في خط الإستواء، والمعابد القديمة في منطقة النوبة، الكتب العربية المزخرفة، الأغلفة مكتوبة بالخط الكوفي المنمق، السجاجيد العجمية والستائر الوردية، والمرايا الكبيرة على الجدران، والأضواء الملونة في الأركان»[٢].

١٢) في الاقتباسين التاليين نجد بصمات الأدب بأنواعه وأجناسه المتعددة:

«ثلاثون عامًا وقاعة ألبرت تغص كل ليلة بعشاق بيتهوفن وباخ، والمطابع تخرج آلاف الكتب في الفن والفكر. مسرحيات برنارد شو تمثل في الرويال كورت والهيماركت. كانت إيدث ستول تغرد بالشعر، ومسرح البرنس أف ويلز يفيض بالشباب والألق»[٣].

«قلت لهم إن عمر الخيام لا يساوي شيئًا إلى جانب أبي نواس، وقرأت لهم من شعر أبي نواس في الخمر بطريقة خطابية مضحكة. زاعمًا لهم أن تلك هي الطريقة التي كان الشعر العربي يلقى بها في العصر العباسي.»[٤].

(2) نفس الكتاب، ص 131 - 132.
(3) نفس الكتاب، ص 35.
(4) نفس الكتاب، ص 128 - 129.

في الاقتباسين الأخيرين، شاركت المعلومات الأدبية كما رأينا في تكوين النص الأدبي. لكن هذا لا يثنيني عن رأيي الذي عبرت عنه من قبل، بأن الأدب لا يشارك البتة في بناء ذاته، وإنما يعتمد كليًا على الإسهامات الوافدة إليه من الخارج، أي من باقي العلوم والمعارف.

وذلك لأن الإسهامات التي تبدو لنا على أنها أدبية، هي في الحقيقة ليست أدبية، لأن مصيرها في النهاية يتفكك، ويذهب إلى العلوم والمعارف والفنون التي جاءت منها !!.

أي أن كلًا من مسرحيات جورج برنارد شو George Bernard Shaw، وروايات دكنز Dickens، وأشعار عمر الخيام وأبي نواس، تتلاشى في النهاية بفعل الممارسات النقدية وآثارها التحليلية، فتتفكك وتذوب إلى أصولها التي جاءت منها، كالتاريخ، والجغرافيا، والسياسة، والاجتماع، وهكذا.

من خلال الأمثلة الشارحة التي قدمناها عن مساهمات العلوم والمعارف المختلفة، في تكوين بنية النص الأدبي، نستنتج حقيقة واضحة لا تحتمل الشك أو الارتياب، وقد سبق وأن تحدثنا عنها. ألا وهي أنني في نظرية (الأدب هو قوس قزح) لم أقارن الأدب بقوس قزح عبثًا، وإنما لوجود ذلك التطابق الكبير بينهما. فكما يتكون قوس قزح من اللون الأحمر، والأزرق، والبرتقالي، والأخضر، وغيرهم. كذلك الأدب يتكون من الاقتصاد، والسياسة، والتاريخ، والإيكولوجيا، والبيولوجيا، والأستاطيقا، والجغرافيا، والفلسفة، وهكذا.

نتعلم من هذه النظرية الفذة، التي توضح أبستمولوجيا الأدب من حيث وجوديته وأصوله وأساساته، أن نمعن التفكير والتأمل في أدق الجزئيات والمسائل مهما صغرت، ونتعلم كذلك ألا نستسلم ونتوقف عند الحدود التي توقفت عندها مدارك علم الآخرين، وتأملاتهم، واجتهاداتهم.

ولولا هذه النظرية الرائعة، لما تتبعنا جذور الظاهرة الأدبية من الناحية التكوينية، ولما توثقنا من الآلية التي يبنى بها الأدب، ولما عرفنا أن أصول الأدب كلها دخيلة، وأن دماء الأدب ضائعة مشتته بين كافة قبائل العلوم والمعارف!!.

الفصل الثالث:
علاقة الجغرافيا بالأدب والنقد الأدبي.

- الجغرافيا والأدب.
- الجغرافيا والنقد الأدبي.

الجغرافيا والأدب

من تمعن في قراءة وفهم نظرية ابستمولوجيا الأدب (الأدب هو قوس قزح)، ومن تفطن لأصول تكون ونشوء الظاهرة الأدبية، ومن تتبع علاقة نشوء الظاهرة الأدبية بشتى ضروب العلوم والمعارف، يفهم بتجلي ووضوح كاملين، أنه ثمة علاقة بين الجغرافيا والأدب.

العلاقة بين الجغرافيا والأدب ليست مجرد علاقة عادية فحسب، بل علاقة قوية ومتينة جدًا. فاستنادًا إلى نظرية (الأدب هو قوس قزح)، الجغرافيا هي من أغنى الروافد التي تغذي الأدب، أي أنها أحد أبرز العلوم المشاركة في خلق وتكوين الظاهرة الأدبية، بأنواعها المختلفة، وتجلياتها المتنوعة.

الجغرافيا كما ذكرنا، هي من أكثر العلوم إسهامًا في أصول الأدب وتكوينه. هل لأحد أن يتخيل مكونات الأدب بلا مشاركات أو إسهامات جغرافية؟. وهل لأحد أن يتخيل الأدب بدون تلك النكهة الرائعة التي تكسبه إياها الجغرافيا؟.

الجغرافيا كمساهم فعال جدًا في عملية بناء النص الأدبي، لا يمكن اعتبارها كبقية المساهمين العاديين، فهي تمارس دور حيوي وحساس جدًا في بناء وتكوين الأدب، وبدون دورها هذا يصبح الصرح الأدبي آيلًا للسقوط، هذا إذا ما قامت له قائمة من حيث الأساس.

فالجغرافيا هي التي توفر للنص الأدبي عنصر (المكان)، والذي بدونه لا يكون هناك أي وجود حقيقي للنص. ولكم أن تتخيلوا هاهنا، هل من الممكن أن يكون هناك نص أدبي بلا مكان؟.

بالتأكيد لا.

فعدم وجود عنصر المكان في النص أو العمل الأدبي ينفي وجود ذلك النص أو العمل منطقيًا، وينسف ويلغي باقي عناصر العمل الأدبي، فأين ستدور أحداث العمل الأدبي في

ظل عدم وجود مكان ليكون بمثابة المسرح الذي يحتضن هذه الأحداث؟. وكيف سيكون هناك شخصيات في العمل الأدبي في ظل عدم وجود حيز مكاني لتمكث وتتنقل فيه هذه الشخصيات؟. وكيف ستترابط حلقات سلسلة الحبكة في ظل غياب المكان؟.

هذه كلها تساؤلات تدحض بمنطقية شديدة، إمكانية وجود نص أدبي أو عمل أدبي بدون تواجد حقيقي لعنصر المكان.

يمكننا القول أن العمل الأدبي في ظل غياب عنصر المكان، لا يكون مستوفيًا لكافة الشروط الضرورية والمنطقية، الواجب توافرها في العمل الأدبي الصحيح والمتكامل البنية.

عنصر المكان هو من المسائل التي تضفي مزيدًا من المصداقية والمنطقية على نصوص الأدب الواقعي، وحتى الأدب الخيالي هو الآخر ليس في معزل عن عنصر المكان، ففي نصوص الأدب الخيالي ثمة أماكن جغرافية حقيقية، أو حتى أماكن مصطنعة وتصورية.

العلاقة بين الأدب والجغرافيا، هي علاقة تأثير وتأثر متبادلين. فكما ذكرنا مرارًا وتكرارًا، تعد الجغرافيا من أبرز المساهمين في عملية إنشاء الظاهرة الأدبية، وفي تكوين النص الأدبي مهما كان نوعه أو جنسه. وكما ذكرنا أيضًا، إن الجغرافيا تتعهد على الدوام، بتزويد النص الأدبي بعنصر المكان، والذي بدونه لا يصير النص الأدبي نصًا، ولا حتى أدبيًا، بالمعنى الحقيقي للكلمة.

هذا هو تأثير الجغرافيا على الأدب، ولكن في المقابل ما هو تأثير الأدب على الجغرافيا؟.

بلا شك هناك تأثير للأدب على الجغرافيا كعلم وممارسة، ويمكننا التطرق إلى ذلك التأثير من خلال وجهين اثنين:

الوجه الأول: في كثير من الأحيان يتفوق النص الأدبي على علم الجغرافيا في وصفه لمكان معين، فالحقيقة التي يقر بها الجميع وبمن فيهم الجغرافيين، هي أن الجغرافيا كعلم جاف وصارم، لا تعطي إحساسًا بالمكان كما يعطي الأدب، فالنص الأدبي يتفوق على الجغرافيا

من خلال أسلوبه الجمالي والإبداعي في السرد والوصف. باختصار يمكننا القول أن الجغرافيا ترسم الأماكن وتصفها بالخرائط والبيانات الجافة، أما الأدب أو النص الأدبي فهو وبأسلوب راقي ومبدع، يرسم الأماكن ويصفها بالكلمات، والتي بدورها تعطي إحساسًا بروح المكان وقيمته.

يمكننا القول بأن النصوص الأدبية، وخصوصًا تلك النصوص ذات البعد الجغرافي، قد تكون عاملًا مرغبًا ومحرضًا ومحفزًا على دراسة الجغرافيا، فالقارئ المتمتع في تذوق نص أدبي ذات بعد جغرافي، سيحمله فضوله غالبًا على البحث في كتب الجغرافيا، عن المعلومات الجغرافية والأماكن التي قرأ عنها في ذلك النص الأدبي.

وفي المقابل سيلجأ الدارس المتخصص في الجغرافيا إلى قراءة النصوص الأدبية عمومًا، والنصوص الأدبية ذات التركيز الجغرافي خصوصًا، كي يحاكي شيئًا من الأسلوب الذي تكتب به هذه النصوص، وكي يتعلم من خلالها اللغة الأدبية الراقية والثرية، والتي عادةً ما يفتقدها الأكاديمي، وخصوصًا دارس العلوم الجافة، فهو يكون في أمس الحاجة إلى تلك اللغة، كي يطور من خلالها أسلوب الكتابة البراغماتية عنده، وكي يتعلم منها ما يعينه على كتابة دراساته ووثائقه البحثية.

ذات الأكاديمي والدارس للجغرافيا، سيلجأ إلى قراءة النصوص الأدبية عمومًا والنصوص ذات النزعة الجغرافية خصوصًا، كي يحس بروح المكان الذي يقرأ عنه في كتب الجغرافيا الجافة، وكي يروح عن نفسه، وكي يمتع نفسه بقراءة بعض اللغة الجمالية التي تخاطب العواطف، وتمتع النفس، وتحقق الإقناع بسلاسة وبساطة.

كذلك يمكن للتربويين وعلماء المناهج أن يستغلوا دور الأدب المعين على فهم الجغرافيا، من خلال تصميمهم لمناهج جغرافيا تحتوي على دروس تقدم المعلومات الجغرافية للطالب، عن طريق السرد القصصي السلس والبسيط. وبتلك المناهج أعني بالتأكيد مناهج طلاب المراحل الدراسية الأساسية والإعدادية.

مناهج بهذه الصيغة ستحمل الطلاب اليافعين أو الصغار على فهم مادة الجغرافيا، بشكل سهل ومبسط، يخلو من التهويل والتعقيد.

الوجه الثاني: يؤثر الأدب بشكل جلي وواضح على الجغرافيا، وتحديدًا جغرافية العمران. فكثير من الأحياء والميادين والشوارع في شتى أرجاء العالم، حملت أسماء أدباء رواد ومشاهير، مثل وليام شكسبير William Shakespeare، وفكتور هوغو Victor Hugo، ونجيب محفوظ، وغيرهم.

فهمنا من جميع ما سبق أن وجود الجغرافيا في النص الأدبي، هو من المسلمات التي لا اجتهاد مع حتمية وجودها. وبالتالي فإن كل عمل أدبي فيه شيء من الجغرافيا، ولكن هل هذا يعني أن كل عمل أدبي هو (جغرافي)؟.

بالتأكيد لا.. فصفة (العمل الأدبي الجغرافي) لا تطلق إلا على الأعمال الأدبية التي تكون تحت الهيمنة الكاملة للجغرافيا كفكرة، أعني بذلك أن الأفكار (الثيمات) الجغرافية يجب أن تكون مسيطرة على مجريات الأحداث في نص أدبي معين، كي يتسنى لنا أن نصنفه على أنه (عمل أدبي جغرافي).

وتجنبًا للبس وسوء الفهم، أرى أن نقسم مشاركة الجغرافيا في النص الأدبي، على النحو التالي:

١) مشاركة عادية: أي أن تشارك الجغرافيا في النص الأدبي مشاركة تقليدية وعفوية وبسيطة، أي تحت بند ما يسمى (عنصر المكان).

٢) مشاركة متقدمة: أن تتسيد الجغرافيا الجو العام للنص الأدبي، من خلال سيطرتها التامة على أفكاره وأحداثه. أو على الأقل أن تكون الجغرافيا هي أحد الأطراف الرئيسية، التي بدورها تتشارك السيطرة على أفكار النص وأحداثه ومفهومه العام.

المشاركة العادية للجغرافيا في تكوين الأدب، تظهر في سائر الأعمال الأدبية باختلاف أجناسها وأنواعها، وذلك بحكم تواجدها الطبيعي في عنصر (المكان)، والذي اتفقنا على أن وجود النص الأدبي لا يستقيم بدونه.

أما المشاركة المتقدمة للجغرافيا في تكوين الأدب، فلا تظهر غالبًا إلا في الأعمال الأدبية التي يمكننا أن نصنفها على أنها (أعمال أدبية جغرافية). وتلك الأعمال ذات النزعة الجغرافية الواضحة، نجدها في بعض الأجناس والأنواع الأدبية، كأدب الرحلات بدرجة أولى، وأدب المغامرات، والروبنسونات[1] Robinsonade، وأدب البحر، وغير ذلك، بدرجة ثانية.

مشاركة الجغرافيا في تشكيل النص الأدبي واكبت سائر نصوص الأدب، منذ النص الأول (جلجامش)، وحتى يومنا هذا. وبمشاركة الجغرافيا هاهنا أقصد مشاركتها العادية.

أما المشاركة المتقدمة للجغرافيا في تشكيل النص الأدبي، فقد بدأت تظهر في الأعمال الأدبية بشكل مركز ودقيق وأكثر وضوحًا، منذ بضعة قرون فحسب.

منذ كتابة النص الأدبي الأول في التاريخ (جلجامش)، وحتى القرن الرابع عشر للميلاد تقريبًا، كانت العلاقة بين الأدب والجغرافيا قوية فحسب. لكن العهد الجديد من العلاقات الأكثر قوة وصلابة بين الأدب والجغرافيا، كان تقريبًا في الفترة التي تلت القرن الرابع عشر للميلاد.

إذًا يمكننا القول أن القرن الخامس عشر، وتحديدًا النصف الثاني منه، كان بمثابة بداية عصر النهضة أو عصر العلاقات الذهبية بين كل من الأدب والجغرافيا. وهذا ما أتاح للجغرافيا فرصة

(1) مصطلح (الروبنسونات) ظهر لأول مرة، في مقالة لمحمد جهاد إسماعيل بعنوان (تأملات في عالم الروبنسونات)، نشرت المقالة بتاريخ 16 كانون الثاني 2012، في العدد 801 من صحيفة (البناء) اللبنانية. (الروبنسونات) هي ترجمة للمصطلح الإنجليزي Robinsonades، وسنتحدث عنها بالتفصيل، في قادم الفصول والصفحات.

المشاركة في تكوين النص الأدبي بمشاركات وإسهامات أكثر تقدمًا وتوغلًا من تلك التي اعتادت على المشاركة والمساهمة بها من قبل[1].

القرن الخامس عشر للميلاد مثل بداية حدوث طفرة كبيرة في العلاقة بين الجغرافيا والأدب. انطلاقًا من تلك النقطة، وشيئًا فشيئًا، بدأ يتطور تواجد الجغرافيا ويتعزز نفوذها وتكثر إسهاماتها في الأدب عمومًا، وذلك بفضل كثير من العوامل والاعتبارات، أبرزها ما يلي:

١) الكشوف الجغرافية:

لغاية القرن الرابع عشر تقريبًا، لم يكن العالم متألفًا سوى من ثلاث قارات (آسيا، أفريقيا، أوروبا)، أو ما نسميه اليوم بالعالم القديم. لكن الجغرافيا كانت على موعد في نهايات القرن الخامس عشر للميلاد مع بداية ثورتها التاريخية والغير مسبوقة، والتي تمثلت في الكشوف الجغرافية العظمى، والتي بفضلها عرفنا الأمريكيتين ومن ثم أستراليا، فيما نسميه أحيانًا بالعالم الحديث، أو العالم الجديد.

هذه الكشوف الجغرافية العظمى لم تأت من فراغ، بل جاءت بجهود بحارة ومستكشفين شجعان، خاطروا بأنفسهم، حملوا على عاتقهم عناء السفر الطويل، مضوا إلى المجهول بغموضه المخيف، مخرت سفنهم عباب المحيطات، ليعثروا لنا على النصف الآخر لعالمنا المعاصر.

وسائل التكنولوجيا المذهلة التي بين أيدينا الآن، لم تكن معروفه لدى هؤلاء البحارة والمستكشفين، والذين اعتمدوا بدورهم على الوسائل البدائية البحتة. لو رأينا السفن والأدوات التي استخدمها هؤلاء المستكشفين في استكشافاتهم لأثارت فينا الضحك والسخرية، لكنهم

(1) في فترة ما بعد القرن الخامس عشر، بدأت تظهر الرواية كشكل جديد من أشكال الأدب، وقد ساعدت الرواية بمزاياها النثرية والسردية التفصيلية، على زيادة العلاقة والارتباط بين الجغرافيا والأدب. فقد كانت الرواية بمثابة بابًا واسعًا وكبيرًا، دخلت من خلاله الجغرافيا وبقوة إلى عالم الأدب.

في النهاية حققوا الفتح الجغرافي الأعظم في تاريخ البشرية، فبمجرد أن وطأت أقدام اولئك المستكشفين يابسة العالم الجديد، بدأت حركة التغيير التي قلبت العالم رأسًا على عقب، فيما بعد.

رواد الاستكشاف الجغرافي مثل كريستوفر كولومبوس Christopher Columbus ، وأمريكو فسبوتشي Amerigo Vespucci، وفرديناند ماجلان Ferdinand Magellan، وجيمس كوك James Cook، وغيرهم. مضوا يبحثوا لنا في الفضاءات البعيدة عن عوالم جديدة، كل منهم من وراء جهده هذا كان يبتغي المجد الشخصي له، وكذلك المجد العام لأمته وشعبه، وربما من بعد ذلك كان يبتغي الصالح العام للبشرية جمعاء.

ولكن المتأمل فيما وصل إليه هؤلاء المستكشفين، أحيانًا قد تختلط عليه المواقف والآراء، ففي بعض المسائل الإيجابية، كوصول الطماطم إلينا بفضل تلك الكشوف، يشعر المرء بمدى روعة ذلك الإنجاز العظيم والذي قام به كولومبوس ورفاقه المستكشفين. ولكن في بعض المواقف الأخرى قد ينقم المرء على فعلة كولومبوس ورفاقه، خصوصًا عندما يتذكر أن (أمريكا القبيحة) لم تكن لتوجد لولا تلك الكشوف، وأن كتاب (نهاية التاريخ) لفرانسيس فوكوياما Francis Fukuyama لم يكن ليصل إلينا هو الآخر، لولا فعلة كولومبوس ورفاقه الشنعاء!!.

أحدثت هذه الكشوف الجغرافية أثرًا عملاقًا على أحوال الكون والبشرية جمعاء. وأكثر الأطراف التي تأثرت بهذه الكشوف كانت المجتمعات التي ينتمي إليها المستكشفون الأوائل، ألا وهي المجتمعات الأوروبية. فقد هاجرت أعداد كبيرة من سكان هذه المجتمعات لتستوطن القارات الجديدة التي تم اكتشافها وراء البحار. تيارات الهجرة تلك، تسببت في نشوء مجتمعات أوروبية جديدة خارج حدود أوروبا (تتكون من المهاجرين الأوروبيين)، وفي الاتجاه المقابل تسببت تلك التيارات في خفض الكثافة السكانية داخل المجتمعات الأوروبية الأصلية. وهذا ما انعكس بالإيجاب على الحالة الاقتصادية للمجتمعات الأوروبية سواء داخل أوروبا أو

خارجها. أما الوفرة الهائلة للثروات الطبيعية والمواد الخام في القارات الجديدة، فقد أحدثت فيما بعد طفرة اقتصادية هائلة في اقتصادات الدول الأوروبية المختلفة، وخصوصًا مع حلول إرهاصات الثورة الصناعية وتقدم الإنتاج.

أحدثت الكشوف الجغرافية نهضة علمية رهيبة في علم الجغرافيا، فتطور ذلك العلم كثيرًا وتوسعت مداركه، بفضل الكشوف ونتائجها وتبعاتها، وهذا بلا شك زاد من الحضور الجغرافي في المشهد الأدبي. فضلًا عن الجغرافيا، كانت تلك الكشوف سببًا في تطور الكثير من العلوم، كالجيولوجيا، والإثنولوجيا، والأحياء، وعلم النبات، وعلم الآثار، وعلمي الاجتماع والاقتصاد.

الأوروبيين الذين هاجروا إلى قارات العالم الجديد، اختلطوا بالسكان الأصليين لهذه القارات. وحدث نوع من التصادم الحضاري والإثني منذ البداية بين الطرفين، فالسكان الأصليين نظروا للمهاجرين الأوروبيين على أنهم مستعمرون جاءوا من وراء البحار كي يغتصبوا أرضهم، أما الأوروبيين فنظروا إلى السكان الأصليين بعين الاحتقار، على أنهم رعاع، حفاه، عراه، وثنيين، متخلفين الهيئة والطباع.

السلوك العدواني الإمبريالي للرجل الأوروبي الأبيض، وفي مقابله السلوك الفدائي الإستبسالي للسكان الأصليين البدائيين، أوقعا كلًا من الطرفين في كثير من النزاعات والصدامات الدموية، هذا لا يعني أن ميزان القوة كان متكافئًا عند الطرفين، بالطبع لا والدليل على ذلك هو أن السكان الأصليين تكبدوا أغلب الخسائر، وتعرضوا لحملات إبادة جماعية شرسة وتطهير عرقي رهيب، على يد الأوروبي الأبيض المهاجر.

لكن بالرغم من الخلافات العميقة بين الجانبين، كان هناك نوع من التأثير والتأثر الثقافي يحدث بين كلا الطرفين. حيث ما لبثت ثقافة الشعوب الأصلية أن تأثرت بثقافة المستعمر الأوروبي الأبيض (وإن كان ذلك يتم في كثير من الأحيان قسرًا، بسبب محاربة المهاجرين الأوروبيين لثقافة السكان الأصليين، ومحاولاتهم المستمرة لطمس معالم هكذا ثقافة). وفي

المقابل تأثر المهاجرين الأوروبيين كثيرًا بثقافة اولئك الوثنيين البدائيين (وهذا ما يؤكد أن كثير من السكان الأصليين كانوا أصحاب حضارات عظيمة وموروث ثقافي غزير، بعكس ما يدعي الأوروبيين أنهم كانوا شعوب متخلفة غبية، حيوانية السمات والطباع).

لم يكن الباعث وراء الكشوف الجغرافية هو تحقيق مجد معنوي لشخص ما أو أمة ما فحسب، بل كان السعي وراء هكذا كشوف هو جزء من استراتيجيات السياسة الخارجية للعديد من الدول أو الممالك الأوروبية آنذاك. ففي حقيقة الأمر كانت العديد من الدول الأوروبية تنشد تلك الكشوف، من أجل إيجاد حلول حقيقية للأزمات الاقتصادية الخانقة التي تمر بها هذه الدول، ومن أجل تعزيز مكانتها الجيوسياسية في ظل سيطرة وقوة إمبراطوريات الشرق، في الدولة العثمانية، وروسيا، وشرق آسيا، وسيطرة تلك الإمبراطوريات على معظم خطوط وطرق التجارة الدولية، سواء البرية منها أو البحرية. والكنيسة الأوروبية هي الأخرى كانت لها رغبة قوية في تلك الكشوف، من أجل الكرازة بالإنجيل، والتبشير بالدعوة المسيحية في أوساط السكان الوثنيين اللادينيين الذين يقطنون القارات الجديدة، وذلك بالتأكيد من أجل توسيع رقعة العالم المسيحي.

بما أن تلك الكشوف الجغرافية أحدثت طفرة هائلة من التغيير في أوساط المجتمعات الأوروبية، وبما أن الأدب هو مرآة المجتمعات والشعوب، نجد الكثيرين من الأدباء قد تأثروا بتلك الكشوف واستلهموا أفكار كتاباتهم منها، ونجد قطع أدبية كثيرة تنتمي لآداب لغات مختلفة، كتبت في حقبة الكشوف والقرون القليلة التي تلتها، لتغطي وتصف وتناقش تلك الفترة الهامة من تاريخ البشرية وهذا الكوكب الأزرق.

٢) تقدم التبادل التجاري:

في فترة الكشوف الجغرافية، وبعدها بعدة عقود، بدأت تحدث هناك طفرة واضحة في عالم النقل البحري والملاحة. طرأ تطور كبير على صناعة بناء السفن، فصارت السفن أسرع من ذي قبل، وأكثر تجهيزًا وتحصينًا، وبالتالي صارت أقل تأثرًا بتهديدات البحار وانفعالات الطبيعة.

تطور بناء السفن واكبه تطور في نوعية الطرق الملاحية التي تسلكها هذه السفن، بحيث راح المستكشفين يستكشفون طرقًا ملاحية أقصر وأأمن وأفضل من سابقاتها. فأصبحت السفينة تنجز رحلتها من مكان لآخر في وقت أقل وكذلك جهد أقل من ذي قبل. وهذا ما ساعد بدوره على تشجيع وتنشيط عملية التبادل التجاري.

ففي خطوة لاحقة، تم التحايل على بعض النقاط الضعيفة والإستراتيجية في يابسة بعض القارات، من أجل نقرها وخلق ممرات بحرية وملاحية تختصر المسافات وتقلل من عناء السفر، على السفن وعلى من تحملهم على ظهورها تلك السفن.

فتم ربط البحرين الأبيض المتوسط والأحمر من خلال حفر قناة السويس، والتي قدمت للبشرية طريقًا ملاحيًا مذهلًا ومختصرًا يصل الشرق بالغرب، ليحل بدلًا من ذلك الطريق الشاق الذي كان يلتف حول رأس الرجاء الصالح. وكذلك تم ربط المحيط الأطلسي والبحر الكاريبي من جهة بالمحيط الهادئ من الجهة الأخرى، وذلك من خلال حفر قناة بنما، والتي اختصرت المسافات هي الأخرى، بشكل مدهش ومثير للإعجاب.

بالتأكيد كان لحفر قناتي السويس وبنما وغيرهما من القنوات المائية في العالم، أثرًا كبيرًا على تطور وتنامي التبادل التجاري بين الأمم.

وجاءت الحركة الاستعمارية كذلك لتنمي التبادل التجاري بين أرجاء العالم، وذلك من خلال دورة تبادل السلع والبضائع والموارد الطبيعية والمواد الخام بين المستعمرات والدول التي تقوم على استعمارها.

وعند الحديث عن أن الاستعمار قد ساعد على تنشيط التبادل التجاري بين كافة أرجاء العالم، علينا أن نعترف بأن الكشوف الجغرافية هي التي فتحت شهية الدول الأوروبية على الاستعمار. فلولا النتائج التي جاءت بها الكشوف الجغرافية لاقتصر الاستعمار الأوروبي على أفريقيا وبعض أرجاء آسيا فحسب، أما استعمار الدول الأوروبية لكامل الأمريكيتين وأستراليا، فما كان ليتم لولا وجود الكشوف الجغرافية وما تمخض عنها من نتائج أبهرت العالم.

لذلك يمكننا القول أن كلًا من الكشوف الجغرافية والحركة الاستعمارية كانا عاملين هامين، ساهما في تنشيط التبادل التجاري بين أرجاء العالم أجمع، وقاراته المختلفة، قديمها وجديدها.

حتى بعد استقلال الدول المستعمرة، فيما يعرف بالحقبة ما بعد الكولونيالية Postcolonialism [1]، استمر الارتباط التجاري بين الدول المستقلة والمتعافية حديثًا من الاستعمار(دول العالم الثالث)، والدول الاستعمارية (الدول الصناعية المتقدمة).

التبادل التجاري بين مختلف الدول والشعوب، مثل مفهومًا أعمق من مجرد تبادل السلع والبضائع والمواد الخام. في الحقيقة ذلك التبادل التجاري مثل أو شكل تبادلًا ثقافيًا بين العديد من الأمم والشعوب، وذلك بحكم الاحتكاك والتخالط الذي حدث بين الشعوب المختلفة بسبب النشاط التجاري بينها. فأفراد (س) من الشعوب أصبحوا يعرفوا الكثير عن عادات واعتقادات وثقافات (ص) من الشعوب، وأفراد (د) من الشعوب أصبحوا أكثر انفتاحًا واطلاعًا على ثقافة (هـ) من الشعوب، وهكذا.

(1) هي الحقبة التي أعقبت انتهاء الاستعمار الأوروبي، للكثير من أرجاء العالم.

وبالتالي هذا ما أثرى الثقافة الجغرافية عند جميع من تأثروا بعملية التبادل التجاري. فانعكست هذه الظاهرة على كتابة الأدب وأسلوب كتابته وعلى محتواه بالطبع، فصارت النصوص الأدبية تكتب بنزعة جغرافية أكثر تركيزًا وكثافة عن ذي قبل، وذلك بسبب تأثر كتابة الأدب، وكتاب الأدب بظاهرة التبادل الثقافي عالمية الانتشار تلك[1].

ولا يمكننا أيضًا في بعض المواضع التاريخية أن ننكر الدور المباشر للتجار، سواء البريين منهم أو البحريين في تكثيف النزعة الجغرافية داخل نصوص الأدب، فجميع هؤلاء التجار هم بطبيعتهم رحالة ومستكشفين، فترحالهم واستكشافهم هذا تأثرت به الأعمال الأدبية، سواء أكانوا يكتبونها بأنفسهم، أو ينقلونها ويكتبونها عنهم الغير.

٣) الحركة الاستعمارية:

تحركت العديد من الدول الأوروبية وتسابقت وتنافست فيما بينها، على استعمار باقي أرجاء المعمورة. بالفعل أحكمت الدول الأوروبية الاستعمارية قبضتها على سائر البقعة الجغرافية لأمريكا اللاتينية، والكاريبي، وأفريقيا، والكثير من يابسة آسيا أيضًا.

تلك الدول الأوروبية الاستعمارية وعلى رأسها بريطانيا، وفرنسا، وأسبانيا، وهولندا، والبرتغال أرادت أن تقوي من نفوذها السياسي والجيوسياسي، وأرادت أن تؤمن لنفسها خطوط الملاحة البحرية المناسبة والآمنة، وأرادت في أهم الاعتبارات على الإطلاق أن تنعش حالتها الاقتصادية وتقويها جيدًا، وذلك من خلال تصديرها لأزماتها الاقتصادية إلى الخارج، وفي المقابل استيراد الحلول من هناك.

ببساطة يمكننا القول أن هذه الدول الاستعمارية أرادت أن توجد لها مستعمرات في الخارج، كي تجلب من خلالها الموارد الطبيعية والمواد الخام وتنقلها إلى أوروبا، وفي المقابل تجعل

(1) التبادل التجاري يفضي إلى التبادل الثقافي، فتبادل التجارة يحقق تبادل الثقافة.

من تلك المستعمرات أسواقًا استهلاكية شرهة، تدفع فيها بمنتجاتها، وتحقق من خلالها أفضل العوائد الاقتصادية والأرباح.

بالإضافة إلى الكرازة بالإنجيل والتبشير بالدعوة المسيحية، واضطهاد الشعوب واستباحة مقدراتها وسلبها حقوقها، ارتكز الفكر الكولونيالي الامبريالي على تفتيت معالم الهوية الثقافية لكل المجتمعات التي جرى استعمارها. وذلك لإدراك المفكرين الكولونياليين والامبرياليين أن أفضل وسيلة لإرضاخ إرادة الشعوب والسيطرة عليها واستعبادها، تتمثل في محو هويتها الثقافية وتبديد وتشويه معالم تلك الهوية.

وهذا ما حدث بالضبط مع الهنود الحمر Native Americans في الأمريكيتين، والقبائل الزنجية في القارة الأفريقية، والأبوريجينAborigines في أستراليا، وغيرهم الكثيرين.

الحقبة الاستعمارية أو الكولونيالية كانت حاضنة للكثير من الإبداعات والكتابات الأدبية، والتي بالتأكيد ظهر فيها التركيز الكبير للمحتوى الجغرافي. تلك الحقبة الهامة من تاريخ البشرية كانت باعثًا ومحفزًا للكثيرين من الأدباء على الكتابة والإبداع.

مجمل الأعمال الأدبية التي كتبت في موضوع الاستعمار، وجاءت في الحقبة الاستعمارية أو الكولونيالية، يمكن تقسيمها إلى نوعين اثنين، هما: الأدب الاستعماري، والأدب المقاوم.

الأدب الاستعماري: هو الأدب الذي كتبه أدباء الدول الاستعمارية بشأن مستعمرات بلدانهم. وأحيانًا ما تحتوي القطعة الأدبية من ذلك النوع من الأدب، على استكشافات الكاتب و ملاحظاته لمستعمرة ما تتبع بلاده، من خلال وصفه لها، كحديثه عن مناخ تلك المستعمرة وجغرافيتها، وحديثه عن شعب تلك المستعمرة، وعادات ذلك الشعب، ومعتقداته، ومناسباته، وتراثه، وطريقته في الحياة، وأنواع طعامه ووجباته، وهكذا.

وفي أحيان أخرى يكون التطرق إلى المستعمرات أمرًا عامًا بدون تخصيص، أي بدون تناول مكان بعينه أو وصف مكان بعينه، كالتطرق لقضية الاستعمار أو الكولونيالية بشكل عام (من ناحية فكرية أكثر منها جغرافية أو اجتماعية تفصيلية).

الأدب المقاوم: هو الأدب الذي يكتبه أبناء الشعوب المستباحة والمستعمرة، أو من يتضامن معهم من أبناء الشعوب والأمم الأخرى. وفي الأعمال الأدبية الخاصة بذلك النوع من الأدب، يتعرض الكاتب لوحشية المستعمر وبطشه وظلمه، فبعمله الأدبي هذا يستثير الكاتب همم أبناء شعبه، ويحضهم على الكفاح والنضال من أجل دحر المستعمر ونيل الاستقلال وتقرير المصير. ويعد الأدب المقاوم بحد ذاته نوعًا من أنواع المقاومة السلمية أو الغير عنيفة، وهو بذلك لا يقل شأنًا عن أيًا من الأنواع الأخرى للمقاومة. وقد أثبت فعاليته الكبيرة في الكثير من تجارب التحرر، للعديد من الدول التي رزحت تحت نير الاستعمار.

كلا النوعين من الأدب عززا مبدأ التطرق إلى الجغرافيا في عملية صياغة وتكوين العمل الأدبي، فموضوع الكولونيالية أو الاستعمار هو موضوع جغرافي صرف. وذلك كونه يدور في المقام الأول حول المستعمرات، والتي بدورها هي عبارة عن وحدات سياسية أي (دول)، وفي كثير من الأعمال الأدبية الخاصة بهذين النوعين من الأدب، يجري الحديث عن المستعمرات بتفاصيلها الجغرافية، أي كونها حبيسة أم ساحلية، حدودها سواء طبيعية أم سياسية، تضاريسها، ديمغرافيتها، ثرواتها، مناخها، وهكذا.

٤) الحروب العالمية:

إذا ما أخذنا هذا المصطلح على عواهنه، فإنه سيكون قد جاء وصفًا شاملًا للكثير من الحروب التي عصفت وفتكت بالبشرية والعالم أجمع. ولكنني من وراء هذا المصطلح قصدت التحدث عن الحرب العالمية الأولى (١٩١٤- ١٩١٨)، والحرب العالمية الثانية (١٩٣٩- ١٩٤٥). لما كان لهذين الحربين من أثر كبير جدًا على مسيرة حياة البشر، وصناعة التاريخ.

هذين الحربين وقعا بين دول عظمى وقوية، بداية من دول أوروبا الاستعمارية وغير الاستعمارية وأمريكا، وانتهاء بإمبراطوريات الشرق، سواء العثمانية، أو السوفيتية، أو حتى اليابانية.

هذين الحربين فتكا بعشرات الملايين من البشر، وتسببا بدمار هائل للطبيعة لم يسبق له مثيل، منذ حادثة ذلك النيزك الضخم الذي ارتطم بالأرض قبل ملايين السنين، وبأثره انقرضت سائر الديناصورات.

مما لا شك فيه أن هذين الحربين مثلا امتهانًا فاضحًا لآدمية البشر، فقد جاءت وقائع هذين الحربين وتحديدًا كارثة هيروشيما وناجازاكي Hiroshima and Nagasaki، لتثبت أن الإنسان يتفوق على الشيطان في الكثير من المناسبات، وأن خطر الإنسان على أخيه الإنسان هو أشد وأكبر بكثير من خطر الشيطان على الإنسان، لأن ممارسات الشيطان مهما بلغت عتوًا وقوة لا تتجاوز كونها نزغات، فهي لا تصل بأي حال من الأحوال إلى حد إمطار المدن الآمنة بقاذفات القنابل، وإهلاك الحرث والنسل بسلاح الذرة، ونشر الذعر والإنفجارات!!.

ونتيجة لهذين الحربين الذين أبرقت وارتعدت لهما سماء البشرية والتاريخ. خرج الكثيرون من الأدباء ينقلون مشاعرهم المختلفة إلى الأوراق، فراحوا يكتبون أعمالًا أدبية بشأن الحربين وما تمخض عنهما من نتائج كارثية، قصمت ظهر البشرية بأسرها.

بالإضافة للأدباء الذين خصصوا أعمالًا أدبية كاملة للحديث عن الحربين، هناك عدد آخر من الأدباء تركوا في أعمالهم الأدبية إيحاءات بشأن الحربين ولم يتحدثوا عنهما بشكل رئيسي أو مباشر. لكننا في المحصلة النهائية، نجد ظاهرة الحربين العالميين قد ظهرت بقدر كبير في الأعمال الأدبية التي كتبت في حقبتي الحربين، وما بعد هاتين الحقبتين، أي إلى يومنا هذا.

وبفضل التنوع والتشابك الجغرافي المعقد، لجبهات التحارب والنزاع الممتدة على نطاق شاسع، وانتقالها باستمرار من مكان لآخر. وبفضل غنى يوميات الحرب بالمعلومات والأخبار

السياسية والعسكرية ذات المغزى المكاني والجغرافي. كان من الطبيعي آنذاك أن تكون الكتابات الأدبية التي تكتب في ذلك الوقت غنية بالمعلومات الجغرافية والحس الجغرافي. لأن واقع العالم بأسره آنذاك، كان مشغولًا بمصطلحات الجغرافيا والمساحات والمسافات والاتجاهات والأماكن.

٥) التشظي الجغرافي:

المقصود بالتشظي الجغرافي هو انشطار الوحدات السياسية الكبرى، وتفرقها إلى وحدات سياسية أصغر حجمًا. والمقصود بذلك هو تكاثر الدول والكيانات السياسية المستقلة، بشكل مضطرد ومستمر. هذه الظاهرة الجغرافية السياسية ظهرت بشكل رئيسي كأحد نتائج انتهاء الحقبة الكولونيالية، أي أنها أحد سمات حقبة ما بعد الكولونيالية.

ولا يخفى على أحد كذلك، أن الدول الاستعمارية كانت قد رسمت الحدود الخاصة بمستعمراتها وحددت الكيانات الجغرافية لتلك المستعمرات، وفقًا لاتفاقيات وتفاهمات دولية وقعتها الدول الاستعمارية مع بعضها البعض في كثير من المناسبات. وبعد جلاء الاستعمار بقيت ترسيمات الكيانات الجغرافية والحدود التي حددها الاستعمار كما هي، لتحكم واقع الدول المستقلة فيما بعد.

ولا يخفى على أحد كذلك، أن الدول الاستعمارية كانت قد اتبعت أسلوب التفتيت والتفكيك عند قيامها بترسيم حدود مستعمراتها، والتي استقلت فيما بعد. ففي مكان كالمنطقة الممتدة على طول الساحل الغربي لقارة أفريقيا، وتحديدًا الساحل المحصور بين موريتانيا شمالًا ونيجيريا جنوبًا، نجد كلًا من الاستعمار الفرنسي والبريطاني والبرتغالي قد خلفوا ورائهم أكثر من عشر دول مستقلة، في ذلك النطاق الساحلي المحدود (مقارنة بعدد الدول)[1].

(1) فضلاً عن الساحل الغربي لأفريقيا، هناك مناطق أخرى من العالم تمتاز بظاهرة التشظي الجغرافي، مثل منطقتي أمريكا الوسطى والكاريبي.

وفي المقابل اتبع الاستعمار أسلوب يختلف تمامًا عن الأسلوب السابق، ولا يقل عنه إسهامًا في خلق ظاهرة التشظي الجغرافي، ألا وهو خلق كيانات سياسية (دول) كبرى، تتكون من مساحات جغرافية شاسعة، ولكنها تنشأ وتقوم على مجموعة من التناقضات والتنافرات، كالتناقضات والتنافرات العرقية و المذهبية.

مثل هذه الكيانات تعبر فترة الاستقلال بسلام، لكنها تظل كالقنبلة الغير موقوتة، مهيأة للانفجار في أي وقت، وفي النهاية يكون مصيرها الحتمي هو التشظي الجغرافي والانقسام إلى كيانات سياسية أصغر حجمًا.

ولعل الناظر إلى حال جمهورية السودان بعد استقلالها عن الاستعمار البريطاني أو الحكم الثنائي[٢]، يلاحظ فيها النموذج الأمثل، لذلك النمط من الكيانات السياسية المنتفخة والغير متجانسة القوام. فدولة مثل السودان الحديث تم وضعها في ذلك الإطار الجغرافي من قبل الاستعمار، كي تضم تكوينات ديمغرافية متناقضة ومتنافرة، سواء عرقيًا، أو مذهبيًا، أو غير ذلك.

هذا البناء المتناقض والغير متوازن لجمهورية السودان الحديثة، جعلها تعيش طوال العقود الماضية حالة من النزاع والصراع الدموي والعنيف، بين الحكومة المركزية في الشمال والانفصاليون في الجنوب.

فكانت النتيجة المتوقعة لذلك النزاع والصراع هي انشطار جمهورية السودان في العام ٢٠١١ إلى (سودانين اثنين)، دولة السودان التقليدية (عاصمتها الخرطوم)، ودولة جنوب السودان (عاصمتها جوبا).

---

(2) الحكم الثنائي، هو حكم إنجليزي مصري مشترك، خضع له السودان قبل استقلاله.

لم تنته ظاهرة التشظي الجغرافي بانتهاء الاستعمار، كما لا يمكننا من حيث الأساس أن نعزو كل عمليات التشظي الجغرافي التي تحصل إلى أنها من نتائج الاستعمار. فهناك عمليات تشظي قد تحدث نتيجة انهيار وتفكك إمبراطوريات ودول كبرى، أيًا كان سبب هذا التفكك والانهيار.

ولعل خير مثال على ذلك، هو ما حصل مطلع تسعينيات القرن الماضي، عندما انفرط عقد الاتحاد السوفيتي وانشطر إلى نحو خمسة عشر جمهورية جديدة مستقلة. وكذلك انهيار يوغسلافيا وتشظيها إلى ما يزيد عن خمسة دول جديدة ومستقلة.

في نظرة إلى مستقبل العالم السياسي، سنجد أن ظاهرة التشظي الجغرافي لن يأفل نجمها ولن يخفت مستقبلًا، وذلك في ظل سماعنا يوميًا عبر نشرات الأخبار، عن نوايا انفصالية عند هذا الطرف أو ذاك، وعن تشكل كيان سياسي مستقل هنا أو هناك، وعن اختلاف الدول المركزية في العالم حول مسألة دعم استقلال هذا الإقليم أو ذاك. فكل فترة من الزمن تظهر على خارطة العالم، دولة مستقلة جديدة.

الدول المستقلة في العالم أصبحت في ازدياد مستمر منذ عقود. يبدو أن ظاهرة التشظي الجغرافي قد نجحت في تفكيك العالم وفي تفتيت خارطته الجغرافية السياسية إلى قطع صغيرة متناثرة. تعداد دول العالم المستقلة حاليًا والذي يقارب المائتين دولة، ساهم وبلا شك في تنمية أهمية وانتشار الجغرافيا كعلم أولًا، ثم انعكس ذلك على الأدب بالتأكيد، حيث ساهمت تلك الظاهرة (التشظي الجغرافي) والنتائج التي تمخضت عنها في زيادة المساهمة الجغرافية والنفوذ الجغرافي في الكتابات الأدبية، والمشهد الأدبي عمومًا.

٦) الانفتاح الثقافي:

لعل الظاهرة الأبرز التي تعبر عن هذا الانفتاح الثقافي هي ظاهرة العولمة Globalization. كيف لا والعولمة قد طالت شتى مناحي الحياة بما فيها الثقافة. إذا ما أردنا أن نقسم العولمة إلى

تقسيات وتصنيفات متخصصة، فبإمكاننا بكل تأكيد أن نتحدث عن وجود عولمة ثقافية. أما إن أردنا أن نناقش ظاهرة العولمة عمومًا وبدون خوض في التفاصيل، فإن لظاهرة العولمة الكثير من النتائج والآثار الثقافية التي تلقي بها على العالم أجمع، وهنا يأتي الانفتاح الثقافي على رأس هذه النتائج والآثار.

العولمة كظاهرة كونية وعالمية جاءت نتيجة التقدم العلمي والمعرفي الهائل في جميع المجالات. العولمة ليست مصطلحًا نظريًا معنويًا مجردًا كالبنيوية أو التفكيكية أو الشكلانية، بل هي مصطلح عملي تطبيقي آثاره ملموسة. فبإمكان جميع سكان كوكبنا أن يلمسوا وجود العولمة واقعًا حقيقيًا، من خلال تفاصيل ومجريات حياتهم اليومية.

العولمة أو الشوملة كما يسميها البعض، هي اختصار المسافات والفضاءات الجغرافية، وجعل العالم أشبه ما يكون بالقرية الصغيرة. التلفاز مثلًا هو أحد علامات وأدوات العولمة. المشاهد للتلفاز لا يبتعد عنه عادة سوى ثلاثة أو أربعة أمتار، في حين يقوم التلفاز بجلب البلدان والقارات النائية التي تبعد عن المشاهد آلاف الكيلومترات، ليقدمها له ويدنيها منه فتصير شاخصة أمامه، فقط على بعد ثلاثة أو أربعة أمتار، وهي كما ذكرنا، المسافة الفاصلة بين جهاز التلفاز والمشاهد.

لولا التقدم العلمي الرهيب في شتى المجالات والميادين، ولولا نضوج الفكر الإنساني، وترسخ معالم ومظاهر الحداثة، لما ظهرت العولمة. العولمة بحد ذاتها هي ثورة بشرية معجزة، جاءت بفعل الثورات الأخرى المختلفة، كثورة الكشوف الجغرافية، والثورة العلمية، والثورة الصناعية، وثورة الاختراعات والابتكارات، والثورة ضد العنصرية، وثورة التجارة والنقل، والثورة الرقمية، وثورة التكنولوجيا والمعلومات، و..الخ من ثورات.

كما تحدثنا عن مثال التلفاز، العولمة جعلت المستخدم User يملك الكوكب بأكمله، وبين يديه. فمستخدم الهاتف النقال الجالس في بيته في فرنسا، يستطيع بسهولة وبشكل فوري أن

يستمع إلى صوت العطس وهو يخرج من فم شخص آخر يتحدث إليه من اليابان!!.

وكذلك مستخدم الانترنت الجالس في بيته في منهاتن، يستطيع محادثة صديقه ما وراء البحار بالصوت والكتابة، بل ويستطيع بشكل فوري ومباشر أن يراه عبر الكاميرا وهو يحتسي القهوة في بيته في بانكوك!!.

بفعل العولمة انتهى الانغلاق أو الانطواء الثقافي عند جماعة أو مجتمع ما. فبفعل العولمة اختلطت الثقافات وامتزجت ببعضها البعض، ففقدت نقاوتها الأولى. فصارت الثقافة الأصلية لشعب ما تنحسر وتتراجع، في ظل سيادة ثقافات أخرى دخيلة.

الثقافات الدخيلة قد تأتي أحيانًا على شعب أو مجتمع ما بدون قصد وبحسن نية، وأحيانًا أخرى قد تأتي وفقًا لنية مبيتة وتوجيه وتخطيط مسبق، وهذا ما يسميه البعض (الغزو الثقافي)، ولعل أبرز الأمثلة على ذلك النوع من الغزو المستتر، هو ما تمارسه الثقافة الأمريكية الحديثة، وتحديدًا ما تبثه للعالم من خلال هوليوود Hollywood.

الانفتاح الثقافي والعولمة جعلا من كل شأن داخلي وخاص، شأنًا عالميًا وكونيًا. فعلًا في عهد الانفتاح الثقافي والعولمة انقرض مفهوم (الخصوصية) بكل أشكاله وتجلياته، وصار كل شيء مفضوحًا ومعلومًا لدى العالم أجمع، وفي غضون لحظات.

كنتيجة للانفتاح الثقافي والعولمة، ازداد الوعي الجغرافي عند سكان العالم أجمع، وصارت المعرفة الجغرافية عند شخص ما أوسع بكثير عما قبل. فصار الإنسان عبر الشبكة العنكبوتية (الانترنت) يقرأ أعمالًا أدبية تنتمي لآداب دول وحضارات شتى. وكذلك صار الكاتب للعمل الأدبي يتطرق في نصه إلى أماكن ومعلومات جغرافية تنتمي إلى دول وقارات شتى. فعلى ما يبدو أن العولمة الثقافية فتحت شهية الكتاب على التطرق في كتاباتهم إلى فضاءات وأماكن دولية وخارجية وبعيدة، وأخرجتهم عن نطاق التقوقع داخل صوامع الجغرافيا المحدودة والأماكن المحلية

العوامل الستة السابقة ساعدت كما ذكرنا على تطور علم الجغرافيا وعلى التعريف به عالميًا كعلم حيوي وضروري للبشرية والحياة. والعوامل الستة أيضًا ساعدت على زيادة حضور الجغرافيا في الثقافة العامة للمجتمع، وبالتالي ازداد ظهورها في المشهد الأدبي ونصوص الأدب المختلفة. ولعل ظهور (الرواية) كجنس أدبي هام وأساسي، تزامنًا مع عصر الثورة أو النهضة الجغرافية العالمية، أدى إلى تطبع ذلك الجنس الأدبي الوليد في مهده كثيرا، بالنفوذ الجغرافي الطاغي آنذاك. فنتيجة لذلك كانت الكثير من الكتابات الأولى في مجال الرواية، ذات نزعة جغرافية واضحة، ولعل المثال الأبرز على ذلك هو رواية روبنسون كروزو **Robinson Crusoe**، التي كانت جغرافية بامتياز، وكانت بحسب ترجيحات الكثيرين من النقاد ومؤرخي الأدب (أحد أوائل الروايات ظهورًا في تاريخ الأدب الإنجليزي).

هذه العوامل الستة زادت مقدار التركيز الجغرافي في محتوى الأدب، وزادت من مقدار المشاركات المتقدمة للجغرافيا في عملية بناء وتكوين النص الأدبي. ورسخت في النصوص الأدبية وأساليب كتابتها مفاهيم ثقافية جغرافية عديدة، ففضلًا عن العولمة الثقافية أو الانفتاح الثقافي هناك التعددية المكانية أو الإقليمية **Multiregionalism**، والتعدد العرقي **Multi-ethnicism** وتعدد الجنسيات **Multinationalism** ، والتعددية الثقافية **Multiculturalism** .

هذه المفاهيم وغيرها جعلت من العمل الأدبي، إطارًا شاملًا للعديد من الأماكن والمناطق الجغرافية، والعديد من الشخصيات المتعددة الأعراق والجنسيات، والعديد من الثقافات التي تعكس الانتماءات الحضارية والانثروبولوجية المختلفة. بالفعل هذا هو الخليط الذي من شأنه أن يكسب أي عمل أدبي، تلك النكهة الجغرافية الرائعة.

الجغرافيا والنقد الأدبي

كما ذكرنا آنفًا أن العلاقة بين الجغرافيا والأدب هي علاقة قوية ووثيقة جدًا. نقول أن العلاقة بين الجغرافيا والنقد الأدبي هي على العكس من ذلك تمامًا، أي أنها علاقة هزيلة وضعيفة جدًا. وبالحديث هنا عن النقد الأدبي فإننا بالتأكيد نقصد كلًا من النقد الأدبي والنظرية الأدبية معًا. لأنه كما ذكرنا سابقًا، أن النظرية الأدبية ما هي إلا جزء من النقد الأدبي.

إنه لمن المؤسف حقًا، أن نقول بأن الجغرافيا كعلم أساسي وريادي، ومشارك رئيسي في صناعة وتكوين الأدب، لا يلقى الاهتمام الكافي من النقد الأدبي عمومًا، ومن النظرية الأدبية خصوصًا وعلى وجه التحديد.

أتعجب وبشدة من أن التطور الرهيب الذي طرأ على النظرية الأدبية في العقود القليلة الماضية، لم يلق بالًا للجغرافيا، ولم يهتم بها بالقدر الكافي. فلا أجد سبب أو عذر مقنع، يبرر تجاهل منظري النظريات الأدبية الحديثة، للدور الحيوي الذي تمارسه الجغرافيا في بناء وتكوين الأدب. والذي يفترض ألا تمارس الجغرافيا دورًا يقل عنه أهمية، سواء في النقد الأدبي أو النظرية الأدبية.

إنه لمن السهل واليسير جدًا على المرء أن يبحث عن مساهمات ومشاركات الجغرافيا في نصوص الأدب، لكنه من الصعب جدًا البحث في مناهج النقد الأدبي وفرضيات النظريات الأدبية عن مجرد وجود للجغرافيا. فالباحث عن وجود الجغرافيا ومساهماتها في النقد الأدبي والنظرية الأدبية، يبدو من وجهة نظري تمامًا كالباحث عن مخرز في كومة كبيرة من القش.

إذا ما تتبعنا مشاركات الجغرافيا ومساهماتها في النقد الأدبي والنظرية الأدبية، فإننا سنجدها سطحية وضحلة، إذ يمكن لنا الإشارة إليها رغم قلتها، على النحو التالي:

١) عنصر المكان Setting:

يعتبر عنصر المكان، أحد العناصر الرئيسية التي يتكون من خلالها النص الأدبي. وكما ذكرنا في مواضع سابقة، فإن عنصر المكان هو العنصر الذي تنفذ من خلاله مساهمات الجغرافيا إلى النص الأدبي. إذ يمكننا القول أن عنصر المكان هو بمثابة الحبل السري الذي يغذي جنين النص الأدبي بالمعلومات والمساهمات الجغرافية.

كما قلنا أن عنصر المكان هو أحد عناصر بناء وتكوين الأدب، نقول أيضًا أنه أحد عناصر نقد وتحليل وتقييم الأدب والأعمال الأدبية. لذلك اعتاد كثيرون من النقاد الأدبيين على استخدام عنصر المكان كأداة للنقد، في معرض قراءتهم وتحليلهم وتفسيرهم للنصوص الأدبية، وخصوصًا النثرية منها كالقصة والرواية.

٢) نظرية السفر أو الترحال Travel theory:

تعد أحد النظريات الأدبية الحديثة، لم تحقق شهرة وانتشار واسع بقدر ما حققت العديد من النظريات الأدبية الحديثة الأخرى. تقوم هذه النظرية بدراسة الأعمال والنصوص الأدبية التي تنتمي إلى أدب السفر أو أدب الرحلات. وتهتم هذه النظرية تحديدًا بدراسة وتحليل أحداث ونتائج عملية السفر أو الارتحال التي تقوم بها شخصيات العمل الأدبي، ومن كل النواحي، سواء من الناحية الثقافية، أو الجغرافية، أو الاجتماعية، أو الأنثروبولوجية، أو حتى الإيكولوجية، وغيرها.

لذلك يمكننا القول بأن نظرية السفر أو الترحال تهتم بالجغرافيا، لكنها لا تقدم رؤية شاملة متكاملة، تليق بالدور الريادي والأساسي الذي تمارسه الجغرافيا في بناء وتكوين الأدب.

٣) نظرية ما بعد الكولونيالية Postcolonial Theory:

نظرية ما بعد الكولونيالية أو ما بعد الاستعمار، هي أحد النظريات الأدبية الحديثة. ظهرت مع انتهاء الحقبة الكولونيالية، أي مع نيل دول العالم الثالث استقلالها وجلاء الاستعمار الأوروبي عنها، لكنها أول ما حققت شهرتها في ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي. ولعل أبرز من نظر لهذه النظرية، هو المفكر والناقد الفلسطيني إدوارد سعيد Edward Said، وتحديدًا من خلال كتابه ذائع الصيت الاستشراق Orientalism.

نظرية ما بعد الكولونيالية تناقش حال دول العالم الثالث بعد جلاء الاستعمار الأوروبي عنها، وتهتم بدراسة مفاهيم وظواهر الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي لتلك الدول الحديثة الأسنان والمستقلة حديثًا. نظرية ما بعد الكولونيالية تثير النقاش حول مواضيع متعددة، مثل العلاقة بين الشرق والغرب، والتغريب، والاستشراق، والتبعية، والاستقلالية، والهوية، والامبريالية، والتعددية الثقافية، وغيرها.

الأدب ليس ببعيد عن الحال السياسي والاجتماعي والثقافي لتلك الدول، فالأدب كما تعلمون هو مرآة المجتمعات، لذلك سلطت نظرية ما بعد الكولونيالية جهودها على دراسة الأدب وظواهره في تلك الحقبة الهامة من تاريخ دول العالم الثالث. وفي ظل حديثنا عن دول، وكيانات سياسية، وثقافات مختلفة، فنحن نتحدث هنا عن غنى جغرافي، اتسم به الأدب ما بعد الكولونيالي، وبالتالي اتسمت به نظرية ما بعد الكولونيالية، التي بدورها تدرس الأدب ما بعد الكولونيالي، أو تدرس الأدب عمومًا وفقًا لمعايير ما بعد الكولونيالية.

٤) نظرية سوسيولوجيا الأدب Sociology of Literature:

نظرية سوسيولوجيا الأدب، هي نظرية تقوم على تحليل النص الأدبي من الناحية السوسيولوجية أو الاجتماعية. وفي حقيقة الأمر إن الجغرافيا تشارك وبشكل واضح، في عملية التحليل السوسيولوجي للنص الأدبي.

فبحسب الكثيرين من مؤرخي ونقاد الأدب، يعد الناقد والمؤرخ الفرنسي هيبوليت تين Hippolyte Taine هو أول منظر سوسيولوجي أدبي، يقحم الجغرافيا بشكل أساسي وواضح في عملية التحليل السوسيولوجي للنص الأدبي. وكان ذلك من خلال كتابه تاريخ الأدب الإنجليزي History of English Literature ، حيث ذكر فيه أن التحليل السوسيولوجي للنص الأدبي، يجب أن يتم بالرجوع إلى ثلاثة عوامل هامة، وهي: عرق الكاتب أو المؤلف، والوسط الجغرافي والاجتماعي الذي كتب فيه النص، والحقبة التاريخية التي كتب فيها[1].

(1) Abrams M. H : A Glossary of Literary Terms - Fourth Edition - Holt، Rinehart، and Winston - Texas 1993 - P 196.

الباب الثاني: فرضيات النظرية.

* الفصل الأول: وصف النظرية.

* الفصل الثاني: وصف فرضيات النظرية.

* الفصل الثالث: الفرق بين النظرية وعنصر المكان.

الفصل الأول: وصف النظرية.

- لماذا الجغرافيا بحاجة إلى نظرية أدبية ؟.
- التعريف بالنظرية.
- النظرية وغيرها من النظريات.

لماذا الجغرافيا في حاجة إلى نظرية أدبية؟

قوانين الطبيعة تقول أن الشمس تشرق من الشرق، وأنها تغرب عند الغرب. وتقول قوانين الطبيعة أيضًا أن الماء يتجمد عند درجة صفر مئوية، وأنه يتبخر عند درجة ١٠٠ مئوية. أما في مجال وميدان النقد الأدبي والنظرية الأدبية فتقول قوانين الطبيعة أن أفضل من ينقدون الأدب هم بناة ومشيدو ذلك الأدب. أي أن العلوم والمعارف التي تشارك في عملية بناء وتكوين الأدب هي الأولى والأحق، وهي الأقدر على نقد وتفسير وتحليل وتقييم ذلك الأدب.

في نظرة دقيقة إلى مناهج النقد الأدبي وفرضيات النظريات الأدبية، نجد أن الكثير من العلوم والمعارف قد شاركت بقوة وفعالية في نقد الأدب وفي صياغة نظرياته. وإذا ما نظرنا بشيء من التركيز إلى النظريات الأدبية على وجه التحديد، فإننا نجد غالبية العلوم والمعارف التي ساهمت في ذلك المجال، قد كان لكل واحدة منها على الأقل نظرية واحدة خاصة بها، تعبر من خلالها عن فكرها النقدي، وعن رؤيتها لتحليل وقراءة الأدب، فعلم النفس مثلًا يشارك بعدة نظريات في مجال نقد وتحليل الأدب، وعلم الاجتماع له نظريته الخاصة، وكذلك علم التاريخ، وعلم الاقتصاد، والسياسة، والأخلاق، وغيرهم.

ما لا شك فيه أن الجغرافيا قد شاركت وساهمت في بناء وتكوين الأدب، وربما بقدر أكبر بكثير من الكثير من العلوم والمعارف الأخرى. لكن للأسف الشديد، فبالرغم من المشاركات والمساهمات الواسعة للجغرافيا في بناء الأدب وتكوينه، إلا أنها لم تمارس دورها الطبيعي في نقد وتحليل الأدب من خلال نظرية أدبية خاصة بها. أي أنها ولغاية قبل صدور هذا الكتاب بلحظات، لم تكن تمتلك نظرية أدبية خاصة بها وحدها، دون غيرها من العلوم والمعارف. بحيث تحمل فكرها النقدي، وتعبر عن مذهبها الخاص بتفسير وتحليل وقراءة الأدب.

مشاركات ومساهمات الجغرافيا في مجال النظرية الأدبية والتي تعرضنا لها سابقًا بالذكر. سواء في نظرية الترحال، أو نظرية ما بعد الكولونيالية، أو حتى سوسيولوجيا الأدب، جميعها

كانت مشاركات ومساهمات غير كافية لتحقيق طموح الجغرافيا وحقها الأصيل، المتمثل في المشاركة بنظرية خاصة بها في ميدان النقد الأدبي والنظرية الأدبية.

أستغرب كيف أن النصوص الأدبية عالية التركيز الجغرافي، كنصوص أدب الرحلات والروبنسونات، والتي تكتظ أحداثها بالتفاصيل الجغرافية، لم تُثِر اهتمام النقاد والمنظرين الأدبيين، ولم تفتح شهيتهم على الجغرافيا كونها علم وثيق الصلة بالأدب، بحيث يقبلوا عليها، ويفردوا لها شيئًا من جهودهم وابتكاراتهم!!.

التعريف بالنظرية

النقد الأدبي والنظرية الأدبية شأنهما شأن كل شيء في هذه الحياة، بحيث لا يمكن فصلهما بأي حال من الأحوال عن الجغرافيا، كما أنه ليس بإمكان أي منهما الاستغناء عن الجغرافيا. لأن الجغرافيا متداخلة في كل شيء في حياتنا تقريبًا، فهي متداخلة في كل شبر من الأرض التي نمشي عليها، وفي كل ذرة من الهواء الذي نتنفسه، وفي كل قطرة ماء انتهى بها المطاف إلى باطن الأرض أو إلى أحد البحار أو الأنهر أو المحيطات. فلو لم يعرف الإنسان الجغرافيا يومًا كعلم، للمس وجودها غصبًا عنه، واقعًا في حياته وسلوكه، ومن حوله في البيئة الواسعة الممتدة على مد البصر.

باعتقادي لا يستطيع أحد أن يتخيل شيء في هذه الحياة، أو في هذا الكون بلا جغرافيا. لأن الجغرافيا ليست مجرد علم فحسب، لا بل هي من مكونات الكون والحياة، تتجسد معالم نفوذها في كل شيء تقريبًا في هذا الوجود، سواء كبر ذلك الشيء أم صغر، وسواء خطر على بال إنسان أم لم يخطر.

لا غنى عن الجغرافيا ولا مفر منها، لأنها هي تلك الجهة المسئولة عن إعطاء الهوية لكل شيء في هذا الكون الواسع، وما الأدب إلا شيء من تلك الأشياء. لو لم توجد الجغرافيا في هذا الكون، لكان العالم كله دولة واحدة، وبالتالي لكانت له هوية واحدة. وفي هكذا حالة كنا سنجد أن جائزة نوبل للآداب سوف تعطى لأدباء وشعراء وروائيين من دولة واحدة، وبالتالي لن يفوز بتلك الجائزة أديب انجليزي، أو كولومبي، أو برتغالي، أو حتى نيجيري. فالعالم في ظل عدم وجود الجغرافيا، هو عبارة عن دولة واحدة، وبالتالي لا وجود لهكذا هويات وجنسيات!!.

الجغرافيا هي التي تحدد هويات وجنسيات البشر، وهي التي تحدد الاتجاهات والمسافات للمسافرين، وهي التي تحدد الأملاك والأطيان للمالكين. الجغرافيا متداخلة في حياتنا إلى أبعد الحدود، والحديث يطول عن مدى نفوذها، وعن المبالغ التي يبلغها ذلك النفوذ.

جاءت نظرية التحليل الجغرافي للأدب، كي تردم هوة عميقة في حقل النقد الأدبي والنظرية الأدبية. تمثلت تلك الهوة في الغياب الواضح للجغرافيا عن المشاركة الفاعلة في كل من النقد الأدبي والنظرية الأدبية. وكما ذكرنا من قبل، وصل الحال بذلك الغياب الواضح للجغرافيا، إلى حد أنها لا تمتلك نظرية أدبية خاصة بها، أسوة بباقي أنواع العلوم والمعارف.

رواد النظريات الأدبية وواضعوها، تناولوا النصوص الأدبية بالنقد والتحليل والتفسير من شتى الجوانب، فهناك من نقد النص وحلله من الناحية النفسية، وهناك من نقده وحلله من الناحية الاجتماعية، وهناك من نقد وحلل من الناحية الأخلاقية، وهناك من نقد وحلل سواء بالبناء أو التفكيك، وهناك أيضًا من ترك النقد والتحليل كليًا للقارئ، فيما يعرف بنظرية التلقي Reception Theory. لكن أحدًا لم يتحدث قبل صدور هذا الكتاب، عن نقد وتحليل نصوص الأدب من الناحية الجغرافية البحتة.

نظرية التحليل الجغرافي للأدب، هي نظرية أدبية تختص بنقد وتحليل وتفسير الأدب من منظور ومنطلق جغرافي بحت. وهي تستهدف في دراستها تلك النصوص

الأدبية، التي تحتوي أحداثها على مبالغة واضحة في السرد الجغرافي، والأماكن، ووفرة في البيانات الجغرافية.

من هذا التعريف نفهم أن نظرية التحليل الجغرافي، تستهدف النصوص الأدبية التي تشارك فيها الجغرافيا مشاركات متقدمة، وليست مشاركات عادية أو بسيطة فحسب. وكما ذكرنا من قبل في مواضع عديدة، إن المشاركات الجغرافية المتقدمة في الأعمال الأدبية، تظهر في نصوص تنتمي لأجناس أدبية محددة، كأدب الرحلات والروبنسونات وغيرهما.

لذلك يمكننا القول أن هذه النظرية، لا تهتم إلا بالنصوص التي تحتوي أحداثها على مبالغة جغرافية، وتلك المبالغة لا تظهر في النص، إلا عندما تتخطى مشاركات الجغرافيا في بناء وتكوين ذلك النص، كونها مشاركات بسيطة وعادية، لتصل إلى الحد الذي يجعلها توصف عنده على أنها مشاركات متقدمة.

كما هو واضح من اسم النظرية، النصوص الأدبية ذات التركيز الجغرافي العالي، هي فقط التي يسيل لها لعاب النظرية، كيف لا وهي ميدان بحثها ومجال دراستها. لذلك أعتقد بأن النظرية لا تصلح للتطبيق على كافة نصوص الأدب، وإنما كما ذكرنا آنفًا تصلح للتطبيق فقط على النصوص التي تحتوي أحداثها، على مبالغة جغرافية واضحة المعالم. فليس من العدل ولا من الصواب أن نطبق النظرية على النصوص التي تشارك فيها الجغرافيا مشاركات بسيطة ومتواضعة. لأن النظرية في النهاية تنشد البحث عن مواطن الغنى والثراء الجغرافي داخل نصوص الأدب المختلفة، وبالتالي فإن النظرية لا تختار سوى نصوص الأدب التي تستحق عناء البحث بداخلها عن مواطن ذلك الغنى أو الثراء الجغرافي.

القيمة الجمالية للنظرية، تكمن في كونها تبحث عن الأماكن العديدة التي تتنقل فيما بينها أحداث النص الأدبي، وفي كونها تبحث عن التفاصيل الجغرافية التي تتوزع ما بين وصف الكاتب وسلوك الشخصيات. بحث النظرية عن الأماكن المتعددة والتفاصيل الجغرافية، يضفي

قيمة جمالية رائعة على عملية نقد وتحليل النص الأدبي. لذلك فالمراقب لنتائج النقد والتحليل التي تعطيها النظرية عند تطبيقها على أي نص، يدرك تمامًا أن تعدد الأماكن ووفرة التفاصيل الجغرافية، هما من أبدع وأروع الجماليات التي تحوتيها نصوص الأدب.

الجمال يكمن في النصوص متعددة الأماكن ووافرة التفاصيل الجغرافية، لأن مسرح الأحداث في هكذا نصوص أدبية يتنقل من مكان لآخر، ففي كل مرة يتنقل فيها مسرح الأحداث من مكان إلى آخر، يأتي الكاتب بتفاصيل وأحداث مثيرة وجديدة، تبدد الملل عن نفسية القارئ وتجلب له التسلية والتشويق والإثارة. أما القارئ لهكذا نصوص فيحس كأنه مسافر فضائي، يركب بساط الريح ويرافق أحداث النص في سفرها وترحالها بين الأماكن المتعددة، فيتعرف من خلال سفره هذا على حضارات وثقافات جديدة، ويتعرف على تفاصيل جغرافية ومعرفية، ووقائع وحقائق مثيرة.

الجمال في هذه النصوص الأدبية يكمن في كون أحداثها لا تتقوقع في مكان واحد، بل تتوزع أحداثها وتتنقل بين الأماكن العديدة. والجمال في نظرية التحليل الجغرافي يكمن في كونها تدرس هكذا نصوص.

ذكرنا فيا قبل أن الجغرافيا تتواجد في شتى أشكال نصوص الأدب، أي أنها تتواجد في الأدب الحقيقي وتتواجد في الأدب الخيالي على حد سواء. وبكل تأكيد فإن النظرية تدرس تواجد الجغرافيا في كلا النوعين من الأدب.

تواجد الجغرافيا في نصوص الأدب الحقيقي يزيد من حقيقية وواقعية تلك النصوص، لأن الجغرافيا الموجودة في تلك النصوص هي الجغرافيا الحقيقية التي نعرفها جميعًا. أما الجغرافيا الموجودة في نصوص الأدب الخيالي فإنها تزيد تلك النصوص بعدًا جماليًا ورمزيًا فقط، ولا تزيدها حقيقية وواقعية، لأن تلك الجغرافيا في كثير من الأحيان تكون تصورية وغير حقيقية، ولعل أبرز مثال على ذلك، هو الجغرافيا الموجودة في رواية جوناثان سويفت Jonathan Swift

الشهيرة رحلات غلفر Gulliver's Travels، وفي رواية تولكين J. R. R. Tolkien الشهيرة سيد الخواتم The Lord of the Rings[1].

نظرية التحليل الجغرافي للأدب تدرس جميع أنواع النصوص الأدبية بلا استثناء، شريطة أن يصل مدى مشاركة الجغرافيا في بناء وتكوين تلك النصوص إلى درجة المبالغة الجغرافية. وهذا يعني أن النظرية تدرس نصوص الأدب الحقيقي والأدب الخيالي على حد سواء، ولكن دور النظرية بكل تأكيد هو أن تشير إلى الجغرافيا التصورية أو التخيلية عند وجودها، مع ضرورة التفريق بينها وبين الجغرافيا الحقيقية التي نعرفها جميعًا من خلال كتب الجغرافيا وصفحات الأطلس.

نظرية التحليل الجغرافي تدرس الأعمال النثرية والأعمال الشعرية على حد سواء، لكن التركيز الجغرافي والمشاركات الجغرافية المتقدمة يظهران في أغلب الأحيان في الأعمال النثرية كالقصة والرواية دون الأعمال الشعرية، وهذا ما يجعل الأعمال النثرية كالقصة والرواية أكثر عرضة لتطبيق النظرية من الأعمال الشعرية.

تعتمد نظرية التحليل الجغرافي للأدب على الأطلس (كتاب الخرائط) كمرجع أساسي، في عملية نقد وتحليل النصوص الأدبية التي تستهدفها النظرية بالدراسة. كما يتوجب على الناقد الذي يستخدم نظرية التحليل الجغرافي في نقده وتحليله للنصوص الأدبية، أن يكون مطلعًا وعارفًا بالجغرافيا كعلم وملمًا بالكثير من تفاصيلها ومعلوماتها. ولا بأس في أن يستزيد ذلك الناقد من العلم الجغرافي النافع الموجود في الكتب والمراجع الجغرافية، حول المعلومات والبيانات ذات العلاقة بجغرافية النص الذي يقوم على نقده وتحليله ودراسته. الأطلس وكتب الجغرافيا المتنوعة، هي من أهم أدوات الناقد المطبق لنظرية التحليل الجغرافي في نقده ودراساته.

---

(1) بإمكاننا العثور على أمثلة مشابهة كثيرة، وتحديدًا في نصوص الفنتازيا والخيال العلمي.

النظرية وغيرها من النظريات

لنتعرف أكثر على ماهية نظريتي، نظرية التحليل الجغرافي للأدب، علينا أن نبحث وأن نتأمل في غيرها من النظريات الأدبية. ولقول أكثر صراحة ووضوح دعونا نقول، أنه لا مناص من عمل مقارنة بين نظرية التحليل الجغرافي للأدب وباقي النظريات الأدبية. فمن شأن هكذا مقارنة أن تبرز وتبين لنا، بعض أهم خصائص وخصال النظرية، وكذلك بعض النقاط التي تلتقي أو تختلف فيها النظرية مع غيرها من النظريات الأخرى.

والمطلوب ها هنا هو ليس إنشاء مقارنة بين نظرية التحليل الجغرافي للأدب وسائر النظريات الأدبية الأخرى، بل المطلوب هو عقد المقارنة مع بعض أبرز وأهم النظريات وليس جميعها. فليس من الحكمة، وتحديدًا في هذا الكتاب، مقارنة نظرية التحليل الجغرافي مع عشرات النظريات الأدبية الأخرى، التي جاءت نتاجًا وحصيلة لإبداعات واجتهادات الآخرين!!.

عقد مقارنة بين نظرية التحليل الجغرافي للأدب، وغيرها من النظريات الأدبية الهامة والبارزة، سيوضح برأيي مدى الجودة الفائقة للنظرية، وسيكشف مواطن كثيرة تتفوق فيها النظرية على نظيراتها. فعند وضعي لمنهاج النظرية راعيت كثيرًا بعض الانتقادات التي وجهت إلى النظريات السابقة. وتجنبت قدر الإمكان الوقوع في نفس المآخذ والمثالب والمبالغات، التي وقع فيها البعض من أسلافي المنظرين الأدبيين السابقين.

أعتقد بأن نظريتي هي واحدة من أفضل نظريات الأدب، وإن شئتم قولًا أكثر صراحة، فإنني أعتبرها النظرية الأفضل.

أنا لا أؤمن بوجود الكمال، سوى ذلك الكمال الخاص برب العالمين تبارك وتعالى. لذلك لا أؤمن بكمال نظريتي أو أي من النظريات الأدبية الأخرى، فلكل نظرية ما يميزها من مزايا وما يعيبها من عيوب. لكن تظل هناك إمكانية للتفريق بين ما هو غث وما هو سمين، ما هو ساطع وما هو باهت، ما هو مقنع وما هو غير مقنع.

النظريات الأدبية هي ليست آيات أو قطع من كتب مقدسة أو صحائف سماوية، بل هي وجهات نظر فلسفية تحتمل كلًا من التشكيك والتأييد. وبما أن تلك النظريات هي في المحصلة النهائية وجهات نظر لا أكثر، إذًا فإن نقد أو تقييم أو ذم أو مديح تلك النظريات لن يعدو كونه وجهات نظر أيضًا. ولذلك فإن النظريات الأدبية تثير دومًا جدلًا واسعًا من الآراء عند النقاش حول ماهياتها ومنهجياتها. فمثلًا النظرية التي تعجب شخص معين قد لا تعجب شخصًا آخرًا غيره، والنظرية التي يهجوها فلان وفلان قد تلقى استحسان غيرهما، وهكذا دواليك.

عندما أفضل نظريتي على غيرها من النظريات، فأنا بالتأكيد لا أنتقص من قدر النظريات الأخرى، وإنما أعبر عن رأيي الشخصي بكل جرأة وصراحة. قد أبالغ إذا ما قلت أن نظريتي هي أفضل نظرية على الإطلاق في عالم النظريات الأدبية، إذ أنني أعتقد أنها لا تتفرد وحدها في صفة الأفضلية على البقية، وإنما تشاركها غيرها من النظريات الرائدة والهامة في تلك الصفة. أي إذا ما حدث شيئًا كإجماع أو شبه إجماع عند النقاد ومنظري الأدب، على أن مجموعة نظريات كالتحليل النفسي، والبنيوية، والتفكيكية، والتاريخية مثلًا هي الأفضل، على مستوى ميدان النظرية الأدبية ككل، فإنني هنا وبلا تردد أضيف نظريتي إلى هذه الباقة المميزة من النظريات الرائدة والطليعية.

بعد دراستي للعديد من النظريات الأدبية وتأملي جيدًا فيها، قررت أن أعقد مقارنة بسيطة بين نظريتي وبعض أهم هذه النظريات. ومن وراء هذه المقارنة أردت أن أبرز بعض المعالم التي قد تتفوق فيها نظريتي على غيرها من النظريات، وأردت كذلك أن أوضح كيف تجنبت نظريتي السقوط في بعض المآخذ التي أخذت على النظريات السابقة.

إذ تبدو المقارنة على النحو التالي:

بالرغم من الأسباب العادلة التي نشأت من أجلها العديد من الحركات الأدبية النسوية في العالم، إلا أن نظرية النسوية **Feminist Theory**، كنظرية أدبية، تظل عنصرية وقائمة على

التفرقة الجنوسية Gender Inequality. الناقد المطبق لنظرية النسوية في نقده وتحليله لنصوص الأدب، لا يرى النصوص ولا يقرأها إلا من وجهة النظر النسوية والأنثوية البحتة. إذًا منهجية النظرية النسوية ترضي وتسر جنسًا بعينه، بينما تزعج وتضايق الجنس الآخر. أما نظرية التحليل الجغرافي للأدب فلم تخوض في قضايا الجنوسة Gender وإشكالياتها وحساسياتها، وإنما جاءت لترضي كلا الجنسين على حد سواء.

الحركات النسوية عمومًا وليست الأدبية منها فحسب، جاءت لتنصف المرأة وتنادي بحقوقها، في عصور مظلمة، امتهنت فيها كرامة المرأة، وانتقص من حقوقها الاجتماعية والسياسية والثقافية والفكرية الشيء الكثير (بحسب الرأي النسوي). فقد كانت مجرد مشاركة المرأة في كتابة الأدب ونقده آنذاك، أمرًا مستهجنًا ومثيرًا للسخرية والاستخفاف من قبل الكثيرين في المجتمعات الذكورية الأبوية المتسلطة (بحسب الرأي النسوي أيضًا)!!.

الكاتبات والمثقفات النسويات رفضن الخضوع لقهر المجتمعات الذكورية، فمارسن النضال الفكري والأدبي في وجه تلك المجتمعات، ولعل أبرز نماذج ذلك النضال الفكري النسوي تجسدت في كتابات العديد من الأديبات النسويات، بداية من الإنجليزية أفرا بيهن Afra Behn، وصولًا إلى الإنجليزية الأخرى فرجينيا وولف Virginia Woolf، والفيلسوفة الفرنسية سيمون دي بوفوار Simone de Beauvoir.

الآن وفي ظل حصول المرأة تقريبًا على كافة حقوقها، التي كانت محرومة منها وتنادي بها من قبل، أعتقد أن النظرية النسوية قد خفتت فعاليتها، وذلك بسبب زوال العديد من المسببات التي وجدت من أجلها النظرية.

إذا كانت الأسباب الكامنة وراء ظهور النظرية النسوية هي بالفعل المناداة بحقوق المرأة المغيبة اجتماعيًا وفكريًا وثقافيًا، فإن تلك النظرية واقعيًا قد انتهت، لأن النساء في الكثير من المجتمعات صرن يتمتعن بحقوق أكثر من الرجال. أما إن كانت الدوافع وراء ظهور النظرية

النسوية هي دراسة الكتابات الأدبية التي تنتجها المرأة، أو دراسة ما يكتبه الرجال عن المرأة في الأدب، فإن من شأن هذا وبلا شك أن يثير التفرقة الجنوسية التي تعرضنا لها آنفًا بالذكر.

النقد الأخلاقي للأدب يقوم على نقد وتحليل النصوص الأدبية، من الناحية الأخلاقية والقيمية البحتة. لذلك فالناقد المطبق للنقد الأخلاقي في نقده وتحليله للنص الأدبي، ينظر إلى ذلك النص من الناحية الأخلاقية، أي وفقًا للنظام الأخلاقي والقيمي والفكري الذي يؤمن به ويتبعه ذلك الناقد. لو قمنا بعرض نص أدبي ما على نقاد أخلاقيين من شتى أرجاء العالم، فإننا سنجد حينئذ أن كل فرد من هؤلاء النقاد سوف يقدم لنا نقدًا وتحليلًا للنص، يختلف تمامًا عما يقدمه لنا نظرائه الآخرين. وذلك ببساطة شديدة لأن النظام القيمي والأخلاقي يختلف في مكان ما من العالم عن غيره من الأماكن. فما هو أخلاقي عند (س) من الشعوب قد يبدو أمر غير أخلاقي عند (ص) من الشعوب، وما تتجرأ على فعله (هـ) من الشعوب قد تخجل أو تخشى من فعله (ي) من الشعوب.

أي أن ما يبدو أخلاقيًا عند المواطن الصيني قد لا يبدو أخلاقيًا عند المواطن المكسيكي، وما يبدو أخلاقيًا عند الفرد المسيحي قد لا يبدو أخلاقيًا عند الفرد المسلم، وهكذا دواليك.

نظرية التحليل الجغرافي للأدب لها فكر موحد وأيديولوجيا عالمية، لا تختلف من مكان إلى آخر فوق ظهر هذا الكوكب. أي إذا ما جئنا بنقاد من شتى أرجاء العالم وعرضنا عليهم مهمة تحليل نص أدبي معين تحليلًا جغرافيًا، فقد تتشابه نتائج النقد والتحليل التي يعطيها اولئك النقاد إلى حد كبير، وذلك كما ذكرنا لأن الجغرافيا هي عبارة عن موضوع عالمي كوني، يتخطى كل الفروق البشرية والاختلافات الأنثروبولوجية التي قد يفرضها اختلاف البيئة، أو الهوية، أو العرق، أو الديانة.

وبالتالي فإنه في حالة قيام ناقد من روسيا مثلًا بتحليل نص أدبي معين، تحليلًا جغرافيًا، فإن تحليل هذا الناقد سيناسب ويرضي غيره من النقاد والمتذوقين في شتى أرجاء العالم وإلى

حد كبير على أقل تقدير. أما قيام ناقد من قبائل التبو الصحراوية [1] مثلاً بتحليل نص أدبي معين، تحليلًا أخلاقيًا، فذلك لن يناسب ولن يرضي الكثيرين من النقاد والمتذوقين في كثير من أرجاء العالم.

بإمكان ناقد واحد فقط أن يقنع العالم بأسره من خلال نقده وتحليله لنص أدبي معين، نقدًا وتحليلًا جغرافيًا، لكن العالم قد يحتاج إلى مساعي ومحاولات عشرات أو حتى مئات من النقاد، من أجل وضع مقاربات نقدية لنص أدبي معين من الناحية الأخلاقية، وذلك لأن النظم الأخلاقية تختلف وتتنوع بتنوع القبائل، والمجتمعات، والحضارات، والشعوب، والثقافات. على العكس تمامًا من الجغرافيا التي تبقى ثابتة المعايير عالميًا وإلى حد كبير.

نظرية النقد الجديد **New Criticism** جاءت لتهتم بالنص وحده دون سواه. ونظرية التلقي **Reception Theory** جاءت لتهتم بالقارئ وحده، دون باقي مكونات المعادلة الأدبية. لكن نظرية التحليل الجغرافي للأدب، جاءت لتعبر عن رؤية أعم وأشمل، ما جاءت به هاتين النظريتين، وجاءت لتعبر عن رؤية أعم وأشمل، من جميع ما جاءت به النظريات التي على شاكلة هاتين النظريتين. فنظرية التحليل الجغرافي للأدب تهتم بكافة أطراف ثالوث المسألة الأدبية، أي أنها تهتم بالنص والكاتب والقارئ على حد سواء. وبذلك تقدم النظرية رؤية سلسة طيعة، وأكثر براغماتية من الكثير من نظريات الأدب الصارمة، والمتيبسة الرؤى والمواقف.

إذا ما عقدنا مقارنة بسيطة بين نظريات التحليل النفسي **Psychological Analysis** ونظرية التحليل الجغرافي للأدب، فإننا سوف نجد أن نظريات التحليل النفسي تنظر إلى النص الأدبي من ناحية روحية ومجردة واستنتاجيه. فالنقاد النفسيين يتعاملون مع النص الأدبي على أنه حلم، وبالتالي فإنهم يفسروا ذلك النص ويجتهدوا في تحليله، وكأنه حلم أو ظاهرة غيبية [2].

---

(1) قبائل تسكن في الناحية الشرقية من الصحراء الكبرى.

(2) Bressler C. E : Literary Criticism: An Introduction to Theory and Practice – Prentice Hall – New Jersey 1994 – P 88.

منظرو التحليل النفسي أمثال سيجموند فرويد Sigmund Frued، جاك لاكانJacques Lacan، كارل يونغ Carl Jungوغيرهم من الرواد. زادوا من تداخل التحليل النفسي في ميدان النظرية الأدبية، وفي ممارسة نقد وتحليل الأدب، وأدخلوا تحديثات متعاقبة على نظريات ومناهج التحليل النفسي بأشكالها المتعددة، وفي المحصلة النهائية لعمليات التحديث والتطوير تلك، صارت نظريات التحليل النفسي تغطي باهتماماتها ثالوث النص والكاتب والقارئ. إذ يمكننا القول أن النقاد الأدبيين المطبقين للتحليل النفسي في نقدهم وتحليلهم، قد غطوا المعادلة الأدبية باهتماماتهم ودراساتهم من شتى جوانبها وأبعادها.

الفرق بين التحليل النفسي والتحليل الجغرافي، يكمن في أن التحليل النفسي يبدو تحليلًا ظنيًا استنتاجيًا، أكثر منه وصفيًا تطبيقيًا. أي على العكس تمامًا من التحليل الجغرافي، الذي يعتمد بشكل كبير على الأسلوب الوصفي. كما أن التحليل النفسي يدرس الظواهر الروحية والمعنوية، والأساطير، والخيالات والأشياء المجردة، والعالم الغير مرئي. أما التحليل الجغرافي فيدرس الماديات والكيانات المحسوسة والمجسمة والملموسة.

ظاهرة نفسية مجردة كالهستيريا مثلًا، لا يمكنك ملاحظتها بواسطة أي من حواسك الخمس. لكن من خلال نظرية التحليل الجغرافي يمكنك أن تدرك الأشياء وأن تلاحظها واقعًا ماديًا ملموسًا. وذلك لأن نظرية التحليل الجغرافي تنظر إلى النص الأدبي، على أنه مجموعة من الأماكن والمواقع والامتدادات، كما وأنها تعتبر العالم الحقيقي الواقعي بأسره وبقاراته السبع، مسرحًا رحبًا لكافة الأعمال الأدبية التي أنتجتها وتنتجها البشرية. باختصار يمكننا القول أن منهج التحليل الجغرافي مرتبط بقطع اليابسة والمسطحات المائية والمساحات التي تقاس بالأميال والكيلومترات، وليس مرتبطًا بالأحلام والتخيلات والرؤى الاستنتاجية كما في التحليل النفسي.

إذا دارت بعض أحداث من عمل أدبي معين، في دولة ما كالكاميرون مثلًا، فحينها يمكنك إدراك وجود الكاميرون بحواسك الخمس، وهذا بالطبع هو الفرق بين إدراك كل من الكاميرون

والهستيريا. إذ يمكنك السفر إلى الكاميرون كي تراها بأم عينيك، في حين لا يمكنك السفر إلى الهستيريا. وبإمكانك أن تشم رائحة زهور الكاميرون، لكن ليس بإمكانك أن تشم رائحة زهور الهستيريا!!. وباستطاعتك أن تلمس الكاميرون حينما تأخذ في راحة يدك شيئًا من ترابها، لكنك بالتأكيد لن تستطيع فعل ذلك مع الهستيريا. وذلك ببساطة شديدة لكون الكاميرون كيان فيزيقي ملموس ومحسوس، بينما الهستيريا كيان مجرد ومعنوي وتخيلي وغير ملموس.

النقد والتحليل باستخدام منهجية من المفاهيم والظواهر المحسوسة والملموسة، يعطي وبلا شك نتائجُ موثوقة وأكثر إقناعًا ومنطقية، من النقد والتحليل باستخدام منهجية من المفاهيم والظواهر الخفية والمجردة والتخيلية. فالحديث من وجهة النظر الجغرافية عن البحر الأبيض المتوسط بأبعاده المساحية الحقيقية المعروفة للجميع، يبدو وفي كل الأحوال أكثر إقناعًا ومنطقية، من الحديث من وجهة النظر النفسية عن اللاشعور بأبعاده الغامضة والغير محصورة.

واقعية نظرية التحليل الجغرافي وسعيها وراء الماديات والمحسوسات بالبحث والدراسة، هو بالتأكيد شيء إيجابي يحسب للنظرية. أما تجريدية نظريات التحليل النفسي وسعيها وراء التخيلات والمعنويات بالبحث والدراسة، فهو أمر يكشف مدى شجاعة وجرأة ومغامرة تلك النظريات، ولا يقلل ذلك من قدرها وقيمتها على الإطلاق.

عندما وصفت منهاج نظريتي بأنه أعم وأشمل من مناهج كثير من النظريات الأخرى، فأنا بالتأكيد لا أعارض خوض النظريات الأدبية وتغلغلها في التفاصيل الدقيقة للأدب، ولا أعارض تخصص بعض تلك النظريات في جوانب دقيقة وتفصيلية من دراسة الأدب.

فبلا شك دخول النظريات الأدبية عالم النقد والقراءة الأدبية على هذا النحو من الدقة والتخصص، هو أمر يحسب لتلك النظريات الجريئة والمبدعة. فربط النظريات الأدبية مثلًا بين علم النفس وعلم الاجتماع مع الكتابات الأدبية، هو بلا شك إبداع وتميز. وربط النظريات الأدبية بين تخصصات علمية ومعرفية أكثر دقة من علمي النفس والاجتماع مع الكتابات الأدبية

المختلفة، يعتبر أمرًا أكثر جرأة وإبداع. فكلما ازدادت دقة وتخصص الموضوع أو المنظور، الذي تم من خلاله دراسة النظريات الأدبية للأدب، كلما ازدادت هذه النظريات تميزًا وإبداعًا. فمن ينكر أن الخروج عن التقليد والإتيان بالجديد هو إبداع؟!.

كما ذكرت في معرض مقارنتي بين التحليل النسوي والتحليل الأخلاقي من جهة، والتحليل الجغرافي من جهة أخرى. فإن نظرية التحليل الجغرافي للأدب جاءت بعيدة كل البعد عن كافة الأشياء التي من شأنها إثارة الخلافات أو الحساسيات العرقية، أو الدينية، أو القومية، أو الثقافية بين الناس. فالنظرية من حيث منهجيتها وفرضياتها تخلو تمامًا من أي مكونات أو إشارات، قد تؤدي إلى إثارة هكذا خلافات، أو نزاعات، أو حساسيات بين البشر وبعضهم البعض (هذا من الناحية النظرية).

لكن تطبيق النظرية عمليًا على نصوص الأدب، يبدو أمرًا غير مأمون ولا مضمون من تلك الناحية. فالناقد المطبق لنظرية التحليل الجغرافي على نص أدبي معين، ربما يعبر عن آرائه الجغرافية أو السياسية أو الانثروبولوجية الخاصة، والتي يؤمن بها شخصيًا أو يؤمن بها قومه. فهكذا ناقد ربما يثير حفيظة غيره من النقاد والمتذوقين للنقد، وذلك في حالة تطرقه في نقده وتحليله لنص أدبي معين إلى قضايا خلافية. كقضية وجود نزاع حدودي بين دولتين وميل الناقد إلى دولة منهما على حساب الأخرى. أو تسميته إقليم معين باسمه الانفصالي الجديد، في حين أن هذا الإقليم لم يعترف به رسميًا ودوليًا بعد. أو سخريته من دولة أو كيان سياسي معين بسبب مكونه الديمغرافي، أو الثقافي، أو الإثني، وغير ذلك. هذه جميعها أمثلة على الحالات التي قد يتضمنها أي تحليل جغرافي مثير للجدل والآراء لنص أدبي معين.

لمزيد من التوضيح نقول، لو كان لدينا نص أدبي عالمي ذائع الصيت، بحيث يتضمن مدينة القدس كأحد المحطات التي تتنقل فيما بينها أحداث ذلك النص. ولو جئنا بناقدين أدبيين اثنين، أحدهما من الولايات المتحدة الأمريكية والآخر من مصر، وأوكلنا إليهما مهمة تحليل ذلك النص

تحليلًا جغرافيًا. حينها سيقدم الناقد الأمريكي مدينة القدس في معرض تحليله ونقده على أنها مدينة (إسرائيلية)، بينما الناقد المصري سيعتبر القدس على أنها مدينة (فلسطينية). الأول سيزعج بنقده وتحليله هذا كل من العرب والمسلمين، بينما الثاني سيزعج بنقده وتحليله كل من الإمبريالية والصهيونية. أما منهجية وفرضيات نظرية التحليل الجغرافي للأدب، فهي من الناحية النظرية لا تزعج ولا تضايق أحد من شعوب الأرض. وإنما كما ذكرنا من قبل، فهي ترضي الجميع بلا استثناء.

عندما قارنت نظريتي، نظرية التحليل الجغرافي للأدب، مع بعض النظريات الأخرى. وضحت معالم الفرق والاختلاف بين النظرية وغيرها من النظريات المتعددة. لم أقارن نظريتي بالنظريات التي قارنتها بها في سابق الصفحات، كي أثبت تفوق نظريتي على تلك النظريات بشكل مطلق. ولم أزج بنظريتي في مقارنة مع تلك النظريات كي أنتقص من قدر هذه النظريات بالتحديد. بالتأكيد لا، لأن النظرية الأدبية كما ذكرنا في عدة مواضع سابقة، هي وجهة نظر فلسفية. وبالتالي أنا أحترم جميع النظريات الأدبية باختلاف أشكالها وأنواعها، دون الانتقاص من قدر أي منها، لأنها تبقى في النهاية وجهات نظر تحترم، حتى لو اختلفنا معها في بعض القضايا والمسائل. والخلاف في الرأي كما تعلمون، لا يفسد للود قضية.

الفصل الثاني: وصف فرضيات النظرية.

- فرضيات النظرية.
- كشف العلامات الجغرافية.
- تصنيف العلامات الجغرافية.
- تفسير العلامات الجغرافية.
- أثر المؤلف.
- ملاحظات.

فرضيات النظرية

غالبية النظريات الأدبية التي ترتكز على تحليل النص الأدبي، لم تقدم لنا جدولة محكمة أو قالب محدد المعالم من الفرضيات، وإنما قدمت لنا فكرًا فضفاضًا، وأيديولوجيا فلسفية بحتة، لا تقيدها حدود ولا تضبطها بنود.

أما نظرية التحليل الجغرافي للأدب فقد جاءت بقالب محكم من الفرضيات، ولم تقدم لنا فرضياتها اعتباطًا، بشكل عشوائي وغير مرتب. ولوصف أكثر تفصيل يمكننا القول أن فرضيات نظرية التحليل الجغرافي جاءت على نحو رياضي تسلسلي مرتب. أي أنها جاءت على شكل خطوات تراتبية داخل عملية. لذلك فالناقد المطبق لفرضيات نظرية التحليل الجغرافي في نقده وتحليله لنصوص الأدب، يشعر أنه يطبق خطوات تراتبية منظمة ومتسلسلة، وأن هذه الخطوات في النهاية تقوده إلى إتمام عملية ما. وتلك العملية هي بالتأكيد، تحليل النص الأدبي تحليلًا جغرافيًا كاملًا متكاملًا.

فرضيات نظرية التحليل الجغرافي للأدب، قد تبدو للكثيرين كما ذكرنا على أنها خطوات، أكثر من كونها مجرد فرضيات. وعلينا أن نشير ها هنا إلى أن التطبيق الأمثل لفرضيات النظرية على النص الأدبي أيًا كان هذا النص، لا يتم إلا من خلال التطبيق الكامل لسائر الفرضيات، دون انتقائية أو إقصاء لأي من هذه الفرضيات. ليس هكذا فحسب بل وتطبيقها وفقًا لترتيبها وتسلسلها الرياضي داخل جدول الفرضيات.

صحيح أن محاولات النقد والتحليل التي لا تطبق فيها فرضيات النظرية وفقًا للتراتبية والتسلسل، هي محاولات غير مثالية وغير مكتملة. لكن ذلك لا يقلل كثيرًا من قيمة هذه المحاولات النقدية والتحليلية، ولا ينفي عنها صفة الانتماء إلى منهج نظرية التحليل الجغرافي للأدب.

بدافع الاختصار أو بدافع توفير الوقت والجهد والمساحة الورقية، قد يقوم الناقد المطبق للنظرية بتطبيق بعض فرضياتها دون البعض الآخر، أو قد يطبق الفرضيات في غير تسلسلها المنطقي وترتيبها الرياضي. هذا أمر طبيعي ومتوقع الحدوث، ولكن التطبيق الأمثل لفرضيات النظرية يبقى كما ذكرنا، من خلال تطبيقها كلها وليس بعضها، وتطبيقها وفقًا للترتيب والتسلسل الذي جاء به منهج النظرية.

إذ يبدو تسلسل فرضيات نظرية التحليل الجغرافي للأدب، على النحو التالي:

كشف العلامات الجغرافية

المدقق والمتأمل جيدًا في النصوص الأدبية بشتى أنواعها، وخصوصًا النصوص ذات البعد الجغرافي منها، يجد تلك النصوص ملئا بالعلامات الجغرافية. والعلامات الجغرافية هي التي سبق وأن أشرنا إليها في عدة مواضع سابقة على أنها معلومات، أو دلالات، أو مساهمات، أو مشاركات جغرافية.

العلامات الجغرافية تظهر في النصوص الأدبية قاطبة، على شكل نمطين أو نوعين لا ثالث لهما. وهذين النوعين أو النمطين هما:

١) المسميات.

٢) الأحداث.

وبالتالي فإن دور الناقد المطبق لنظرية التحليل الجغرافي في نقده وتحليله لنصوص الأدب، هو أن يبحث في ثنايا النصوص ودهاليزها عن العلامات الجغرافية، التي تتأتى لنا عبر هذين النوعين أو النمطين من العلامات.

أولًا: المسميات الجغرافية:

هذه المسميات توجد في النصوص الأدبية، وترد دومًا على هيئة أسماء علم، وتحمل بالطبع دلالات جغرافية واضحة. وتكون في الغالب أسماء قارات، أو محيطات، أو دول، أو صحاري، أو جبال، أو بحار، أو أنهار، أو بحيرات، أو مدن، أو قرى، أو أحياء، أو شوارع، وغير ذلك.

وقد تكون هذه المسميات عبارة عن مسميات مشتقة من مسميات أخرى. فعلى سبيل المثال مسمى (رجل أيرلندي) هو اشتقاق من المسمى الأصلي (أيرلندا). و(حيوان قطبي) هو مسمى مشتق من (القطب)، سواء أكان المقصود بذلك هو القطب الشمالي أم الجنوبي.

في سائر أعمال الأدب ونصوصه، ترد إلينا المسميات الجغرافية من خلال نوعين أو نمطين من المسميات لا ثالث لهما. إذ يمكن لنا الإشارة إليهما مدعمان بالأمثلة التوضيحية، على النحو التالي:

أ) الأماكن.

وهي الأماكن بمعناها المكاني والمساحي والجغرافي، مثل آسيا، والصحراء الكبرى، والمحيط الأطلسي، ورومانيا، ومكسيكو، ودنفر، وشارع عدلي، وغير ذلك.

الأماكن تمثل النوع الأصلي، الذي يشتق منه النوع الآخر من المسميات الجغرافية.

- أمثلة توضيحية من نصوص الأدب على الأماكن.

١) (الباسيفيك) .... ورد في نص (أمير الذباب).

٢) (ساحل دوفر) .... ورد في نص (الملك لير).

٣) (النمسا) .... وردت في نص (الأسلحة والإنسان).

٤) (أوروبا) .... وردت في نص (الأرض الخراب)[١].

٥) (جبال البحر الأحمر) ..... وردت في نص (موسم الهجرة إلى الشمال).

٦) (جنيف) .... وردت في نص (فرانكنشتاين).

٧) (كوبنهاجن) .... وردت في نص (رحلة إلى مركز الأرض).

٨) (ليتوانيا) .... وردت في نص (ديبوك)[٢].

٩) (مصر) .... وردت في نص (الخيميائي).

ب) الصفات الجغرافية.

تظهر الصفات الجغرافية داخل مختلف أنواع نصوص الأدب على هيئة جنسيات. سواء جنسيات بشر، أو حيوانات، أو نباتات، أو بضائع، أو سلع، أو غيرها. على سبيل المثال، طفل أفريقي، سيدة بلجيكية، مزارع كولومبي، خبير هندي، حصان فرنسي، كتاب سلوفاكي، سيجار كوبي، زجاج صيني، موز كمبودي، وهكذا.

---

(1) أو الأرض اليباب.

(2) مسرحية للأديب الروسي أنسكي.

وفي أحيان أخرى، هذه الصفات قد تكون صفات معنوية وغير محسوسة أو ملموسة. كالإرادة الأفريقية، والترقب الفرنسي، والتخلف العربي، والتطور الياباني، والغرور الأمريكي، والنضال الفلسطيني.

كما تلاحظون من خلال الأمثلة المتعددة التي ذكرناها عن الصفات الجغرافية، فإن الصفات الجغرافية عمومًا تبدو كاشتقاقات مستمدة من النوع أو النمط الأصلي للمسميات الجغرافية (الأماكن). لأننا عندما نقول (رجل إنجليزي)، فإن صفة (إنجليزي) تكون مشتقة أساسًا من الاسم أو المسمى (إنجلترا)، وإنجلترا هي عبارة عن (مكان). وعندما نقول (شيكولاتة سويسرية)، فهذه الصفة مشتقة من المسمى (سويسرا)، والتي هي في النهاية عبارة عن (مكان). إذًا جميع الصفات الجغرافية هي أساسًا مشتقة من مسميات الأماكن.

- أمثلة توضيحية من نصوص الأدب على الصفات الجغرافية.

١) (الجيش النرويجي) .... ورد في نص (مكبث).

٢) (رائحة أوروبية) .... وردت في نص (موسم الهجرة إلى الشمال).

٣) (تنين ياباني) .... ورد في نص (في ساعة نحس).

٤) (بحار فينيقي) .... ورد في نص (الأرض الخراب).

٥) (نشيد عسكري بروسي) .... ورد في نص (موسم الهجرة إلى الشمال).

٦) (أغنية مكسيكية) .... وردت في نص (ليس في هذه القرية لصوص)[٣].

٧) (عطور العرب) .... وردت في نص (مكبث).

(3) قصة قصيرة لجابرييل جارسيا ماركيز.

٨) (مومياء مصرية) .... وردت في نص (جزيرة المرجان).

٩) (سفينة فرنسية) .... وردت في نص (قلب الظلمات).

كما تلاحظون في معرض حديثنا عن (الأماكن)، ذكرنا أماكن جغرافية بعينها. فساحل دوفر، والباسيفيك، والنمسا، وأوروبا، وجبال البحر الأحمر، وغيرها. هذه جميعها أماكن جغرافية لها مكانتها ووجودها الحقيقي على الخرائط الجغرافية الرسمية، سواء السياسية أو الطبيعية منها. أما الأمثلة الأدبية التي ذكرناها في معرض شرحنا للصفات الجغرافية، فهي جميعها مشتقة من أسماء أو مسميات أماكن جغرافية. فالجيش النرويجي يعود إلى دولة النرويج، والبحار الفينيقي يعود إلى الفينيقيين (السكان التاريخيين لسواحل شرق البحر الأبيض المتوسط)، والتنين الياباني يعود إلى دولة اليابان، ورائحة أوروبية تعود إلى قارة أوروبا، ونشيد عسكري بروسي يعود إلى بروسيا (دولة قديمة كانت تشكل أجزاء كبيرة من ألمانيا المعاصرة)، وأغنية مكسيكية تعود إلى دولة المكسيك، وفي النهاية عطور العرب تعود بالتأكيد إلى العرب أو بلاد العرب.

إذًا فالأساس الذي يؤدي إلى تكون الصفات الجغرافية هو الأماكن، والأماكن هي في حد ذاتها عبارة عن أسماء أو مسميات. والأسماء من الناحية اللغوية كما تعلمون، هي الأساس الذي تبنى عليه الصفات.

ثانيًا: الأحداث الجغرافية:

العمل الأدبي أو النص الأدبي هو عبارة عن سلسلة من الأحداث المتتابعة والمتلاحقة. والعمل الأدبي أو النص الأدبي كما ذكرنا في بداية هذا الكتاب، هو عبارة عن مجموعة من الإسهامات والمشاركات التي تأتي من شتى صنوف العلوم والمعارف، لتنسج خيوط المادة الأدبية، والتي من خلالها يخلق ويتكون النص.

بما أن النص الأدبي هو عبارة عن سلسلة من الأحداث، وبما أن المادة الأدبية التي تتكون منها نصوص الأدب تعتمد كليًا على إسهامات العلوم والمعارف بأنواعها المختلفة، إذًا فإن أحد أحداث أو بعض أحداث نص أدبي معين، قد يغلب عليه أو عليها طابع وصبغة أحد العلوم والمعارف المشاركة في بناء الأدب. فخلال مطالعتنا لنص أدبي معين، قد نجد أحداث بداخل هذا النص ذات نزعة أو نكهة تاريخية، أو سياسية، أو اجتماعية، أو اقتصادية، أو فلسفية، أو دينية، أو جغرافية، أو غير ذلك.

المطلوب والمنشود ها هنا، هو الاهتمام بتلك الأحداث ذات النزعة الجغرافية أو الطابع الجغرافي الواضح. لذلك يتوجب على الناقد المطبق لفرضيات نظرية التحليل الجغرافي للأدب، أن يقرأ النص الأدبي المراد نقده وتحليله قراءة مستفيضة، ويتوجب عليه كذلك أن يقف عند سائر الأحداث الجغرافية الطابع والنزعة المتواجدة في ذلك النص. ولا يجوز البتة أن يمر الناقد على هكذا أحداث مرور الكرام. بل يتوجب عليه أن يستكشفها بعناية، وأن يتقصى مواطن وجودها داخل النص الأدبي بحرص شديد. وبعد ذلك يرجع له الأمر في كيفية التعاطي مع هذه الأحداث وذلك بحسب أسلوبه في النقد والتحليل، وبحسب تقديره لدرجة الاهتمام التي قد تتطلبها هذه الأحداث، كل منها على حدة، وكل منها حسب ظرفه الخاص. فقد يكتفي الناقد بقراءة بعض تلك الأحداث مجرد قراءة بعد أن يأخذ فائدته منها، وقد يحوط أو يظلل بقلمه جزءًا آخرًا منها، وقد ينقل شيئًا منها إلى كراسته و أوراقه، أو غير ذلك[1].الحدث الجغرافي قد يظهر داخل بنية النص الأدبي من خلال بضع كلمات، أو جملة، أو سطر، أو فقرة، وفي بعض الأحيان قد تمتد المساحة التي يظهر من خلالها هذا الحدث، لتصل إلى عدة فقرات أو صفحة كاملة. مهمة الناقد المطبق لفرضيات النظرية وكما ذكرنا من قبل، هي متابعة الأحداث الجغرافية ورصد مواطن وجودها داخل النص. وبالتأكيد فإن طريقة تعاطي الناقد مع الأحداث الجغرافية تختلف عن طريقة تعاطيه مع المسميات الجغرافية، وذلك من حيث

(1) يتفاوت اهتمام الناقد بالأحداث الجغرافية، وفقًا لمقدار ما تمثله هذه الأحداث من أهمية للناقد.

كيفية دراسة وتحليل تجليات هذين الجانبين المختلفين في نصوص الأدب، وسنتحدث عن هذا الأمر بشيء من التفصيل في قادم الصفحات.

الأحداث الجغرافية التي نجدها في مختلف أنواع نصوص الأدب، تكون في الغالب بشأن: وصف مكان ما من الناحية الجغرافية، عملية إبحار، جولة سياحية، تنقل وارتحال، أسفار غنية بالوصف والتوثيق الجغرافي، وصف مناخي وبيئي لمكان ما، طبوغرافيا، تضاريس، العرض الجغرافي Latitude، استكشاف جغرافي، نجو من سفينة غارقة والاهتداء إلى مكان منعزل Castaway، المغامرة الجغرافية، وغير ذلك.

- أمثلة توضيحية من نصوص الأدب على الأحداث الجغرافية:

فيما يلي تسعة أمثلة توضيحية، جئت بها من ثلاثة نصوص أدبية وهي: رواية أمير الذباب Lord of the flies للأديب الإنجليزي وليام جولدنج William Golding، ورواية جزيرة المرجان The Coral Island للأديب الاسكتلندي روبرت مايكل بالنتين R. M Ballantyne، ورواية روبنسون كروزو Robinson Crusoe للأديب الإنجليزي دانيال ديفو Daniel Defoe:

١) «علينا أن نتأكد إذا ما كانت هذه بالفعل جزيرة، يجب عليكم جميعًا أن تظلوا هنا ولا تغادروا هذا المكان. ثلاثة منا، إذا أخذنا أكثر من ثلاثة سوف نرتبك ونفقد بعضنا البعض، إذًا ثلاثة منا سوف يذهبون لاستكشاف الوضع.»[1].

٢) «قال جاك: هيا، نحن مستكشفون.

قال رالف: سوف نذهب عند نهاية الجزيرة، ونراقب من هناك، إذا ما كانت هذه بالفعل جزيرة.»[2].

(1) William Golding: Lord of The Flies – G. P. Putnam's Sons – New York 1954 – P 23.

(2) William Golding: Lord of The Flies – G. P. Putnam's Sons – New York 1954 – P 24.

٣) «قال جاك: هذا استكشاف حقيقي، أراهن أن أحدًا لم يكن هنا من قبل.

قال رالف: يجب علينا أن نرسم خارطة، لكن لا يوجد لدينا ورق.

قال سيمون: يمكننا أن ننقش خارطة على لحاء شجرة.»[٣].

٤) «لقد اتخذنا هذه الاحتياطات لأننا أردنا أن نقوم برحلة استكشافية إلى قمم الجبال الداخلية، وذلك كي نتمكن من مشاهدة ومعاينة الجزيرة بشكل أفضل.»[٤].

٥) «هي تتكون من جبلين اثنين، أحدهما يبلغ ارتفاعه بحسب تقديرنا نحو ٥٠٠ قدم، والآخر حيث نقف نحن ويبلغ ارتفاعه نحو ١٠٠٠قدم. بين هذين الجبلين يوجد وادي جميل ورائع كما سبق وأن ذكرنا. هذا الوادي يعبر الجزيرة من بدايتها حتى نهايتها، بحيث يكون مرتفع من منتصفه، وينحدر عند جانبيه أي كلما اقترب من الشاطئ.»[٥].

٦) «قطر مساحة الجزيرة يبلغ تقريبًا نحو عشرة أميال، إنها كانت تقريبًا دائرية الشكل، ومحيطها يبلغ نحو ثلاثين ميلًا أو ربما أكثر بقليل، وذلك إذا ما أخذنا في الاعتبار وجود الخلجان والانحناءات المنتشرة على طول الساحل.

كل الجزيرة كانت محزمة بشاطئ من الرمال البيضاء النقية، التي تغسلها الأمواج الرقيقة للبحيرات الساحلية. نحن أيضًا الآن نشاهد الحاجز الصخري المرجاني يلف الجزيرة ويطوقها من كل جانب، لكن المسافة الفاصلة بين ذلك الحاجز وساحل الجزيرة تختلف من مكان إلى آخر، ففي بعض الأماكن يبتعد الحاجز عن الساحل بمسافة ميل واحد تقريبًا، وفي أماكن أخرى، يبتعد بضع مئات من الياردات فقط، لكن المتوسط الإجمالي للمسافة الفاصلة بين الحاجز الصخري المرجاني وساحل الجزيرة يبلغ نحو نصف ميل تقريبًا.»[٦]

(3) William Golding: Lord of The Flies – G. P. Putnam's Sons – New York 1954 – P 25.

(4) Ballantyne R. M: The Coral Island – J. M. Dent & Sons – London 1967– P 38.

(5) Ballantyne R. M: The Coral Island – J. M. Dent & Sons – London 1967 – P 45 – 46.

(6) Ballantyne R. M: The Coral Island – J. M. Dent & Sons – London 1967 – P 46.

٧) «مهمتي القادمة هي أن أستكشف هذا البلد، وأن أبحث عن مكان مناسب فيه من أجل إقامتي، وكذلك أن أجد لمتاعي وأدواتي مكان آمن أضعها فيه. أين أنا ؟. لغاية اللحظة لا أعرف، لا أعرف سواء أكنت متواجدًا على أرض قارة أم جزيرة، سواء أكانت هذه الأرض مأهولة بالسكان أم غير مأهولة، سواء أيوجد بها خطر للحيوانات المفترسة أم لا يوجد.»[١].

٨) «بما أنني قمت من قبل برحلة إلى هذا الساحل، فإنني أعرف جيدًا أن جزر الكناري وجزر الرأس الأخضر جميعها تقع ليس ببعيد عن هذا الجزء من الساحل. لكنني لم أمتلك أي أدوات لتساعدني على تقدير موقعنا هذا من حيث دوائر العرض الجغرافية، ولم أتمكن كذلك من معرفة أو تذكر دوائر العرض التي تقع عندها بالضبط هذه الجزر، لم أعرف كيف أعثر على الجزر، ولم أعرف كيف أعثر على النقطة التي تقابلها أو توازيها من الساحل.»[٢]

٩) «قام الربان بإجراء ما يستطيع من ملاحظات واستكشافات، فوجد أنه كان تقريبًا عند دائرة العرض الحادية عشر شمالي خط الاستواء، لكنه اكتشف أيضًا أنه كان عند خط الطول الثاني والعشرين، إلى الغرب من رأس سانت أوغسطين، وكذلك اكتشف الربان أيضًا أنه كان فوق ساحل غويانا، أو الطرف الشمالي للبرازيل، أي وراء نهر الأمازون، وأمام نهر أورينوكو، الذي عادة ما يعرف بالنهر العظيم.»[٣]

تصنيف العلامات الجغرافية

يتوجب على الناقد المطبق لنظرية التحليل الجغرافي في نقده وتحليله لنصوص الأدب، أن يقف جيدًا عند سائر النصوص، وأن يصنف العلامات الجغرافية التي تتبدى له من خلالها إلى صنفين أو نوعين من العلامات.

(1) .Daniel Defoe: Robinson Crusoe - Planet eBook - edition 2007 - P 67
(2) .Daniel Defoe: Robinson Crusoe - Planet eBook - edition 2007 - P 32
(3) .Daniel Defoe: Robinson Crusoe - Planet eBook - edition 2007 - P 52

الصنف أو النوع الأول، يتمثل في العلامات الجغرافية التي تشكل جزء من حبكة النص الأدبي وبنيته الحقيقية. أما الصنف أو النوع الثاني، فهو يتمثل في العلامات الجغرافية التي يجري ذكرها والتطرق لها في النص فقط، أي لا تكون جزءًا حقيقيًا من حبكة النص وبنيته، وفي غيابها لا يتأثر النص ولا يتغير عن الصورة التي هو عليها في الأساس.

فعلى سبيل المثال، ورود المسمى الجغرافي (هنغاريا) في نص أدبي معين، لا يعني بالضرورة أن تكون أيًا من أحداث هذا النص قد وقعت في هنغاريا، كما أن ذلك لا يعني بالضرورة أن أيًا من شخصيات ذلك النص تحمل الجنسية الهنغارية أو تنحدر من أصول هنغارية.

وورود الحدث الجغرافي (عبرنا الأطلسي في ستة أيام ومررنا بجزر الأزور) في نص أدبي معين، لا يعني بالضرورة أن حبكة هذا النص وبنيته ومفهومه العام، قد كان لهم علاقة بالمحيط الأطلسي أو بجزر الأزور من حيث الأساس.

فمسمى (هنغاريا) ربما يكون قد ورد في العمل أو النص الأدبي لمجرد الذكر ليس أكثر، أي ربما تكون أحد شخصيات العمل الأدبي قد ذكرت هذا المسمى في إطار الحوار، أو ربما يكون الراوي قد ذكره في إطار السرد. لكن هذا المسمى وفي هكذا حالة، لا يمكن اعتباره على الإطلاق أنه من المحطات الجغرافية التي استضافت ولو الشيء القليل من أحداث العمل أو النص الأدبي.

وكذلك الحدث الجغرافي (عبرنا الأطلسي في ستة أيام ومررنا بجزر الأزور)، ربما يكون قد ورد في العمل أو النص الأدبي لمجرد الذكر ليس أكثر. فقد يكون هذا الحدث من حيث الأساس لا يمت بصلة لحبكة ومجريات أحداث العمل أو النص الأدبي. ولكن ربما يكون هذا الحدث الجغرافي قد ورد في إطار تطرق أحد الشخصيات أو الراوي، إلى تجربة خارجية أو ظاهرة خارجية، لا علاقة لها بمجريات وحبكة العمل أو النص الأدبي، من حيث الأساس.

- لتوضيح الصورة بشكل أفضل، يمكننا تسمية الصنفين أو النوعين على النحو التالي:

١) ما هو مؤثر.

٢) ما هو غير مؤثر.

العلامات المؤثرة هي التي يكون لها دور في نسج خيوط حبكة النص الأدبي، ويكون لها دور كذلك في تحديد ورسم مسار المجريات المحورية والرئيسية للنص. أما العلامات الغير مؤثرة فهي العلامات الجغرافية التي ترد في النص على هيئة الذكر فحسب، أي يجري ذكرها ضمن النص من أجل التطرق إلى تجربة خارجية أو ظاهرة خارجية لا تمت بصلة لحبكة النص، ولا تؤثر في حالة عدم وجودها، على مسار مجريات النص وأحداثه المحورية والأساسية.

تصنيف العلامات الجغرافية إلى ما هو مؤثر في حبكة النص ومجرياته الأساسية، وما هو غير مؤثر، يبدو مهمة سهلة في حالة التعاطي مع المسميات الجغرافية، عنه في الأحداث الجغرافية. فتصنيف المسميات الجغرافية إلى ما هو مؤثر وغير مؤثر يبدو أسهل من إجراء ذات التصنيف بالنسبة للأحداث الجغرافية، وذلك لبساطة المسميات الجغرافية عن الأحداث الجغرافية من الناحية اللغوية والتركيبية، وكذلك لأن الأحداث الجغرافية قلما تكون غير مؤثرة في مجريات وحبكة نصوص الأدب، على العكس من المسميات الجغرافية، والتي في كثير من النصوص وفي كثير من الأحيان تكون غير مؤثرة، لا في حبكة النص الذي ترد فيه ولا في بنيته ومسار مجرياته.

مما لا شك فيه أن نظرية التحليل الجغرافي للأدب تهتم بدراسة كلا الصنفين من العلامات الجغرافية، بغض النظر سواء أكانت علامات مؤثرة أم غير مؤثرة في حبكة وبنية ومجريات النص الذي تتواجد فيه هذه العلامات.

لذلك فالناقد المطبق لنظرية التحليل الجغرافي في نقده وتحليله لنص أدبي معين، مطالب بأن يصنف العلامات الجغرافية إلى الصنفين سالفي الذكر. بالتأكيد كلا الصنفين هامين ولازمين لمهمة النقد والتحليل التي يقوم بها الناقد. لكن ربما تكون العلامات المؤثرة على حبكة نصها وبنيته أكثر أهمية من العلامات الغير مؤثرة عند الكثير من النقاد الجغرافيين، وذلك كون هذه العلامات غالبًا ما تكون متجانسة مع غيرها من العلامات الجغرافية الأخرى في النص الذي توجد فيه، وليست كالعلامات الغير مؤثرة والتي تبدو غالبًا على أنها شاذة عن بقية العلامات الجغرافية المتآلفة والمنسجمة مع بعضها البعض في نصها الذي توجد فيه.لا توجد هناك ضوابط محددة تحكم أو تقيد تعامل الناقد الجغرافي مع كل من العلامات المؤثرة وغير المؤثرة في سياق نقده وتحليله للنص. بل تعود للناقد الجغرافي الحرية المطلقة في كيفية التعامل مع كلا النوعين أو الصنفين. وتعود له الحرية المطلقة بشأن اختيار النوع الذي يفضله على حساب النوع الآخر من حيث التركيز والدراسة. فهناك ناقد قد يفضل العلامات المؤثرة فحسب، كونها أكثر ارتباطًا والتصاقًا بالحبكة والمقصد العام للنص. وهناك ناقد قد يفضل العلامات المؤثرة لكن لا يتجاهل الغير مؤثرة. وهناك ناقد قد ينحاز إلى العلامات الجغرافية بأكملها، بدون الخوض في تصنيفاتها وتقسيماتها.

أنا شخصيًا أنحاز إلى كافة العلامات الجغرافية بشقيها المؤثر وغير المؤثر. فالعلامات المؤثرة لا أحد ينكر أهميتها، فهي التي تصبغ النص الأدبي بصبغتها ليصير (نصًا جغرافيًا). وفي المقابل لا يمكننا أن ننتقص من قدر العلامات الغير مؤثرة، صحيح أنها ليست ذات فعالية كفعالية العلامات المؤثرة، وصحيح أنها وحدها لا تجعل النص الأدبي الذي تتواجد فيه (نصًا جغرافيًا)، إلا أنها بتواجدها داخل النص الغير جغرافي قد تصل بذلك النص إلى درجة (المبالغة الجغرافية)، والتي عندها كما ذكرنا من قبل يصبح النص (سواء أكان جغرافيًا أم غير جغرافيًا) مناسبًا ومؤهلًا لتطبيق نظرية التحليل الجغرافي للأدب. فضلًا عن ذلك فإن تواجد العلامات الغير مؤثرة بجانب العلامات المؤثرة في نصوص الأدب (جغرافية النزعة والطابع) يزيد من القيمة والجمال الجغرافي لتلك النصوص.

أي إذا ما أنكر ناقد ما أهمية العلامات الغير مؤثرة، فإنه قد يضيع على نفسه فرصة نقد وتحليل الكثير من نصوص الأدب الملائمة والمؤهلة لتطبيق نظرية التحليل الجغرافي للأدب. لكن بغض النظر عن كل ذلك، يبقى الناقد الجغرافي ملزمًا بالتفريق ولو ضمنيًا وإيحائيًا، بين العلامات المؤثرة وغير المؤثرة، وذلك عند قيامه بأداء مهمة النقد أو التحليل الجغرافي لأي من نصوص الأدب.

تفسير العلامات الجغرافية

بغض النظر عن تعدد واختلاف أنواع العلامات الجغرافية، سواء أكانت مسميات أم أحداث، أو سواء كانت مؤثرة أم غير مؤثرة. يتوجب على الناقد المطبق لنظرية التحليل الجغرافي في نقده وتحليله لنص أدبي معين، أن يحلل ويفسر ويؤول العلامات الجغرافية التي يعثر عليها في ذلك النص. وإذا ما عدنا للقول السابق أن فرضيات نظرية التحليل الجغرافي للأدب هي فرضيات تراتبية وتسلسلية ذات نسق رياضي وليست فرضيات عشوائية. فإننا نقول بأن مهمة تفسير العلامات الجغرافية هي إجراء تالي ولاحق، يقوم به الناقد بعد قيامه بمهمته التمهيدية الأولى، ألا وهي مهمة رصد وكشف وإيجاد وتحديد العلامات الجغرافية التي يحتويها النص بين جنباته.

فمنطقيًا لا يمكن للناقد أن يفسر العلامات الجغرافية التي يحتويها النص، قبل أن يجدها أولًا ويحصر مواطن وجودها. وكي لا ننسى نكرر مرة أخرى أن مهمة تصنيف العلامات الجغرافية إلى شقيها المؤثر وغير المؤثر، هي أيضًا مهمة ضرورية من أجل إتمام وإنجاح عملية تحليل نص أدبي معين تحليلًا جغرافيًا متكاملًا.

المقصود بتفسير العلامات الجغرافية، هو الاجتهاد في قراءة وتأويل واستنطاق مكنونات وإيحاءات ودلالات ومعاني وانعكاسات هذه العلامات. فكل شيء في هذا الكون الواسع يعطي

دلالات وإيحاءات ومعاني أكبر من حجمه الذي يبدو عليه بكثير، وبلا شك فإن العلامات الجغرافية التي تحتويها نصوص الأدب المختلفة، تحتوي على الكثير من هذه الإيحاءات والمعاني والدلالات.

المقصود بتفسير العلامات الجغرافية هو تقديم الشروحات لهذه العلامات. والشرح دومًا يقدم تكبير وتضخيم وإضافة للمعنى الحقيقي الذي تبدو عليه العلامات، قبل خضوعها لعملية التفسير. ولعل أبرز مثال على طريقة العمل التي تقوم بها عملية الشرح أو التفسير تلك، هو العدسة المكبرة، التي تجعل لبذرة دوار الشمس حينما تحل تحت وطأتها، حجمًا أكبر بكثير من حجمها الحقيقي، فقد تجعل العدسة من حجم البذرة كحجم حبة الفول، أو كحجم الفراشة، أو حتى كحجم الفأر!.

إذًا العدسة المكبرة تقدم نموذجًا ومثالًا حقيقيًا، يتطابق مع ما تقوم به عملية التفسير التي يجريها الناقد على العلامات الجغرافية. العدسة المكبرة لا تضخم حجم بذرة دوار الشمس ليبلغ كحجم الفراشة أو الفأر، هكذا عبثًا أو بلا فائدة. بالتأكيد لا فتضخيم البذرة إلى هذه الأحجام الكبيرة يتيح للناظر أو المشاهد للعدسة، إمكانية رؤية التفاصيل الدقيقة وتباينات وتداخلات الألوان وتفاصيل درجات السطوع والإعتام الموجودة على قشرة البذرة. وكذلك الناقد أو القارئ لتفسير العلامات الجغرافية الخاصة بنص أدبي معين، يستطيع بفضل عملية التفسير تلك أن يقرأ ويدرك تفاصيل ودلالات وإيحاءات ومعاني خفية جديدة، غير متاحة لمن يقرأ ذات العلامات بلا تفسير.

التفسير الأمثل لعلامة جغرافية معينة يتمثل في الإتيان بأكبر قدر ممكن من التحليلات والقراءات والتأويلات لهذه العلامة، واستكشاف ما تحتويه من معاني خفية وإيحاءات ودلالات. ومن أجل الإتيان بأكبر قدر ممكن من التحليلات والقراءات والتأويلات، لا تجد عملية التفسير مفرًا ولا مناص من الولوج في عمليات الاستنتاج والافتراض. فالناقد الذي يقوم

بعملية التفسير ليس عليه أن ينتظر أن تتكشف له الدلالات والإيحاءات والمعاني المستترة التي تحملها العلامات الجغرافية، وهو مكتوف اليدين، بل يتوجب عليه أن يكون مبادرًا، وذلك من خلال عدم توانيه عن إتباع الطريقة المثلى التي ينبغي عليه كناقد أن يؤدي بها عمليتي الاستنتاج والافتراض. وتتمثل تلك الطريقة في قيامه بصياغة عدد من الأسئلة بشأن العلامة الجغرافية المراد تفسيرها. ونمط الأسئلة قد يكون على النحو التالي:

١) في أي موضع من النص جاءت هذه العلامة ؟.

٢) لماذا وجدت هذه العلامة تحديدًا في هذا النص؟.

٣) لماذا جاء المؤلف بهذه العلامة دون غيرها؟.

٤) ما هو قصد المؤلف من وراء إتيانه بهذه العلامة؟.

٥) ما هي الدلالات والإشارات التي تحملها في طياتها هذه العلامة؟. وغير ذلك الكثير من الأسئلة.

ينبغي على الناقد أن يضع أو أن يصيغ الأسئلة كي يجيب عليها بنفسه، لا ليجيب عليها أحد غيره. أما الإجابات التي يرد بها الناقد على نفسه، فهي في المحصلة النهائية تعتبر النتائج التي تفضي إليها عملية التفسير.

طريقة الأسئلة تبدو مناسبة وفعالة للتطبيق في حالة الأحداث الجغرافية أكثر منه في حالة المسميات الجغرافية. وهذا لا يعني البتة أن الطريقة لا تناسب حالة المسميات الجغرافية. ولكن من أجل التوضيح وتحاشيًا للبس وسوء الفهم، نقول أن هناك طريقة استنتاج وافتراض تتناسب وتتلاءم مع المسميات الجغرافية ربما أكثر من طريقة الأسئلة، ألا وهي طريقة الترميز Symbolizing.

طريقة أو أسلوب الترميز مشتق من الرمزية Symbolism، وهي تعني أولًا اعتبار الشيء كرمز، ومن ثم استنتاج وافتراض المعاني والدلالات التي قد يفضي إليها هذا الرمز.

ومن أجل التطبيق الأمثل لأسلوب أو طريقة الترميز في حالة تفسير المسميات الجغرافية، ينبغي على الناقد أن يعد ويعتبر كل مسمى جغرافي على أنه رمز، ومن ثم ينبغي على الناقد أن يستكشف ويستطلع إلى ماذا يرمز هذا الرمز، أي ما هي الدلالات والمعاني والإيحاءات التي يعطيها هذا الرمز ويفضي إليها.

فعلى سبيل المثال، إذا ما عثر ناقد في نص أدبي معين على مسمى جغرافي كدولة (مالي) مثلًا، فهنا وفي هكذا حالة ينبغي على الناقد أن يعتبر مالي على أنها رمز. وبما أن مالي قد أصبحت رمزًا، فمهمة الناقد التالية هي تحديد إلام ترمز مالي. وفي ذلك الشأن يبدأ الناقد في صياغة ووضع الافتراضات والاستنتاجات المختلفة. فبحسب افتراضات واستنتاجات الناقد، قد تكون رمزية مالي على النحو التالي:

١) مالي ترمز إلى الثقافة الأفريقية الصحراوية.

٢) مالي ترمز إلى التخلف والانغلاق الثقافي.

٣) مالي ترمز إلى القبلية والبدائية.

٤) مالي ترمز إلى الفقر ومشقة الحياة.

٥) مالي ترمز إلى الجفاف والحرارة المتقدة.

٦) مالي ترمز إلى الانحباس والحرمان من البحار والسواحل.

٧) مالي ترمز إلى ضحايا الاسترقاق والكولونيالية.

٨) مالي ترمز إلى التواضع والبساطة.

وفي نص أدبي آخر ربما يعثر الناقد على مسمى جغرافي مختلف، مثل (الشباب الأمريكي). أيضًا هنا وفي هكذا حالة ينبغي على الناقد أن يعتبر الشباب الأمريكي على أنه رمز. ومن ثم يبدأ الناقد في تصور وصياغة الافتراضات والاستنتاجات المختلفة من أجل كشف معالم رمزية هذا الرمز. وبحسب افتراضات واستنتاجات الناقد، قد تبدو رمزية الشباب الأمريكي على النحو التالي:

١) الشباب الأمريكي يرمز إلى التعددية الثقافية والعرقية.

٢) الشباب الأمريكي يرمز إلى الفعالية والديناميكية.

٣) الشباب الأمريكي يرمز إلى الانفتاح الثقافي والحداثة ومواكبة التطور.

٤) الشباب الأمريكي يرمز إلى الرفاهية والحالة الاقتصادية المريحة.

٥) الشباب الأمريكي يرمز إلى البحث العلمي والعلم والتقدم والإنتاجية.

٦) الشباب الأمريكي يرمز إلى ثقافة الكاوبوي وهوليوود.

٧) الشباب الأمريكي يرمز إلى الانحلال الأخلاقي وقلة الحياء.

كما تلاحظون فإنه من السهولة بمكان تطبيق طريقة الترميز في حالة المسميات الجغرافية، وذلك لكون المسميات الجغرافية محدودة الوجود والمساحة، أي كونها تتكون من كلمة أو كلمتين على أكثر تقدير. وبما أن المسمى الجغرافي يتكون من كلمة أو كلمتين، فلذا يسهل اعتبار ذلك المسمى كرمز. أما في حالة الأحداث الجغرافية فإنه من الصعوبة بمكان تطبيق طريقة الترميز، إذ يصعب اعتبار الحدث الجغرافي كرمز، وذلك لأن الحدث الجغرافي يتكون غالبًا من عدد كبير من الكلمات، أو حتى من الأسطر والفقرات.

لذلك فبإمكان الناقد أن يعتمد في تفسيره للمسميات الجغرافية على طريقتي الترميز والأسئلة. أما في حالة تفسيره للأحداث الجغرافية، فالمتاح والممكن للناقد هو أن يعتمد على طريقة الأسئلة، ربما فحسب.

بالإضافة إلى طريقتي الأسئلة والترميز، هناك الكثير من طرق التفكير والتحليل والاستنتاج والافتراض الأخرى. فمن الطبيعي أن يأتي غيري من المنظرين أو النقاد بطرق وأساليب جديدة تختلف عن التي جئت بها. كما أنني لا أجبر غيري من النقاد على إتباع أساليبي وطرائقي التي عبرت عنها في سالف السطور والصفحات، وتحديدًا في معرض شرحي لكيفية تفسير العلامات الجغرافية.

لا توجد هناك ضوابط أو معايير محددة، تلزم الناقد بإتباعها عند قيامه بإجراء عملية التفسير للعلامات الجغرافية. ولكن تعود للناقد الحرية المطلقة في اختيار الأساليب والطرائق التي تناسبه، كي يستخدمها عند إجرائه لعملية التفسير للعلامات الجغرافية.

أما الأساليب والطرائق التي ذكرتها بالتحديد، فتبقى بمثابة اقتراحات واجتهادات تعبر عن وجهة نظري ورؤيتي الخاصة، أقدمها للناقد الجغرافي وأنصحه بها، كي يأخذ بها ويحقق من خلال تطبيقها، تفسيرًا مثاليًا متكاملًا للعلامات الجغرافية المتواجدة في هذا النص أو ذاك.

أثر المؤلف

لا يمكننا أن نعتبر كل تحليل جغرافي لنص أدبي معين لا يأخذ بأثر المؤلف، على أنه تحليل جغرافي مغلوط أو خاطئ. فإذا أراد الناقد أن يركز كل اهتمامه في النص دون إعطاء أي قدر من الاهتمام بالمؤلف أو الكاتب. فهو مطلق الحرية في ذلك، ولرأيه كل التقدير والاحترام.

أما إن أردتم الحديث عن كيفية التحليل الجغرافي المثالي والمتكامل لنصوص الأدب، كيف يكون. فحينئذ لا بد من التأكيد على أن هكذا تحليل، لا بد وأن يشتمل على اهتمام كاف من قبل الناقد، بأثر المؤلف.

تطرق الناقد الجغرافي إلى أثر أو تأثير المؤلف أو الكاتب، يكون من خلال تسليطه الضوء على علاقة هذا المؤلف أو ذاك بالنص الذي كتبه، وأيضًا على مدى تأثر النص بأسلوب وشخصية المؤلف. تطرق الناقد الجغرافي إلى علاقة المؤلف بالنص الذي يكتبه ذلك المؤلف، يعد أمرًا في غاية الأهمية، خصوصًا وأن علاقة المؤلف بنصه في كثير من الأحيان وكثير من المواضع تتجاوز كونها علاقة كاتب بما كتب أو مؤلف بما ألف.

فنظرية التحليل الجغرافي تستهدف في الغالب نصوص الأدب الجغرافي وأدب الرحلات والروبنسونات، وغيرها من النصوص التي تحتوي أحداثها على مبالغة واضحة في السرد الجغرافي وذكر الأماكن، والمتمثلين بدورهما في العلامات الجغرافية بأنواعها وتصنيفاتها المختلفة. وكنتيجة طبيعية لتغطية نظرية التحليل الجغرافي لنصوص من هكذا أصناف وأنواع، فالمحلل لهكذا نصوص سيجد نفسه على إطلاع مستمر على أنشطة سفر، وارتحال، ومغامرة، واستكشاف. والمذهل حقًا أن المؤلف في كثير من هذه النصوص يتجاوز دوره كمؤلف وحسب، لكونه علاوة على ذلك إما بحارًا، أو مغامرًا، أو رحالة، أو مستكشف معايش للأحداث التي يكتبها عن كثب وتجربة.

إذًا في سائر النصوص الأدبية التي تصلح لتطبيق نظرية التحليل الجغرافي للأدب، تأخذ علاقة المؤلف بالنص نوعين أو شكلين من العلاقات:

١) مؤلف علاقته بالنص أنه مؤلف فحسب.

٢) مؤلف يتجاوز كونه مؤلف فحسب، لتواجده شخصيًا في مسرح الأحداث وفي مهدها الحقيقي، قبل أن تصير وتصاغ لاحقًا لتصبح نصًا أدبيًا، وذلك كونه بحارًا، أو تاجرًا، أو مستكشفًا، أو مغامرًا ونحو ذلك.

المؤلف من النوع الأول يعتمد في تأليفه وكتابته على ما يأخذه عن الآخرين من قصص وأحداث واقعية وحقيقية حدثت بالفعل، أو ما يمليه عليه ذهنه السارح في الخيال. أما المؤلف

المنتمي إلى النوع الثاني فهو يعتمد في تأليفه وكتابته على تجاربه الشخصية والتي يخوضها بنفسه. فكم من تاجر دون تفاصيل رحلته وسفره. وكم من بحار أو قبطان أو نحو ذلك، دون مشاهداته والقصص الواقعية التي خاضها بذاته وهو فوق السفينة أو في جسمها، ومن حوله المياه الزرقاء تنتشر على مد البصر. وكم من مغامر دون أحداث مغامراته الجنونية وما فيها من أحداث شيقة ومثيرة. وكم من مستكشف دون ملاحظاته واستنتاجاته المذهلة، حول الحضارات والثقافات الغريبة، والقبائل والشعوب النائية البعيدة...إذًا فالمادة الأدبية التي يستخدمها مؤلفي وكتاب النوع الأول، هي مادة مستعارة ومأخوذة عن الغير. أما مؤلفي وكتاب النوع الثاني فينتجون المادة الأدبية بأنفسهم، تمامًا كإنتاجهم للنص في مراحل متقدمة بعد ذلك.

وللحديث عن وصف آخر للفرق بين كلا النوعين من المؤلفين. يمكننا القول أن مؤلفي النوع الأول يكتبون عن الأشياء التي يسمعون عنها، أو يمليها عليهم خيالهم الإبداعي فقط. أما مؤلفي النوع الثاني فيكتبون عن الأشياء التي يدركونها بحضورهم الشخصي، ويرونها بأم أعينهم حين حدوثها. وبالتالي فإن علاقة مؤلفي النوع الثاني بنصوصهم تبدو أوثق وأقوى بكثير، من علاقة مؤلفي النوع الأول بنصوصهم.

مما لا شك فيه، أن فرصة الناقد الجغرافي في التطرق لأثر المؤلف تكون قوية وقوية جدًا، في حالة النصوص وثيقة وقوية الصلة بمؤلفيها (النوع الثاني من المؤلفين). وعلى العكس تمامًا من ذلك، في حالة النصوص التي لا يظهر لمؤلفيها أثر كبير فيها (النوع الأول من المؤلفين)، ففي هكذا نصوص لا يجد الناقد الجغرافي الشيء الكثير، ليقوله أو يكتبه عن أثر أو تأثير المؤلف.

لكن في كلا الناحيتين وفي كلا الحالتين، يظل الناقد الجغرافي مطالبًا بالتطرق عند تحليله لنصوص الأدب المختلفة إلى أثر المؤلف، لما لذلك من فائدة عظيمة تساعد الناقد على فهم الظواهر أو العلامات الجغرافية الواردة في النصوص المختلفة، وبالتالي تحليلها وتفسيرها على النحو الأمثل.

والناقد الجغرافي النشيط ، لا يكتفي بمتابعة أثر المؤلف في نصه المقصود بالتحليل الجغرافي فحسب، بل يطارد ذلك المؤلف إلى خارج النص، بحيث يسعى لأخذ فكرة عن نصوصه وأعماله الأدبية الأخرى، وقد يصل به الأمر إلى أن يمر على السيرة الذاتية لذلك المؤلف. فأخذ الناقد لفكرة عن نصوص وأعمال المؤلف والمرور على سيرته بشيء من الإطلاع والبحث، يساعدان الناقد بالتأكيد على فهم شخصية وأسلوب المؤلف عمومًا، وهذا في نهاية المطاف يساعد الناقد على فهم النص الذي يحلله تحليلًا جغرافيًا.

ملاحظات

بعد الشرح المفصل والدقيق الذي قدمناه للفرضيات الأربع التي تتكون منها نظرية التحليل الجغرافي للأدب. لا بد من توضيح بعض المسائل التي قد تسبب لبس أو سوء استيعاب عند الناقد أو المحلل الجغرافي، سواء عند فهمه لهذه الفرضيات، أو عند تطبيقه لها على نصوص الأدب المستهدفة بالنقد والتحليل.

ولأن فرضيات النظرية قد جاءت مبنية على بعضها البعض، في سلسلة تراتبية ورياضية، وجاءت لتتناول جزئيات دقيقة وعميقة في تكوينات النصوص الأدبية. فمن شأن كل هذا أن يحدث نوعًا من اللبس وسوء الفهم وبالتالي سوء التطبيق، عند النقاد الجغرافيين اللذين تفوتهم فرصة فهم فرضيات النظرية على النحو الأمثل.

لذلك وقبل مبارحة هذا الفصل إلى غيره من الفصول، كان لا بد من تعزيز الشروحات السابقة الخاصة بفرضيات النظرية بالعديد من الملاحظات التوضيحية. إذ تبدو الملاحظات على النحو التالي:

١) العلامات الجغرافية هي شتى أنواع البيانات أو المعلومات، التي تتجسد من خلالها معالم النفوذ الجغرافي والمساهمة الجغرافية في تكوين نص أدبي معين.

٢) فرضيات النظرية وفقًا لتسلسلها المنطقي وترتيبها الرياضي هي: كشف العلامات الجغرافية داخل النص الأدبي، ثم تصنيف هذه العلامات، ثم تفسيرها، ثم التطرق إلى أثر المؤلف من أجل تحقيق الفهم والتحليل الأمثل لهذه العلامات.

٣) التطبيق الأمثل لفرضيات نظرية التحليل الجغرافي يكون من خلال تطبيقها بالكلية، وتطبيقها وفقًا لتسلسلها الرياضي وترتيبها المنطقي، ففرضيات النظرية كما جرى الذكر من قبل، هي أقرب ما تكون إلى نمط الخطوات المرتبة منه إلى نمط الفرضيات العشوائية المبعثرة. ولكن ذلك لا يعني بالضرورة أن مخالفة هذه المعايير والقواعد يعد مخالفة لجوهر وروح النظرية. بالتأكيد لا فللناقد الأدبي الجغرافي كل الحق في التعاطي مع فرضيات النظرية وتطبيقها، بالشكل والأسلوب الذي يرغب به، ما دام ذلك لا يخرج عن الخطوط العريضة للنظرية، ولا يخالف مبادئها ورؤيتها العامة التي جاءت من أجلها.

علاوة على ذلك فإن واقع بعض النصوص الأدبية قد يفرض على الناقد الجغرافي مخالفة تراتبية وتسلسل وتكاملية فرضيات النظرية عند تطبيقه لها. ففي النصوص التي لا يكاد يلاحظ فيها أثر واضح للمؤلف، قد يجد الناقد نفسه مجبرًا على تجاهل التطرق لأثر المؤلف، عند تحليله لتلك النصوص. وأيضًا عند تحليل بعض النصوص الأدبية قد يشعر الناقد أحيانًا بالتثاقل حيال وجوب تفصيل أنواع العلامات، إلى ما هو مسمى جغرافي وما هو حدث جغرافي، وإلى ما هو مؤثر وما هو غير مؤثر. وذلك ما يدفع هكذا ناقد إلى تحليل النصوص الأدبية في غير التراتبية والتسلسلية والتكاملية المنشودة والمطلوبة.

٤) في بعض الأحيان قد يقف عامل توفير الوقت أو الجهد من قبل الناقد الجغرافي، حائلًا أو معيقًا في سبيل تطبيق الفرضيات بتراتبيتها وتكامليتها المنشودة، لكن لا بأس في ذلك ما دام الناقد متسقًا مع الرؤية والطرح العام للنظرية.

٥) للتفريق مرة أخرى بين كل من المسميات الجغرافية والأحداث الجغرافية. نقول أن المسميات الجغرافية تظهر في كافة أنواع نصوص الأدب بلا استثناء، وهي بارزة الحدود وواضحة الظهور داخل النصConcrete Concept. أما الأحداث الجغرافية فتظهر غالبًا في النصوص الجغرافية الطابع والنزعة بالتحديد، وليس من السهل رصدها وتحديد وجودها داخل النص كا المسميات، إذ تبدو غير واضحة الحدود، بحيث تكون بلا بدايات أو نهايات واضحة، فهي تنساب بين صفحات وسطور النص الأدبي بشكل مائع Liquid Concept ، لا يمكن الإمساك به بسهولة.

٦) من أجل توضيح الفرق مرة أخرى بين العلامات المؤثرة وغير المؤثرة، فلنتأمل المثال التالي:

((أحداث العمل الأدبي (س) تدور حول إبحار البطل (ص) من ساحل أنجولا إلى ساحل الأرجنتين. وكافة العلامات الجغرافية الواردة في هذا العمل أو النص الأدبي، تتعلق بتلك الرحلة التي قام بها البطل عبر الأطلسي من أنجولا وصولًا إلى الأرجنتين. لكن هناك علامة جغرافية واحدة وردت في العمل أو النص الأدبي بشأن قبرص، وأخرى بشأن الفلبين.

هنا حبكة هذا النص الأدبي ترتكز أساسًا على مسألة الارتحال والإبحار من أنجولا إلى الأرجنتين. لذلك فكل العلامات الجغرافية التي تتعلق بهذه الرحلة البحرية، تعتبر من جوهر النص وأساساته. وبالتالي فهي علامات مؤثرة، كونها تمس مسار الحبكة التي وجد من أجلها النص أو العمل الأدبي.

لكن في المقابل، إن حبكة هذا النص الأدبي ومجرياته الأساسية لا علاقة لها بقبرص ولا بالفلبين. لأن أيًا من أحداث النص لم تحدث فيهما، أو بجوارهما، وكذلك لم تنتم أي من شخصيات النص إليهما. فلم يزرهما البطل وليس لهما علاقة منطقية، أو جغرافية، أو مكانية برحلته من أنجولا إلى الأرجنتين. فالمسافر من أنجولا إلى الأرجنتين أو بالعكس، يستحيل

منطقيًا أن يمر بقبرص أو الفلبين. وإنما قد يكون البطل قد ذكرهما في هذا النص على سبيل الذكر فحسب. فعلى سبيل المثال ربما يكون البطل قد استرجع ذكرياته بشأنهما، فربما يكون قد وطأ سواحلهما بقدميه من قبل، أو ربما مر بجوارهما يومًا ما بسفينته، أو ربما يكون قد ذكرهما في سياق تطرقه إلى تجربة ما لزميل له في البحر، أو شيء آخر من هذا القبيل.

لذلك فغياب هاتين العلامتين الجغرافيتين (أي قبرص والفلبين) من حيث الأساس عن النص الأدبي، لا يؤثر إطلاقًا على المقصد العام للنص وحبكته[1]، وبالتالي فهكذا علامات نسميها علامات غير مؤثرة، وما سبق ذكره هو السبب في تسميتها بذلك)).

٧) تفسير العلامات الجغرافية، هي أكثر فرضيات نظرية التحليل الجغرافي للأدب تعبيرًا عن اسم وعنوان النظرية. فكلمتي تفسير وتحليل تعطيان نفس المعنى والمدلول تقريبًا. لذا ففرضية تفسير العلامات الجغرافية، تعد جوهر نظرية التحليل الجغرافي للأدب، وهي بمثابة الأساس والأصل فيها. أما دور الفرضيات الثلاث الأخرى، فهو التمهيد والتحضير والمساعدة لهذه الفرضية المركزية، والتي تعد الأكثر أهمية على صعيد النظرية ككل.

٨) للناقد الجغرافي[2] مطلق الحرية، في اختيار واستخدام الوسائل والطرق التي يرتئيها ويقتنع بها هو شخصيًا، عند قيامه بعملية التفسير للعلامات الجغرافية. لكن من أجل التيسير والتسهيل، أعيد الاقتراح الذي قدمته سابقًا. وهو أن طريقة الأسئلة هي الوسيلة أو الطريقة الأفضل، في حالة تفسير الأحداث الجغرافية. أما طريقة الترميز فهي الطريقة الأفضل، في حالة تفسير المسميات الجغرافية.

٩) الناقد الجغرافي الحاذق والمجتهد، هو الذي يتابع مؤلف النص المراد تحليله تحليلًا جغرافيًا، ليس داخل نصه فحسب، ولكن أيضًا خارج النص. وذلك من خلال الإطلاع والمرور على

(1) نفهم من ذلك أن الصبغة الجغرافية لنصوص الأدب (الجغرافية النزعة)، لا تتأثر في حالة عدم وجود العلامات غير المؤثرة، فالعلامات غير المؤثرة اسمها دال عليها. نعم هي بوجودها تثري النزعة الجغرافية للنص، لكن غيابها لا يؤثر بطبيعة الحال.

(2) أو الناقد الأدبي الجغرافي (كلتا الصيغتين صحيحتين).

السيرة الأدبية والإبداعية لهذا المؤلف، والإطلاع كذلك على أسلوبه، وعلى بعض النماذج من كتاباته ونصوصه الأخرى بقدر الإمكان.

١٠) ينبغي على الناقد الأدبي الجغرافي، أن يكون مطلعًا على الجغرافيا والمعلومات الجغرافية، بقدر لا يقل، أو لا يقل كثيرًا عن اطلاعه ودرايته في الأدب والمعلومات الأدبية. لذلك فالناقد الجغرافي النموذجي، هو الذي يطلع أثناء تحليله لنصوص الأدب المختلفة على الأطالس، وكتب الخرائط ، وكتب الجغرافيا. وذلك لكي يتعرف بدقة على ماهية وطبيعة وتفاصيل العلامات الجغرافية الواردة في النصوص التي يقوم بتحليلها، وكي يبني على ذلك ويصيغ تحليلات جغرافية صحيحة ودقيقة، لا تتعارض مع قواعد ومعلومات الجغرافيا كعلم.

إذًا فالناقد الجغرافي مطالب بالتثقف باستمرار في مجال الجغرافيا ومعلوماتها. ومطالب كذلك بالعودة إلى الأطالس، وكتب الخرائط، وكتب الجغرافيا المتخصصة، كلما دعت الحاجة إلى ذلك، أو كلما أراد التحقق والتعرف أكثر عما بين يديه من معلومات أو علامات جغرافية، ترد داخل النص الذي يقوم على تحليله.

١١) إطلاع الناقد الجغرافي على الأطالس، وكتب الخرائط، وكتب الجغرافيا، ورجوعه إليها باستمرار، يمكنه بسهولة من التفريق بين العلامات الجغرافية الحقيقية، والعلامات الجغرافية الخيالية التصورية. فعلى سبيل المثال، إذا رجع الناقد إلى الأطالس والكتب سالفة الذكر، ليبحث بداخلها عن علامة جغرافية مثل ليليبوت Lilliput، التي وردت في رواية رحلات غلفر Gulliver's Travels، فإنه سوف يجد أنها علامة لا وجود لها في الجغرافيا الحقيقية إطلاقًا، وإنما هي علامة جغرافية خيالية تمامًا، لا تمت للواقع بصله. وفي المقابل إذا ما رجع الناقد إلى الأطالس والكتب ليبحث بداخلها عن علامة جغرافية مثل قسنطينة، التي وردت في رواية ذاكرة الجسد، فإنه سوف يجد أنها علامة حقيقية، ولها وجود فعلي ومثبت في الأطالس وكتب الجغرافيا المختلفة.

١٢) الناقد الأدبي الجغرافي الملم جيدًا بعلم الجغرافيا والمعلومات الجغرافية، يكون مؤهلًا وبشكل كبير لتدقيق المعلومات أو العلامات الجغرافية الواردة في النص الماثل أمامه. أي باستطاعة هكذا ناقد أن يكشف وأن يرصد المواضع، التي قد يقدم فيها المؤلف معلومات جغرافية خاطئة ومغلوطة.

نعم، المؤلف قد يقدم في نص ما، معلومة جغرافية خاطئة ومجانبة تمامًا للصواب، ودور الناقد الجغرافي ها هنا هو ألا يقف متفرجًا، وإنما أن يبين تلك المعلومة الخاطئة وأن يصححها، وذلك في إطار تقديمه للتحليل الجغرافي للنص الذي توجد به هذه المعلومة أو العلامة.

من أبرز الأمثلة الدالة على قيام المؤلف بتقديم علامات أو معلومات جغرافية خاطئة في أحد نصوصه، هو ما قام به وليام شكسبير **William Shakespeare**، عندما قدم بوهيميا[1] في مسرحيته حكاية الشتاء **Winter's Tale** على أنها دولة ساحلية. بينما هي في الحقيقة تعتبر دولة حبيسة، بعيدة كل البعد عن أقرب البحار إليها، ليس لها أية سواحل، تقع في قلب أوروبا، واليابسة تحفها من كل جانب.

(1) دولة قديمة كانت تقع في قلب أوروبا، وفي عصرنا هذا قامت على أنقاضها، ما تعرف اليوم بجمهورية التشيك.

الفصل الثالث: الفرق بين النظرية وعنصر المكان.

- ماهية عنصر المكان.
- النظرية وعنصر المكان.
- دور عنصر المكان في تطبيق النظرية.

ماهية عنصر المكان

يمكننا تعريف عنصر المكان على أنه (هو المكان أو مجموعة الأماكن التي دارت فيه أو فيها الأحداث الخاصة بعمل أدبي معين). فرواية مثل موسم الهجرة إلى الشمال دارت أحداثها في السودان ومصر وبريطانيا، ورواية أخرى مثل العجوز والبحر The Old Man and the Sea دارت أحداثها في منطقة ساحلية ما في كوبا.

تعرف الناقد على معطيات عنصر المكان الخاص بعمل أدبي معين، يعد أمرًا في غاية السهولة، إذ كل ما ينبغي على ذلك الناقد فعله، هو أن يسأل نفسه سؤال مختصر وبسيط، وهو:

- أين وقعت أحداث هذا العمل الأدبي؟.

ومن خلال قراءة الناقد للعمل الأدبي وغربلته لأحداثه، سيجيب بنفسه على هذا السؤال. وستكون لحوى إجابته بالتأكيد، هي تحديد وحصر معطيات عنصر المكان الخاص بالنص أو العمل الأدبي، الذي جرى السؤال عنه.

المتابع والمراقب جيدًا للحالة الأدبية ونصوص الأدب، يجد أن عنصر المكان يقوم بدورين أو مهمتين مختلفتين تمام الاختلاف. الدور أو المهمة الأولى هي أن عنصر المكان يعد من المكونات الرئيسية التي يقوم على أكتافها أي نص أدبي كان. أي أن النص الأدبي لا يقوم ولا ينشأ إطلاقًا في حالة غياب عنصر المكان عن بنية وتكوين هذا النص.

عنصر المكان كما ذكرنا آنفًا في التعريف، هو المكان أو الأماكن التي تدور فوق بقعتها الجغرافية أحداث العمل أو النص الأدبي. هل لكم أن تتخيلوا نص أدبي بلا أماكن؟. وكيف سيكون هناك وجود للأحداث في النص من حيث الأساس، في حالة غياب الأماكن؟. أم هل ستدور تلك الأحداث في الفضاء؟!.

بالتأكيد يستحيل أن يوجد نص أدبي بلا أماكن تستضيف أحداث هذا النص. حتى نصوص الأدب الخيالية والخرافية كما ذكرنا من قبل، يوجد بها أماكن، وبالتالي ليس بمقدورها الاستغناء عن عنصر المكان هي أيضًا. إذ يعد عنصر المكان أحد أهم صنوف المواد الخام التي يستخدمها الكاتب أو المؤلف، في كتابته وصناعته للنص الأدبي. فكما ذكرنا، يعد عنصر المكان مكونًا أساسيًا من مكونات النص الأدبي، ولا يقل شأن دوره وقيمته عن بقية مكونات النص الأدبي الأخرى كالشخصيات، واللغة، والحبكة، والثيمة، وغيرها.

المهمة أو الدور الثاني لعنصر المكان، هو أنه يعد أحد أهم آليات ووسائل ومعايير نقد وتفسير وتحليل نصوص الأدب. ولا يعتبر عنصر المكان كأحد أفضل وسائل أو طرق نقد النصوص الأدبية من فراغ، بالطبع لا ولكن لأنه يعد أحد أهم مكونات تأسيس وبناء هذه النصوص من حيث الأساس. وقد ذكرنا في مقتبل هذا الكتاب، أن أفضل من ينقد النص الأدبي، هو المكون والمشارك في تأسيس وبناء هذا النص.

إذًا كما قلنا أن عنصر المكان هو أحد المواد الخ ، أو مواد البناء التي يستخدمها المؤلف في بناء وتشييد نصه، نقول أن عنصر المكان هو أيضًا أحد المواد الخام أو مواد البناء التي يستخدمها الناقد في بناء وتشييد نقده.

أي أن أرنست همنجواي Ernest Hemingway عندما كتب روايته العجوز والبحر، استخدم عنصر المكان (والمتمثل في تلك الرواية في مواضع من الساحل الكوبي والمياه الكوبية)، كمكون رئيسي وأساسي، من المكونات التي بنا وشيد بها نصه. وجاءوا من بعده النقاد لينقدوا ويحللوا روايته، مستخدمين ذات عنصر المكان الخاص بتلك الرواية، ولكن هذه المرة كأداة أو وسيلة لفهم النص ونقده وتحليله.

خلاصة القول هي أن عنصر المكان يعد جزءًا أساسيًا من تكوين النص الأدبي، وكذلك من تكوين النقد الخاص بذلك النص. يعنى به كلًا من المؤلف والناقد على حد سواء، كما ويبحث

عنه القارئ أو المتذوق للنص، ويتحسس وجوده بين نقوش النص بشغف، كونه يحقق له الوصول إلى مرحلة شعورية متقدمة، تفتح أمامه أفق رحب من التخييل والتأمل، وتجعله يعيش جو النص في بيئته الحقيقية وبين شخصياته، وكأنه أحد هذه الشخصيات.

نحن في هذا الفصل لسنا بوارد التطرق إلى عنصر المكان (كأحد مكونات النص الأدبي)، بل ما يعنينا بالأساس هو التطرق إلى عنصر المكان (كأحد آليات وطرق نقد وتحليل النص الأدبي). فكل ما يعنينا ها هنا هو توضيح العلاقة بين عنصر المكان (الخاص بالنقد) وليس (الخاص بتكوين الأدب)، مع نظرية التحليل الجغرافي للأدب، والتي هي في النهاية تعد وتعتبر أحد إفرازات الغدة المسماة (النقد الأدبي)

النظرية وعنصر المكان

الناظر إلى نظريتي، نظرية التحليل الجغرافي للأدب، ربما يظن أنها قد جاءت كتقليد ومحاكاة لمفهوم عنصر المكان، والذي سبق شرحه بالقدر الوافي والكافي. كل من يراوده ذلك الظن أو الاعتقاد فهو بالتأكيد لا يلام، وإنما معه كل الحق في إطلاق هكذا ظن أو اعتقاد. فالتشابه بين نظرية التحليل الجغرافي للأدب وعنصر المكان، يبدو تشابهًا كبير وكبير جدًا.

عندما تحدثنا عن عنصر المكان، ذكرنا أنه يستهدف الأماكن والمواقع الجغرافية في النص الأدبي، وعندما تحدثنا عن نظرية التحليل الجغرافي، ذكرنا أيضًا أنها تستهدف الأماكن والمواقع الجغرافية في نصوص الأدب المختلفة. إذًا كلا المفهومين النقديين يدوران في فلك الجغرافيا.

الكلمة المفتاحية السائدة والمهيمنة، عند كلا المفهومين النقديين هي كلمة (أين). فكلًا من الناقد الباحث عن معطيات عنصر المكان في نصه، والناقد المطبق لنظرية التحليل الجغرافي على نصه، يسألان نفس السؤال، ألا وهو:

- أين وقعت أحداث هذا النص الأدبي؟.

من المعلوم لغويًا أن كلمة (أين) تعد كلمة سؤالية استفهامية، تأتي على الدوام وفي كل الأحوال وبلا استثناءات، بإجابات جغرافية الطابع، ولو على نطاق ضيق جدًا من المواقع والأماكن المحدودة الأبعاد كالمنزل، والشارع، والسوق، والسينما، وهكذا. إذًا كلمة (أين) في النهاية تحقق المبتغى الذي ينشده كلا المفهومين النقديين، ألا وهو البحث عن الجغرافيا والبيانات الجغرافية المكانية في ثنايا النص.

تحدثنا عن وجود تشابه، لكن لا يمكننا الحديث عن وجود تطابق بين نظرية التحليل الجغرافي للأدب وعنصر المكان. فالعلاقة بين كليهما هي علاقة الشيء بالشيء الأشمل منه، أو الشيء بالشيء الأكبر منه. وما أقصده هنا بالتحديد، هو أن مفهوم نظرية التحليل الجغرافي وبلا شك، هو أكبر وأعم وأشمل من مفهوم عنصر المكان بمعناه النقدي. وذلك كون عنصر المكان لا يغطي ببحثه وتقصيه سوى جزئية بسيطة من البحث والتقصي الجغرافي، تغطيها نظرية التحليل الجغرافي من خلال فرضية واحدة من فرضياتها الأربع أو حتى بأقل من ذلك. فمهمة تقصي عنصر المكان لا تهتم بالبحث عن المسميات الجغرافية كما تفعل النظرية، ولا تصنف العلامات الجغرافية وذلك كون علاماتها أصلًا من جنس أو صنف واحد، ولا تفسر العلامات الجغرافية على النحو الذي تؤديه النظرية، ولا تلقي بالًا لأثر المؤلف من أجل تحقيق فهم أفضل للعلامات الجغرافية ونقدها وتحليلها.

يمكننا القول باختصار، أن مهمة تقصي الناقد لعنصر المكان، تقتصر فقط على البحث عن الأماكن الجغرافية التي دارت فوقها أحداث النص الأدبي. وفي الغالب لا يذهب نقاد عنصر المكان إلى استخلاص وتحديد كافة الأماكن الجغرافية داخل النص، وإنما يركزوا اهتمامهم على ذكر الأماكن الأكثر أهمية ومركزية. وبالطبع لا يخوضوا في تفسير وتحليل هذه الأماكن على ذات النحو العميق والدقيق الذي تقوم به النظرية.

غالبًا ما يتم تناول عنصر المكان من قبل النقاد في إطار عام وشامل، أشبه ما يكون ببوتقة نقدية، تجمعه مع غيره من العناصر الأخرى كالشخصيات، واللغة، والأسلوب، والرمزية، وغيرها. لذلك يندر قيام الناقد في نقده بتناول عنصر المكان بمعزل عن بقية العناصر الأخرى، والتي بدورها تشاركه مهمتي بناء النص الأدبي ونقده. إذًا مهمة تقصي وتحديد عنصر المكان في النص الأدبي، غالبًا ما تكون مترافقة مع غيرها من المهمات النقدية الأخرى. أما نظرية التحليل الجغرافي فهي عبارة عن منظومة نقدية وتحليلية متكاملة، غالبًا ما يطبقها الناقد على النص لوحدها فقط ، وفي معزل عن أي مهمات نقدية أخرى قد ترافقها أو ترتبط بها.

مهمة نقد وتحليل عنصر المكان لا ترقى لكونها نظرية، وإنما يجوز اعتبارها كمفصل من مفاصل نظرية أكبر منها حجمًا. أما نظرية التحليل الجغرافي فهي بحد ذاتها نظرية، وليست كأي نظرية، بل نظرية متكاملة المضمون ومتجانسة القوام.

بإمكان عنصر المكان (النقدي) أن يتواجد في سائر نصوص الأدب، لأن وجوده يكون متوقف دومًا على وجود عنصر المكان (البنائي التكويني)، الذي يسبقه في التواجد في النص. عنصر المكان (البنائي التكويني) يتواجد بدوره في سائر نصوص الأدب بلا استثناء، فكما ذكرنا آنفًا، يستحيل أن ينشأ أو يخلق نص أدبي بلا وجود لعنصر المكان، والمتمثل في المواقع الجغرافية والأماكن التي تدور فوق بقعتها الأحداث.

لذلك فالناقد الساعي لمعرفة وتحديد ونقد عنصر المكان الخاص بنص أدبي معين، يمكنه أن يجد ضالته تلك ليس في نصه فحسب، بل في كافة نصوص الأدب وبلا استثناء، لأن نصوص الأدب بكافة أنواعها وصنوفها لا تخلو أبدًا من تواجد عنصر المكان فيها. فوجود عنصر المكان فيها، هو شيء من المسلمات.

أما نظرية التحليل الجغرافي للأدب فتختلف تمامًا عن عنصر المكان، إذ لا يمكن تطبيقها على سائر نصوص الأدب. بل باستطاعة الناقد الأدبي الجغرافي أن يطبق تلك النظرية، فقط على

النصوص ذات السمة أو النزعة الجغرافية الواضحة، وهي النصوص التي يصل محتوى العلامات الجغرافية أو المشاركة الجغرافية بداخلها، إلى حد أو درجة المبالغة الجغرافية.

إذًا أسباب ودواعي ومتطلبات البحث والتقصي عن عنصر المكان ونقده وتحليله، متواجدة في كافة نصوص الأدب بلا استثناء. أما أسباب ودواعي ومتطلبات تطبيق نظرية التحليل الجغرافي للأدب، فلا توجد إلا في تلك النصوص التي تصل المشاركة الجغرافية فيها، إلى حد أو درجة المبالغة الجغرافية، والتي سنتناولها بالبحث المستفيض في قادم الشروحات.

دور عنصر المكان في تطبيق النظرية

عنصر المكان (النقدي بالتأكيد) يلعب دورًا هامًا ومركزيًا في تحديد وتعيين النصوص الأدبية المؤهلة والمناسبة لتطبيق نظرية التحليل الجغرافي للأدب. عنصر المكان هو بمثابة البوصلة التي تهتدي بها سفينة الناقد المبحرة في بحر النص الأدبي. فمن خلال معاينته لعنصر المكان الخاص بنص أدبي معين، يستطيع الناقد الجغرافي أن يحكم ويقرر إذا ما كان هذا النص الأدبي صالحًا لتطبيق نظرية التحليل الجغرافي أم لا. فقد اتفقنا آنفًا على شيئين لا بد من التذكير بهما. أولًا أن عنصر المكان هو بمثابة عملية مسح جغرافي Geographical Survey للمواقع والأماكن الجغرافية التي دارت فوقها أحداث النص الأدبي. وثانيًا أن تطبيق نظرية التحليل الجغرافي لا يتم إلا على النصوص التي وصلت إلى درجة المبالغة الجغرافية. وبناءًا على ما سبق ذكره في أولًا وثانيًا، نقول أن الناقد وفي الوضع الطبيعي والبديهي سوف يلجأ إلى معرفة معطيات عنصر المكان الخاص بالنص المراد تحليله، وذلك كي يطلع على كم ومقدار الأماكن والمواقع الجغرافية الواردة في ذلك النص. وبناءًا على معاينة الناقد لمعطيات عنصر المكان، سوف يكون بإمكانه حينئذ أن يأخذ فكرة عن مستوى المشاركة الجغرافية في النص، أي إذا ما ارتقت تلك المشاركة

إلى مستوى المبالغة الجغرافية أم لم ترتق. وبعدئذ سيكون بمقدور الناقد تحديد إمكانية أهلية النص لتطبيق النظرية من عدمها.

تحدثنا كثيرًا عن المبالغة الجغرافية، وقد حان الوقت للحديث عنها بشيء من الشرح والتفصيل. المبالغة الجغرافية هي عبارة عن مرحلة أو درجة تخيلية، لا وجود لها في الحقيقة، تمامًا كدائرة الاستواء وخط الفقر. عندما تصل النصوص الأدبية إلى هذه المرحلة أو الدرجة، فإنها تصير مؤهلة لتطبيق نظرية التحليل الجغرافي للأدب.

كما ذكرنا من قبل، فإن الجغرافيا تعد من المكونات الأساسية التي يتألف منها النص الأدبي، وبالتالي فإن وجود الجغرافيا ومساهمتها في خلق وتكوين سائر نصوص الأدب هو أمر طبيعي. لكن مقدار التواجد الجغرافي أو المشاركة الجغرافية داخل نصوص الأدب يختلف من نص إلى آخر، فهناك نصوص توجد بها العلامات الجغرافية بمقدار ضئيل، وهناك نصوص توجد بها العلامات الجغرافية بمقدار معقول، وهناك نصوص توجد بها العلامات الجغرافية بمقدار كبير.

المبالغة الجغرافية تعني، أن يكون ظهور العلامات الجغرافية في نص أدبي ما مبالغًا فيه، وزائدًا عن الحد الطبيعي. والمبالغة الجغرافية تعني أيضًا، أن تكون المساهمات الجغرافية في نص أدبي ما زائدة عن غيرها من المساهمات الأخرى، بحيث تكون لها الغلبة والهيمنة الواضحة على حبكة ومجريات ذلك النص.

من أجل التوضيح أكثر، أعتقد بأن النص الأدبي يصل إلى مرحلة أو درجة المبالغة الجغرافية، عندما يتنقل مسرح الأحداث الخاص بهذا النص بين ثلاثة بلدان فأكثر. أي أن النص الأدبي الذي تدور أحداثه في ثلاثة بلدان فأكثر، يكون بذلك قد وصل إلى درجة المبالغة الجغرافية، والتي بدورها تعتبر تأشيرة دخول هذا النص إلى عالم تطبيق نظرية التحليل الجغرافي للأدب. فرواية مثل روبنسون كروزو Robinson Crusoe تحقق الوصول إلى هذه المرحلة أو الدرجة بأريحية تامة. كيف لا وأحداث تلك الرواية دارت فيما يزيد عن ستة بلدان مختلفة.

أما رواية أوليفر تويست Oliver Twistفلا تحقق الوصول إلى هذه الدرجة أو المرحلة، كون مسرح الأحداث الخاص بهذه الرواية لم ينتقل ولو لمرة واحدة خارج نطاق الجزر البريطانية.

لا يمكن للناقد الجغرافي أن يعتمد على عنصر المكان (النقدي) فحسب، في تقصيه لمدى صلاحية عمل أدبي معين لتطبيق نظرية التحليل الجغرافي. لأن عنصر المكان في ذلك العمل الأدبي، قد لا يعطي الناقد صورة كاملة ومتضحة تمام الوضوح، حول الحالة الجغرافية لذلك العمل الأدبي. وذلك كما ذكرنا آنفًا، كون عنصر المكان (النقدي بالطبع) يتسم بالسطحية في كثير من الأحيان. لذلك يتوجب على الناقد أن يتعرف على ذلك العمل الأدبي أو ذلك النص الأدبي، من خلال طرق أخرى تكميلية لعنصر المكان، كمطالعة النص بالقراءة السريعة، أو قراءة ملخص له، أو المرور على خطوطه العريضة وحبكته. لأن من شأن ذلك أن يتيح للناقد رؤية واطلاع أفضل، على المحتوى الجغرافي الخاص بالعمل أو النص الأدبي.

من خلال دراسة الناقد للنص الماثل أمامه، سواء أكانت تلك الدراسة تتم عبر استكشافه لمعطيات عنصر المكان الخاص بذلك النص، أو عبر استكشافه للنص من خلال وسائل أخرى. بإمكان ذلك الناقد أن يجد حالات أخرى، تصل فيها نصوص الأدب إلى مرحلة أو درجة المبالغة الجغرافية، وذلك بدون أن يتنقل مسرح الأحداث فيها بين ثلاثة بلدان فأكثر. وذلك في نصوص الأدب التي تكون أحداثها غنية بالأنشطة والممارسات الجغرافية وكذلك الأحداث الجغرافية.

فمثلًا رواية أمير الذباب Lord of the Flies تصل بفضل العلامات الجغرافية الغزيرة فيها، إلى مرحلة المبالغة الجغرافية، رغم أن أي من أحداث هذه الرواية لم يبرح تلك الجزيرة النائية في المحيط.

نوع آخر من الأعمال أو النصوص الأدبية، ربما تدور جميع أحداثها في بلد أو دولة واحدة، ولكنها بالرغم من ذلك تحقق الوصول إلى درجة المبالغة الجغرافية، وذلك كونها تحتوي على عدد

كبير من الأماكن والمواقع الجغرافية المحلية أو الداخلية (المدن ونحوها). أي أن أحداث ذلك النوع من النصوص قد لا تخرج خارج حدود الدولة الواحدة، ولكنها تتفرق وتتوزع على عدد كبير من الأماكن والمواقع الجغرافية الأهلية أو المحلية (المدن ونحوها).

إذًا لدينا ثلاث حالات، تصل من خلالها النصوص الأدبية إلى مرحلة أو درجة المبالغة الجغرافية. إذ تبدو الحالات الثلاث على النحو التالي:

١) في حالة نصوص الأدب التي تدور أحداثها في ثلاثة بلدان فأكثر.

٢) في حالة نصوص الأدب التي تحتوي على كم كبير من العلامات والأحداث والممارسات الجغرافية، بغض النظر عن عدد الدول أو البلدان، التي تدور فيها أحداث كل من هذه النصوص.

٣) في حالة نصوص الأدب التي تدور أحداثها في عدد كبير من الأماكن والمواقع الجغرافية المحلية (المدن ونحوها)، بغض النظر عن عدد الدول أو البلدان، التي تدور فيها أحداث كل من هذه النصوص.

بعض نصوص الأدب قد تنطبق عليها مواصفات حالتين من هذه الحالات، أو ربما ثلاثتها معًا. رواية مثل روبنسون كروزو تنطبق عليها المواصفات الواردة في الحالات الثلاث، فأحداث تلك الرواية كما سنرى لاحقًا في سياق الشرح والتفصيل، تنقلت بين عدد كبير من البلدان والمدن، كما وتحتوي أحداثها على عدد هائل من العلامات الجغرافية المتنوعة، وتحديدًا الأحداث والممارسات الجغرافية.

نفهم من جميع ما سبق، أن عنصر المكان هو أحد معايير القياس التي تمكن الناقد الجغرافي من معرفة حجم نفوذ الجغرافيا، داخل النص الذي يريد تحليله هذا الناقد. فبالرغم من سطحية عنصر المكان في الكثير من الأحيان، وبالرغم من عدم خوضه في تفاصيل وعمق المحتوى الجغرافي

للنص الأدبي، إلا أنه وعلى كل حال يعطي الناقد رؤية ولو بسيطة، حول المكنونات الجغرافية لذلك النص.

لذلك يتوجب على الناقد الجغرافي أن يأخذ عنصر المكان بعين الاعتبار، وذلك قبل إقدامه على تحليل أي نص أدبي كان. لما لذلك من فائدة كبيرة تعود بالتأكيد على الناقد وتيسر له مهمته التحليلية النقدية. فإطلاع الناقد الجغرافي على معطيات عنصر المكان الخاص بنص أدبي معين، يسهل عليه كثيرًا مهمة تحليل هذا النص، إن كان هذا النص يصلح من حيث الأساس لتطبيق نظرية التحليل الجغرافي للأدب.

فعلى سبيل المثال إذا أراد ناقد جغرافي ما، أن يبحث في إمكانية تطبيق النظرية على رواية فرانز كافكا Franz Kafka المحاكمة The Trial، يتوجب على هذا الناقد وقبل كل شيء، أن يبحث عن نتائج ومخرجات بحث النقاد، الذين بحثوا من قبله عن معطيات وبيانات عنصر المكان الخاص بهذه الرواية. فمن شأن ذلك أن يساعده على تحديد موقف الرواية من النظرية وتطبيقها.

الباب الثالث: تطبيق النظرية.

* الفصل الأول: التعريف بالرواية (روبنسون كروزو).
* الفصل الثاني: تطبيق النظرية على نص الرواية.
* الفصل الثالث: مواضع وحالات تطبيق النظرية.

الفصل الأول: التعريف بالرواية (روبنسون كروزو).

- لماذا روبنسون كروزو بالتحديد ؟.
- وصف الرواية.
- مجريات الرواية.

لماذا روبنسون كروزو بالتحديد؟

أي شخص لم يطلع على فرضيات نظرية التحليل الجغرافي التي شرحناها آنفًا، ولم يلم بتفاصيل وأحداث ومجريات رواية روبنسون كروزو، من حقه أن يطرح هذا السؤال، إذ يبدو سؤالًا منطقيًا في هذه الحالة وبلا شك. فلماذا روبنسون كروزو دون غيره من نصوص الأدب؟، ولماذا هذه الرواية بالتحديد؟.

اخترت هذا النص بالتحديد، ليكون أول نص أدبي تطبق عليه نظريتي، نظرية التحليل الجغرافي للأدب، وذلك للأسباب التالية:

١) كون روبنسون كروزو رواية شهيرة، ذائعة الصيت، عالمية الانتشار.

٢) كونها رواية بسيطة التكوين وخالية من التعقيد.

٣) يفهمها القارئ أو المتذوق ويستوعبها بيسر وسهولة.

٤) كونها غنية بالجغرافيا الحقيقية الخالية من التخييل (أي غناها بالمعلومات الجغرافية الحقيقية المثبتة في علم الجغرافيا).

٥) لأن مسرح الأحداث الخاص بهذه الرواية، طاف بعدد كبير من الدول والمدن والأماكن الأخرى المختلفة.

٦) كونها غنية بل ثرية بالعلامات الجغرافية المتنوعة.

في الحقيقة هناك عدد كبير وهائل من نصوص الأدب المختلفة الجنسيات، تبدو مناسبة ومؤهلة لتطبيق نظرية التحليل الجغرافي للأدب. لكنني آثرت أن يكون روبنسون كروزو هو أول نص أدبي تطبق عليه النظرية. وذلك لثقتي الراسخة في أن هذا النص بالتحديد، سيحقق البداية الأفضل والأنسب والأقوى لتطبيقات النظرية على النصوص الأدبية. فتطبيق أي

نظرية أدبية على أول نص أدبي تطبق عليه هذه النظرية، يعد أمرًا حساسًا وبلا شك، كون ذلك التطبيق هو الذي سيروج للنظرية، وسيكشف مدى نجاحها أو إخفاقها، مدى قوتها أو ضعفها. أي باختصار شديد نقول أن تطبيق النظرية على النص الأول سيترك انطباعًا مبدئيًا First Impression عند النقاد والمتذوقين بشأن هذه النظرية ومدى أدائها وقوتها. لذلك فلا بد أن يكون أداء النظرية قويًا ومميزًا في أول تطبيق لها على نصوص الأدب. ويشترط في أول نص أدبي تطبق عليه تلك النظرية، أن يكون ذات مواصفات معيارية مثالية، تمكنه أن يكون واجهة مشرفة، تعرض من خلالها النظرية بشكل بهي ورائع.

كما لاحظتم في البابين الفائتين، وكما لاحظتم في الفصول السابقة، فإن الحديث عن فرضيات النظرية يعد أمرًا مملًا وجافًا. فالحديث عن النظرية من الجانب النظري والمنهجي يكون عادة ذات صبغة فلسفية بحته، تخلو تمامًا من المتعة والتشويق. أما الجانب العملي التطبيقي للنظرية، والذي سوف نجده في قادم الفصول والصفحات، فسوف يلطف الأجواء، وسوف يريح القارئ بعض الشيء، من الفلسفات القاحلة الجرداء.

وبما أن روبنسون كروزو بالتحديد، هو النص الذي سوف تطبق عليه النظرية، فإن من شأن ذلك أن يحقق ويجلب المتعة والتشويق، واللذان ينشدهما القارئ بدوره أينما حل وأينما ذهب.

وصف الرواية

رواية روبنسون كروزو، تعد واحدة من أبرز وأهم التحف الأدبية، على مستوى سائر الآداب العالمية. وهي تعتبر أحد أهم أعمال الكاتب الإنجليزي دانيال ديفو Daniel Defoe. صدرت رواية روبنسون كروزو في العام ١٧١٩، ولذلك يرجح الكثيرين من النقاد ومؤرخي الأدب، أنها أحد أقدم الرواياتَ التي جاءت في تاريخ الأدب الإنجليزي. أي أن روبنسون كروزو بحسب

هؤلاء النقاد والمؤرخين، تعد إحدى الروايات الرائدة والأولى، في تاريخ الرواية الإنجليزية أو الأدب الإنجليزي عمومًا.

تصنف الرواية وبحسب كثيرين من النقاد والمحللين الأدبيين، على أنها تنتمي إلى أدب المغامرة، أو مغامرة البحر تحديدًا. والبعض يرجع انتماءها إلى أدب البيكاريسك Picaresque Literature [1]. وفي الحقيقة لا يوجد هناك اختلاف كبير بين كل من أدب المغامرة والبيكاريسك، فكلا الجنسين الأدبيين يحملان تقريبًا مزايا وخصال متشابهة. تنتمي الرواية كذلك إلى أدب الروبنسونات Robinsonades، كيف لا ورواية روبنسون كروزو هي حجر الزاوية، والنقطة التي انطلق منها ذلك الجنس الأدبي الراقي.

تعتبر الرواية والتي يناهز عمرها الثلاثمائة عام تقريبًا، أحد أروع وأمتع الروايات التي مرت على ذائقة قراء البشرية جمعاء. هذه الرواية الرائعة لا زالت تمسك بتلابيب الصدارة والريادة، وتؤكد مهما تقدم بها الزمن مدى تفوقها وأفضليتها على الكثير الكثير من الروايات المعاصرة، والتي إنما جاءت كتقليد ومحاكاة لتلك الرواية الساحرة روبنسون كروزو.

حازت روبنسون كروزو على استحسان القراء، كونها كما ذكرنا من قبل بسيطة التركيب، وسهلة اللغة، وعميقة الدلالة، وفائقة الإمتاع، وشديدة الإقناع، وعظيمة التأثير على مزاج القارئ أو المتذوق.

بعض النقاد والباحثين قد يشيرون إلى رواية روبنسون كروزو أو قد يصنفونها، على أنها موجهة للأطفال Child Literature. لكن هذا غير صحيح البتة، فالرواية موجهة للبالغين وللأطفال على حد سواء. إذ يمكننا تشبيه الرواية بالسهل الممتنع، حيث أن أحداث الرواية تعتبر سهلة وبسيطة وبالتالي فهي مناسبة وملائمة لفهم صغار السن والأطفال، لكنها في الوقت ذاته تحمل في طياتها دلالات أكبر من عقول الأطفال ومدى تفكيرهم.

(1) Abrams M. H : A Glossary of Literary Terms – Fourth Edition – Holt، Rinehart، and Winston – Texas 1993 – P 131.

فهكذا دلالات تحتاج إلى تفكير عميق واستنتاج وفهم دقيق، من قبل البالغين بالتحديد. كون الرواية تناسب كلًا من البالغين والأطفال على حد سواء، فهذا لا ينتقص البتة من مستواها ولا يقلل من قدرها، بل على العكس تمامًا فذلك ما يساهم في جعلها رواية شهيرة وناجحة، وذائعة الصيت عالميًا.

إذًا السهل الممتنع في الرواية يتمثل في كونها بسيطة وسهلة الظهور والحضور، ولكنها في المقابل عظيمة وعميقة الإيحاءات والدلالات.

تحتوي أحداث رواية روبنسون كروزو كما ذكرنا في مناسبات عديدة، على كم هائل جدًا من العلامات الجغرافية، والتي أسهبنا واسترسلنا كثيرًا في شرحها وذلك عندما تحدثنا عن فرضيات نظرية التحليل الجغرافي للأدب. تحتوي رواية روبنسون كروزو ليس على نوع واحد فحسب من أنواع العلامات الجغرافية، بل تحتوي على كافة أنواع العلامات الجغرافية.

القارئ لرواية روبنسون كروزو يمكنه أن يلاحظ بيسر وسهولة، أن الجغرافيا هي المكون الأكثر شيوعًا، والظاهرة الأكثر بروزًا في تلك الرواية. باختصار شديد يمكننا القول أن الجغرافيا مسيطرة ومهيمنة بالكلية على تلك الرواية، وذلك ما يحقق للجغرافيا الموجودة في الرواية، الوصول وبسهولة إلى درجة المبالغة الجغرافية، والتي عندها تصير الرواية ملائمة لتطبيق نظرية التحليل الجغرافي للأدب.

فضلًا عن الهيمنة الجغرافية أو النفوذ الجغرافي الطاغي في الرواية، تحتوي روبنسون كروزو على علامات وإيحاءات ودلالات دينية، ونفسية، وسوسيولوجية، وفلسفية، وحضارية، وأنثروبولوجية، وغيرها. فبالتأكيد الجغرافيا لا تنفرد بالنص أو بالرواية وحدها، وإنما معها شركاء آخرين وإن كانوا أقل منها مساهمة وظهورًا، إلا أنهم جميعًا وبما فيهم الجغرافيا يتشاركوا مهمة صناعة وخلق الرواية، ومن خلالهم أيضًا تنبعث دلالات وإيحاءات هذه الرواية الرائدة.

من المآخذ التي يأخذها البعض على رواية روبنسون كروزو، هو نمطها الذكوري البحت وخلوها تقريبًا من المشاركة النسائية أو الأنثوية. حيث لا تتضمن الرواية بأسرها سوى شخصيتين نسائيتين اثنتين، والمدهش حقًا هو أن هاتين الشخصيتين كان دورهما ثانوي، أو ربما أقل من ثانوي في هذه الرواية.

لعل الأمر الذي يجد النقاد أنفسهم مرغمين على الاعتراف به، هو أن روبنسون كروزو رواية حقيقية واقعية، أي تنتمي إلى الأدب الواقعي الحقيقي، الخالي من التخييل والمبالغات اللامنطقية.

رواية روبنسون كروزو تعتبر حقيقية وواقعية، لأن كاتبها دانيال ديفو استمد واستلهم فكرتها وأحداثها من التجربة الحقيقية للبحار الاسكتلندي الكسندر سيلكرك Alexander Selkirk. والذي بدوره مر بتجربة التشرد والعزلة Castaway على أرض جزيرة خوان فيرنانديز Juan Fernandez الواقعة في المحيط الهادي، إلى الغرب من سواحل دولة تشيلي. سيلكرك الذي مكث في الجزيرة الباسيفيكية منعزلًا عن العالم لمدة تزيد عن الأربع سنوات، ألهم بتجربته المثيرة دانيال ديفو، والذي بدوره طور حكاية سيلكرك وأعاد صياغتها ونماها، لتصبح فيما بعد الرواية المعروفة بروبنسون كروزو.

قام ديفو بإطلاق اسم روبنسون كروزو على كل من البطل والرواية، على حد سواء. أي أن الرواية تحمل اسم روبنسون كروزو، وكذلك البطل في هذه الرواية يحمل ذات الاسم (روبنسون كروزو).

لم يسمِ ديفو روايته باسم البطل الحقيقي والملهم الكسندر سيلكرك، بل استبدل ذلك بروبنسون كروزو. وفي حقيقة الأمر، لا يعد ذلك هو الشيء الوحيد الذي قام ديفو بتغييره وتبديله في صيغة المسميات والأحداث، الخاصة بالحكاية الحقيقية للبطل الحقيقي الكسندر سيلكرك.

ففي رواية روبنسون كروزو قام ديفو بإضافة الكثير من الأحداث المشوقة، إلى تلك الأحداث الأصلية التي رواها الكسندر سيلكرك عن تجربته المثيرة. فضلًا عن الإضافة، قام ديفو بتغيير العديد من الوقائع والمواقع الهامة، والتي وردت في حكاية تجربة البطل الحقيقي سيلكرك. ولعل أبرز مثال على ذلك هو تغيير ديفو لمكان وموقع الجزيرة، والتي بدورها احتضنت الغالبية العظمى من أحداث الرواية ومجرياتها.

فالجزيرة التي نبذ وانعزل عليها سيلكرك بالفعل، هي خوان فيرناندز الواقعة في الباسيفيك، إلى الغرب من سواحل تشيلي. أما في نص رواية روبنسون كروزو، فقد قام ديفو بتغيير موقع الجزيرة (خوان فيرناندز) ليكون في المحيط الأطلسي، وتحديدًا في البحر الكاريبي، أي إلى الشمال من سواحل غويانا وفنزويلا. أو إن شئتم توصيفًا أكثر دقة، فبالقرب من المنطقة التي يتواجد بها مثلث جزر: ترينيداد وتوباجو Trinidad and Tobago وسانت فينسنت Saint Vincent و بربادوس Barbados[1].

مثال آخر على التغييرات التي أدخلها ديفو، على صيغة حكاية التجربة الحقيقية لسيلكرك. هو استبداله للجنسية الاسكتلندية للبطل الحقيقي والملهم للرواية (الكسندر سيلكرك)، بالجنسية الإنجليزية للبطل الجديد الذي قام بابتداعه (روبنسون كروزو).

ربما كان يتوجب على ديفو الإبقاء على الجنسية الاسكتلندية للبطل، حتى ولو كان هذا البطل هو روبنسون كروزو، وذلك ربما كنوع من الامتنان والعرفان بالجميل إلى الكسندر سيلكرك الذي لولاه لما جاءت فكرة الرواية من حيث الأساس. إلا أن ديفو مدفوعًا ربما بنوع من الشوفينية والوطنية الزائدة عن الحد، بدل جنسية البطل إلى الجنسية الإنجليزية، ربما ليشير إلى أن روبنسون الحكيم، روبنسون التائب، روبنسون الذكي والمبدع، روبنسون السوبر مان والقوي، روبنسون اليوطوبي، هو رمز ودلالة وصورة للرجل الإنجليزي المثالي.

(1) نفهم مما سبق، أن ديفو لم يأخذ بنموذج التجربة الحقيقية لسلكرك كما هو، بل غير وبدل فيه كثيرًا.

وفي المقابل ربما لا يكون حب الوطن والتعصب لإنجلترا، هو الدافع الذي دفع ديفو ليجعل جنسية بطل روايته إنجليزي وليس اسكتلندي!!.

على أي حال، تختلف مواقف النقاد الأدبيين وتتنوع، تجاه الإيحاءات والدلالات التي تفضي إليها الرواية. فهناك فئة من النقاد الأدبيين هاجمت الرواية وانتقدتها، بحجة أنها تحمل دلالات وإيحاءات لا أخلاقية ولا إنسانية، وأن روبنسون كروزو كشخصية يرمز إلىٰ الإنسان الكولونيالي والإمبريالي الشرير. وفي المقابل هناك فئة أخرى من النقاد مدحوا الرواية كثيرًا وأبدوا إعجابهم بها، معتقدين أنها تحمل رسائل تربوية وأخلاقية، من حيث كونها ملئا بالحكم والعبر والعظات.

تعد روبنسون كروزو رواية غنية بالأفكار الأدبية، أو الثيمات والموتيف Themes & Motifs كما يسميها البعض. فالعصيان، والمغامرة، والندم والحسرة، والمعاناة النفسية، والاكتئاب، والابتكار، والإبداع، والوحدة والانعزال، والتوبة، واستخلاص العبر من الأخطاء والخطايا، وعدم الاستقرار، والاستكشاف الجغرافي، والخوف، والتهور، هذه جميعها أفكار تنطبق على حال الرواية ولو جزئيًا في أحد مراحلها أو محطاتها. وبإمكان من يبحث بمزيد من التدقيق والتمحيص، أن يعثر داخل الرواية على المزيد من أمثال هذه الأفكار والمواضيع الأدبية.

وتعج الرواية كذلك بالكثير من الرموز، فمن أراد أن ينظر إلى الرواية من منظور الرمزية Symbolism، بإمكانه وبالقليل من الفطنة والذكاء والملاحظة، أن يعثر على أعداد كبيرة جدًا من الرموز في هذه الرواية الرائعة. فما الجزيرة، والسفينة، والجبل، والقراصنة، والبحر، وروبنسون، وفرايدي، وآكلي لحوم البشر، وآثار الأقدام البشرية، إلا بعض نماذج للرموز الوفيرة التي تعج بها الرواية. ومما لا شك فيه أن كل من هذه الرموز، له دلالاته وإيحاءاته العميقة والواسعة.

كونها أحد أقدم الروايات التي كتبت في تاريخ الأدب الإنجليزي، وكونها جاءت مميزة وجذابة وذات طابع خاص، صارت روبنسون كروزو نموذج يحتذى به، ومصدرًا للتأثير، وتجربة أصيلة

وعظيمة تستحق المحاكاة والتقليد. بحيث راح الكثيرين من الكتاب والمؤلفين سواء المعاصرين لديفو أو اللاحقين، يستلهموا أفكار رواياتهم وأعمالهم الأدبية من الإبداع الذي سطره ديفو في رواية روبنسون كروزو. بالفعل كانت رواية روبنسون كروزو بمثابة المنارة التي اهتدت بها إبداعات الكثيرين من الكتاب والأدباء.

تأثر سكوت أوديل Scott O'Dell برواية ديفو عندما كتب روايته جزيرة الدلافين الزرقاء Island of the Blue Dolphins، وكذلك يوهان ديفيد وياس عندما كتب رواية عائلة روبنسون السويسرية The Swiss Family Robinson، وكذلك روبرت لويس ستيفنسون Robert Louis Stevenson عندما كتب رواية جزيرة الكنز Treasure Island، وجول فيرن Jules Verne عندما كتب رواية الجزيرة الغامضة Mysterious Island، وغيرهم الكثيرين من الكتاب والأدباء العالميين.

جميع الروايات سابقة الذكر تنتمي إلى عائلة (الروبنسونات)، أي أن الروايات سالفة الذكر هي بعض نماذج من الروبنسونات. وقد سبقت الإشارة إلى الروبنسونات من قبل، على أنها جنس أدبي يتضمن الأعمال الأدبية التي جاءت متأثرة بنمط أو فكرة رواية روبنسون كروزو.

الأثر والنفوذ العظيم لرواية روبنسون كروزو، تخطى مدى تأثيرها على الكتاب وكتاباتهم الأدبية فحسب. بل وصلت معالم ذلك الأثر أو التأثير إلى مجالات أخرى، كالسينما على سبيل المثال. ولعل المراقب للكثير من الأفلام والمواد السينمائية الأخرى، يلاحظ ذلك الوجود الكبير لفكرة روبنسون كروزو والروبنسونات في هذه الأفلام والمواد السينمائية. ولا غرابة في أن نجد أن الكثير من أفكار أفلام هوليوود بالتحديد، هي أصلًا مستمدة ومستوحاة من الروبنسونات والرواية الأم روبنسون كروزو.

ولعل أبرز النماذج الدالة على ذلك، تتمثل في فيلم روبنسون كروزو Robinson Crusoe Movie للمخرجين رود هاردي Rod Hardy و جورج ميلر George Miller، وفيلم كاست

أوي Castaway للمخرج روبرت زيمكس Robert Zemeckis، وفيلم ستة أيام وسبعة ليالي Six Days Seven Nights للمخرج إيفان رتمان Ivan Reitman، وفيلم جحيم في الباسيفيك Hell in the Pacific للمخرج جون بورمان John Boorman، وسلسلة أفلام قراصنة الكاريبي Pirates of the Caribbean للمخرج غوري فيربنسكي Gore Verbinski وغير ذلك الكثير والكثير من النماذج الأخرى.

مجريات الرواية

روبنسون كروزو كان شابًا إنجليزيًا، يعيش في مدينة هل Hull الواقعة في الجزء الشمالي من إنجلترا. ووالده الذي ينحدر من أصول ألمانية، كان يحذوه الأمل في أن يصير ولده روبنسون محاميًا. كان الوالد يعلق على ولده روبنسون آمال عريضة، لأنه سبق وأن فجع في ولديه الأكبر سنًا من روبنسون. لذلك كان والد روبنسون كروزو يحرص وبشدة، على ألا يفقد روبنسون كما فقد ولديه الأولين.

لكن روبنسون كروزو كان ولدًا شقيًا وعنيدًا، بحيث تجاهل كل رغبات أبيه ووعظه وإرشاده المتكرر له. كان روبنسون كروزو متمردًا، عندما أصر على التفكير في خوض المغامرات البحرية، ضاربًا عرض الحائط كل النصائح والإرشادات والتوجيهات التي كان يسديها إليه والده، وضاربًا عرض الحائط أيضًا كل توسلات أمه المسكينة المكلومة، التي فجعت من قبل في ولديها البكريين.

أصر روبنسون كروزو على الاستمرار في عقوق والديه، ومخالفة رغباتهم وتوجيهاتهم. فرافق أحد أصدقائه، على متن سفينة والد ذلك الصديق، في رحلة بحرية إلى لندن. لكن نظرًا لسوء الأحوال الجوية وهيجان المحيط بأثر ذلك، كان روبنسون على موعد مع نحسه الأول، حيث اضطرت السفينة إلى الرسو اضطراريًا في ميناء يارموث Yarmouth. وعندما صارح روبنسون

صديقه بحقيقة عصيانه لأبويه وخروجه عن إرادتيهما، قال له والد صديقه أنه ينبغي عليه ألا يركب معهم البحر مرة أخرى، وألا يواصل معهم الرحلة. وبالفعل لم يواصل روبنسون مشواره إلى لندن عن طريق البحر، بل توجه من يارموث إلى لندن قاصدًا السبل البرية.

عندما وصل روبنسون إلى لندن انتابته حيرة شديدة، لقد كان حائرًا ومترددًا بين العودة إلى أهله وطلب العفو والسماح منهم، أو مواصلة مغامراته الغامضة والمحفوفة بالمخاطر. قرر روبنسون في نهاية المطاف أن يواصل مغامراته البحرية، حيث قرر أن يبحر إلى غينيا. وبالفعل يشتري روبنسون بعض البضائع من لندن ويحملها معه إلى غينيا ويبيعها هناك، ليكون بذلك تاجرًا ناجحًا وليس مغامرًا شقيًا فحسب !.

كان روبنسون مرة أخرى على موعد مع نحسه، أو ربما لعنة والديه التي تطارده، وذلك عندما قام القراصنة العثمانيين بمهاجمة السفينة التي يستقلها هو ومن معه، إذ كانت السفينة مبحرة في مياه المحيط الأطلسي. قام القراصنة العثمانيين باختطاف جميع أفراد طاقم السفينة وركابها، واقتادوهم إلى مدينة سلا Sallee الساحلية. ومنذ ذلك الحين صار روبنسون عبدًا ومملوكًا في أيدي القراصنة العثمانيين.

صار روبنسون عبدًا عند سيده العثماني في مدينة سلا. مكث روبنسون في عبوديته تلك لمدة عامين، لم يتوان خلالهما عن المحاولات الحثيثة والمستمرة، من أجل الهرب واستعادة حريته التي سلبت منه.

كان روبنسون على موعد مع الخلاص والحرية اللذان طال انتظارهما، وذلك عندما أرسله سيده العثماني برفقة شابين آخرين ليصطادوا له بعضًا من الأسماك. وبالفعل يذهب روبنسون ورفيقيه في مهمة الصيد ليصطادوا، فيرى روبنسون أن الفرصة التي انتظرها طويلًا من أجل الفرار والإنعتاق من نير العبودية قد حانت، فيجعل منها بالفعل محاولة جادة للفرار.

يتخلص روبنسون من أحد زميليه في رحلة الصيد تلك، فيرميه في المحيط، أما الآخر واسمه كزوري Xury فيتعهد أن يبقى وفيًا له، فيبقيه روبنسون على قيد الحياة، ليواصل معه المشوار فيما بعد.

لم يكن الهروب من قبضة القراصنة أمرًا سهلًا، فقد واجهت روبنسون ورفيقه كزوري الكثير من المصاعب والتحديات، إلى أن عثرا على سفينة برتغالية في عرض المحيط. قائد تلك السفينة أي القبطان البرتغالي كان رجلًا ودودًا وعطوفًا، بحيث أشفق على روبنسون ورفيقه وأدرك مدى حاجتهما إلى المساعدة والنجدة، فحملهما على ظهر سفينته، وتعهد أن يأخذهما معه مجانًا وبدون مقابل إلى البرازيل. عندما وصلت السفينة البرتغالية إلى البرازيل، نزل روبنسون ليعيش هناك، وذلك بعد أن تنازل للقبطان البرتغالي عن كزوري. أي بقي روبنسون في البرازيل، بينما ظل كزوري مع القبطان، والذي عاد بدوره إلى أوروبا.

بعد أن رفض روبنسون أن يعود مع القبطان إلى اليابسة الأوروبية، بدا أنه مصمم على خوض مغامرة جديدة في البرازيل. تأمل روبنسون في البرازيل من حوله، فوجد أنها تعج بالمزارع والحقول وتفيض بالخيرات المختلفة. لقد استنتج روبنسون أن الزراعة هي أحد أفضل المشاريع التي بالإمكان القيام بها في هذا البلد. لذلك أصر روبنسون على شراء مزرعة خاصة به، وهذا ما تم بالفعل.

تطور النشاط الزراعي لروبنسون في البرازيل، إذ وسع ونما من أعماله، وصار معه شركاء في المزارع. أراد روبنسون أن يطور من نشاطه المقتصر على الزراعة، ليشمل التجارة أيضًا. تزامنًا مع ذلك أبدى بعض ملاك المزارع في البرازيل رغبتهم في استيراد العبيد الزنوج، من أجل العمل في مزارعهم، والتي كان ينقصها الكثير من الأيدي العاملة.

أراد التجار وملاك المزارع في البرازيل أن يبعثوا وفدًا منهم ليجلب العبيد من غينيا، على أن يكون قائد هذا الوفد أو هذه البعثة هو روبنسون، وذلك نظرًا لخبراته السابقة. رغم أن

روبنسون كان غير محتاج ماديًا، إلا أنه وافق على قيادة تلك البعثة التجارية، ربما كنوع من المغامرة.

انطلقت السفينة من الساحل الشمالي للبرازيل، وعلى متنها روبنسون وبقية البعثة وطاقم السفينة. ما أن أبحرت السفينة قليلًا إلى الشمال الشرقي، حتى جاءت العاصفة وهاج المحيط ، لتتحول السفينة إلى صندوق جحيم وخراب. بدأت السفينة تتحطم شيئًا فشيئًا، يبدو أن روبنسون قد كان على موعد مرة أخرى مع نحسه الذي يطارده أينما حل وأينما ذهب، أو ربما كانت تلك لعنة والديه التي تلاحقه هي الأخرى.

وجه المحيط ضربته القاضية إلى السفينة، فتحطمت أجزاء منها وغرقت تحت الماء أجزاء أخرى. غرق جميع من على السفينة أو بداخلها من آدميين، لكن ظل روبنسون وحده فقط على قيد الحياة، إذ بقي لمدة من الوقت يصارع الأمواج العاتية والمحيط المجنون. لقد انتابه إعياء شديد وكان قاب قوسين أو أدنى من اللحاق ببقية رفاقه الصرعى، إلا أنه على ما يبدو قد كتب له عمر جديد. شرب روبنسون الكثير من مياه المحيط وتحطمت عظامه من خبطات الأمواج، إلى أن قذفته تلك الأمواج منهكًا محطمًا على شاطئ ما.

شق روبنسون طريقه إلى داخل اليابسة، متجاوزًا ذلك الساحل الغامض. اكتشف روبنسون فيما بعد، أنه قد نبذ لا محالة على أرض جزيرة نائية خالية تمامًا من السكان. تراكمت التحديات دفعة واحدة في وجه روبنسون، إذ أدرك أن الحياة سوف تكون صعبة ومخيفة على أرض هذه الجزيرة المجهولة. لكنه صمم على التكيف مع كافة تلك التحديات، فبالرغم من أن أرض الجزيرة تفتقر إلى أدنى مقومات الحياة، إلا أن روبنسون تمرد على ذلك الواقع الصعب والمعقد.

سبح روبنسون نحو حطام السفينة، وجلب من داخلها بعض المنافع والأدوات والمواد، التي ساعدته في تحقيق ولو القليل من معالم الحياة المدنية على أرض الجزيرة البدائية. قام روبنسون

فيما بعد بتشييد مسكنه الخاص، وبدأ يدون تقويمًا خاصًا به ليعرف التاريخ والأيام، وقام بزراعة بعض الحبوب التي جلبها من حطام السفينة فصارت تدر له غلالًا وفيرة، وقام باصطياد بعض الحيوانات البرية ليأكل من لحومها، وصنع أسلحة وتحصينات ليحمي بها نفسه.

بعد نجاته وحده دون سواه من الغرق، وانعزاله على أرض الجزيرة وحيدًا، أدرك روبنسون أن ذلك الأمر يحمل في طياته حكمة إلهية. إذ أدرك أن ذلك ربما يكون نوعًا من الغضب الإلهي أو العقاب. راجع روبنسون نفسه وأقر بتقصيره تجاه ربه وعدم شكره وذكره له. اعترف روبنسون بخطاياه الكثيرة وقرر التوبة إلى الله ، إذ صار متدينًا وصار يداوم على الصيام، وكذلك صار يداوم على قراءة الأناجيل التي انتشلها من حطام السفينة. صار روبنسون حليمًا وحكيمًا أكثر من ذي قبل، وصار يشكر الله على كل ضرر يمسه أو يصيبه.

أمضى روبنسون أكثر من عشرين عامًا من وحدته على أرض الجزيرة، دون أن ينجح في كسر عزلته، أي من خلال عبور مياه المحيط واجتيازها إلى مكان آخر من اليابسة، وكذلك دون أن يجد لنفسه أنيسًا آدميًا يشاركه الحياة بالمعنى السوسيولوجي على أرض الجزيرة.

بعد أربع وعشرين عامًا من انعزاله وحيدًا على أرض الجزيرة، كان روبنسون يتجول ذات يوم في مكان ما على أرض الجزيرة، فوجد بالصدفة آثار لأقدام آدمية. ومن هنا بدأ كل من الخوف والذعر يدبان في قلب روبنسون.

بعد فترة من التوتر والذعر الشديد، كانت هي الأسوأ في حياته المملة على أرض الجزيرة، تمكن روبنسون من معرفة حقيقة آثار الأقدام، إذ اكتشف أن قومًا متوحشين من آكلي لحوم البشر، يأتون إلى ساحل الجزيرة ومعهم أسرى ليأكلوهم هناك.

قرر روبنسون أن يراقب المنطقة الساحلية التي ترسو عندها قوارب المتوحشين آكلي لحوم البشر، وذلك كي يسعى في المرة القادمة، أن ينقذ الأسرى من قبضة اولئك المتوحشين، قبل أن يفتكوا بهم ويأكلوهم.

مرت شهور كثيرة، وروبنسون في كل يوم، يمضي نهاره بالكامل في رصد ومراقبة المنطقة الساحلية، والتي من المحتمل أن ترسو عندها قوارب المتوحشين. لكن بلا فائدة، فقد طال انتظار المتوحشين دون أن يأتوا. لكن روبنسون كان صبورًا وحكيمًا ومثابرًا بما فيه الكفاية، فأخيرًا وبعد طول انتظار، جاء المتوحشين ونزلوا بساحل الجزيرة، وكان معهم أسيرين اثنين. هموا بذبح الأول كي يلتهموه، بينما هرب الثاني من قبضتهم. انتهز روبنسون الفرصة فهاجم المتوحشين بأسلحته النارية التي تضمن له التفوق على كثرتهم العددية، فقتل من قتل منهم وفرت البقية إلى المحيط. وبهذا ساعد روبنسون على تحرير الأسير الثاني الذي بقي على قيد الحياة، والذي سماه روبنسون فيما بعد فرايدي Friday.

كان فرايدي ممتنًا شديد الامتنان لسيده روبنسون، فقد أنقذ حياته بأعجوبة من بين براثن المتوحشين. بكل إخلاص، سخر فرايدي نفسه كي يكون خادمًا مطيعًا ووفيًا لسيده روبنسون.

أما روبنسون فقد قام بدوره بحملة تعليم وتنوير لفرايدي، فكانت أبرز نتائج تلك الحملة هي تعلم فرايدي للكثير من مفردات الإنجليزية، واعتناقه للمسيحية بدلًا من ديانته الوثنية، وتعلمه كذلك للعديد من أساليب وعادات وطباع الحياة الأوروبية المتحضرة، المتطورة إذا ما قورنت بحياته السابقة البدائية والمتخلفة.

انسجم روبنسون في حياته مع فرايدي. لكنهما عاشا يومًا بيوم، ينتظران بترقب الغارة الجديدة (غارة الثأر)، التي سيشنها المتوحشين آكلي لحوم البشر على أرض الجزيرة. ظل روبنسون وفرايدي ينتظران بتوتر وقلق، حتى رست قوارب المتوحشين الهمجيين ذات يوم على ساحل الجزيرة، وكان وقتها في قبضتهم ثلاثة أسرى. تعاون كل من روبنسون وخادمه فرايدي واجتهدا، فاستطاعا بعد خوضهما معركة شرسة مع المتوحشين، أن يفتكا بهم وأن يحررا من قبضتهم أسيرين اثنين من أصل ثلاثة أسرى.

أحد الأسيرين كان والد فرايدي، أما الأسير المحرر الآخر فقد كان رجلًا أسبانيًا. فرح فرايدي كثيرًا عند رؤيته لوالده، أما روبنسون فقد أكرم ضيفاه ورحب بهما بحفاوة. انتابت روبنسون بهجة غامرة، فقد من الله عليه برفقاء يؤنسوا وحشته ويسلونه، بعد أن ظل لسنوات طويلة يعيش على أرض الجزيرة بلا رفيق ولا أنيس.

استأذن الرجل الأسباني من روبنسون، كي يبحر هو ووالد فرايدي إلى يابسة أخرى ليست ببعيدة، كي يجلبا بقية الرجال الأسبان العالقين هناك. بعد أن أملى روبنسون (ملك الجزيرة) شروطه وتعليماته على الرجل الأسباني، أخبره بعدم الممانعة. ذهب الرجل الأسباني وبرفقته والد فرايدي إلى يابسة أخرى قريبة من الجزيرة، كي يجلبان الرجال الأسبان من هناك، ويعودان بهم إلى جزيرة روبنسون.

فرح روبنسون أشد الفرح، لأن جزيرته سوف لن تبقى مأهولة به هو وفرايدي فحسب، بل ستصير مأهولة بسكان كثر، بإمكانهم أن ينشئوا على أرضها مجتمعًا ولو بالمعنى البسيط لكلمة مجتمع، كما وبإمكانهم أن يقفوا سدًا دفاعيًا صلدًا أمام هجمات المتوحشين آكلي لحوم البشر، مهما بلغت ضراوة وحدة تلك الهجمات.

قبل أن يعود والد فرايدي والرجل الأسباني وبرفقتهما بقية الرجال الأسبان، رسا قارب أوروبي على شاطئ الجزيرة، وقد كان هذا القارب يقل مجموعة من الخاطفين وبحوزتهم ثلاثة رجال مخطوفين. بينما تفرق الخاطفين وراحوا يستكشفون الجزيرة، تسلل روبنسون إلى المختطفين، فتواصل معهم وعرف أن أحدهم كان قائد سفينة مختطفة.

اتفق روبنسون مع قائد السفينة، على أن يحرره هو ورجليه من قبضة الخاطفين، وأن يعيد له سفينته المختطفة كذلك، شريطة أن يتعهد قائد السفينة هو ورفيقيه باحترام سلطة روبنسون المطلقة على أرض الجزيرة، وأن يتعهد قائد السفينة كذلك، بأن يحمل روبنسون وفرايدي مجانًا على ظهر سفينته إلى إنجلترا.

نجح كل من روبنسون وخادمه فرايدي، في تحرير المختطفين الثلاثة. وبفضل ذكاء روبنسون، نجحوا جميعًا في تحرير السفينة من قبضة الخاطفين. أوفى قائد السفينة بتعهده، فحمل روبنسون وفرايدي على ظهر سفينته وأخذهما معه إلى إنجلترا.

ودع روبنسون جزيرته، بعد أن قضى فيها ثمانية وعشرين عامًا من العزلة. وبعد رحلة طويلة فوق مياه الأطلسي، وصل روبنسون ورجله فرايدي بسلام، فوطأت قدمي روبنسون أرض إنجلترا، بعد قرابة خمسة وثلاثين عامًا من التشرد والغياب.

في إنجلترا، وجد روبنسون أن كل أفراد عائلته قد فارقوا الحياة، عدا اثنتين من أخواته واثنين من أبناء أخوته. لم يمكث روبنسون في إنجلترا طويلًا، فسرعان ما سافر بحرًا إلى لشبونة، وبالطبع كان فرايدي برفقته.

في لشبونة ذهب روبنسون إلى القبطان، الذي سبق وأن أخذه إلى البرازيل في بادئ مغامراته. أراد روبنسون من القبطان أن يساعده في التعرف على مصير مزارعه في البرازيل.

من حسن حظ روبنسون أن مزارعه في البرازيل قد نمت وتطورت وازداد إنتاجها كثيرًا عن ذي قبل، وكان شركاء روبنسون في هذه المزارع ظنوه قد مات في حادثة السفينة. لذلك فقد كانت حصة روبنسون السنوية من الأرباح، تذهب إلى حساب الملك والجمعيات الخيرية.

بظهوره المفاجئ أثبت روبنسون رسميًا وقانونيًا أنه ما زال على قيد الحياة. وبفضل مساعدة القبطان البرتغالي وابنه، تمكن روبنسون من تحصيل ثروته الطائلة في البرازيل.

خوفًا من سوء حظ جديد قد يواجهه في المحيط ، قرر روبنسون أن يسافر هو وفرايدي من البرتغال إلى إنجلترا عبر السبل البرية. ليس لوحدهما، وإنما كان برفقتهما العديد من الرجال، سافر كل من روبنسون وفرايدي برًا إلى إنجلترا، مرورًا بأسبانيا وفرنسا.

وصل كل من روبنسون وفرايدي إلى إنجلترا بسلام، لكنهما لم يكونا بعيدان عن سوء الحظ في تلك الرحلة البرية المجنونة والمحفوفة بالمخاطر. فقد أفلت روبنسون وفرايدي ورفقاء السفر من الموت المحقق في مناسبات عديدة، لعل أبرزها عندما هاجمهم الدب المتوحش، وعندما هاجمتهم قبائل الذئاب المسعورة.

عاد روبنسون إلى إنجلترا مرة أخرى، فتزوج وأنجب ولدين اثنين وبنت واحدة. توفيت زوجة روبنسون، ليعود مرة أخرى إلى ركوب البحر، وليعمل كتاجر بحري هذه المرة. وبالمناسبة زار روبنسون جزيرته التي نبذ فيها ثمانية وعشرين عامًا، كي يتفقد أحوالها والأوضاع التي آلت إليها.

الفصل الثاني: تطبيق النظرية على نص الرواية.

- تطبيق النظرية على رواية (روبنسون كروزو).
- التطبيق.
- ملاحظات على التطبيق.

تطبيق النظرية على رواية (روبنسون كروزو)

لم يتم اختيار رواية روبنسون كروزو عبثًا، وإنما تم اختيارها لأنها غنية بالعلامات والمعلومات الجغرافية، فجنبات الرواية تكتنز بالمحتوى الجغرافي كما ذكرنا من قبل في أكثر من مناسبة.

تعد رواية روبنسون كروزو مؤهلة وبجدارة لتطبيق نظرية التحليل الجغرافي للأدب، لأن أحداثها تحقق الوصول وبسهولة إلى درجة المبالغة الجغرافية، وهي الدرجة التي تصير عندها النصوص مؤهلة لتطبيق نظرية التحليل الجغرافي للأدب.

كان روبنسون كروزو (الشخصية) هو البطل المطلق والوحيد في رواية روبنسون كروزو، فلم يكن له ند واضح وجلي الظهور في سائر الرواية، ولم تكن تنافسه شخصية كبرى أخرى فتقاسمه أحداث الرواية. بل كان روبنسون هو الشخصية الكبيرة والمهيمنة الوحيدة على سائر الرواية، أما باقي الشخصيات فقد كانت جميعها ثانوية، ومتذبذبة ومرحلية الظهور في أحداث الرواية.

ربما كان ديفو بالفعل قد خلق الرواية، وقد منح السيطرة المطلقة فيها إلى شخصية روبنسون. لكن وطأة التفرد والسيطرة المطلقة التي منحت لروبنسون، ربما خفت بعض الشيء بسبب المحتوى الجغرافي الكبير، وتحديدًا الأماكن والمواقع الجغرافية الكثيرة، التي زج بها ديفو في أحداث وتفاصيل روايته.

فباعتقادي أن الكثرة والوفرة والمبالغة في أماكن الرواية (دول ومدن ونحوهما)، من شأنها أن تقلل بعض الشيء من قيمة الانطباع السلبي الذي قد يأخذه البعض عن الرواية، بسبب قلة وندرة الشخصيات الهامة والمحورية فيها. أي أن كثرة الأماكن في الرواية، ربما تعوض بعض الشيء عن العجز والنقص في الشخصيات، وتلك برأيي هي عبقرية ديفو.

في قراءة مبدئية ومبسطة لجغرافية روبنسون كروزو، يمكننا القول أن سائر العلامات الجغرافية التي تحتويها الرواية، تتبدى لنا من خلال رافدين اثنين أو عنوانين اثنين، لا ثالث لهما:

١- جغرافية الدول والأقاليم والوحدات السياسية (خرائط الجغرافيا السياسية).

٢- سلوك روبنسون كروزو.

تنقلت أحداث رواية روبنسون كروزو بين ثلاث قارات. بداية من أوروبا، إلى أفريقيا، وصولًا إلى أمريكا اللاتينية. أي أن أحداث الرواية قد دارت في كل من العالم القديم والعالم الجديد، فأوروبا وأفريقيا تمثلان العالم القديم، أما أمريكا اللاتينية فتمثل العالم الجديد.

مضى الآن على اكتشاف العالم الجديد نحو خمسمائة عام، وفي الوقت الذي كتب فيه ديفو روايته، كان قد مضى على اكتشاف العالم الجديد نحو مائتي عام فقط. أي أن ذلك هو السبب، وراء اهتمام ديفو في روايته بالعالم المكتشف حديثًا.

فوق يابسة القارات الثلاث سالفة الذكر، وقعت أحداث الرواية في عدد كبير من الدول والمدن. ووقعت أحداث الرواية كذلك في عدد كبير من الموانئ والمرافئ. فالقارات الثلاث تقع على ضفتي المحيط الأطلسي، وبالتالي فإن كافة الرحلات البحرية الواردة في أحداث الرواية، قد انتقلت من وإلى تلك الموانئ والمرافئ الأطلسية، التي تقع على سواحل القارات الثلاث.

إذ يمكننا القول أن القارات الثلاث كانت بمثابة المسرح، الذي احتضن سائر الأحداث البرية في الرواية. أما المحيط الأطلسي بأبعاده الرحبة والواسعة، فقد كان ميدانًا للأحداث البحرية التي وقعت في الرواية.

بالنظر إلى دوائر العرض Latitude نجد أن أحداث رواية روبنسون كروزو، قد دارت أغلبيتها في أماكن جغرافية تقع إلى الشمال من خط الاستواء (أي في نصف الكرة الأرضية

الشمالي). لكن هناك مقدار قليل جدًا من أحداث الرواية، دارت في أماكن جغرافية تقع إلى الجنوب من خط الاستواء (أي في نصف الكرة الأرضية الجنوبي)، وهي الأحداث التي وقعت في البرازيل تحديدًا.

بالنظر إلى خطوط الطول Longitude نجد أن أحداث الرواية بأسرها تقريبًا، قد دارت في أماكن جغرافية تقع إلى الغرب من خط جرينتش (أي في النصف الغربي من الكرة الأرضية western hemisphere).

كون أحداث الرواية دارت في عدد كبير من الدول والمواقع الجغرافية، وكونها دارت في هكذا مواضع متفرقة من خريطة الكرة الأرضية، فذلك يعني أن الرواية تحتوي على شخصيات من خلفيات حضارية وثقافية كثيرة ومختلفة ومتنوعة. ولعل الخليط الجغرافي البشري والأنثروبولوجي المميز الذي وضعه ديفو في روايته، هو أحد أبرز معالم الجمال والإبداع في تلك الرواية.

وفي قادم الصفحات سنتناول بالتحليل المستفيض، ذلك الخليط الجغرافي البشري الذي وضعه ديفو في روايته، شأنه شأن الخليط الجغرافي الطبيعي والإقليمي والسياسي، الذي أثرى به ديفو روايته أيضًا.

التطبيق

- أولاً: كشف العلامات الجغرافية.

في مجمل أحداث رواية روبنسون كروزو، تم التطرق بالذكر الصريح إلى أسماء الكثير من الدول. إذ تبدو أسماء هذه الدول على النحو التالي:

١- إنجلترا England.

٢- غينيا Guinea.

٣- الرأس الأخضر Cape de Verde.

٤- المغرب Morocco.

٥- البرازيل Brazil - Brazils.

٦- بربادوس Barbadoes.

٧- غويانا Guiana.

٨- ترينيداد Trinidad.

٩- مصر Egypt.

١٠- الهند East Indies.

١١- جامايكا Jamaica.

١٢- ألمانيا Germany.

١٣- البرتغال Portugal.

١٤- أسبانيا Spain.

١٥- فرنسا France.

في مجمل أحداث رواية روبنسون كروزو، وردت أسماء العديد من المدن، والمدن الساحلية أيضًا. إذ تبدو أسماء هذه المدن والمدن الساحلية، على النحو التالي:

١- مدينة يورك York (إنجلترا).

٢- مدينة بريمن Bremen (ألمانيا).

٣- مدينة هل Hull (إنجلترا).

٤- مدينة دونكيرك Dunkirk (فرنسا).

٥- مدينة لندن London (إنجلترا).

٦- مدينة نيوكاسل Newcastle (إنجلترا).

٧- مدينة كرومر Cromer (إنجلترا).

٨- مدينة يارموث Yarmouth (إنجلترا).

٩- مدينة سلا Sallee (المغرب).

١٠- مدينة لشبونة Lisbon (البرتغال).

١١- مدينة سلفادور St. Salvador (البرازيل).

١٢- مدينة القدس Jerusalem (فلسطين).

١٣- مدينة بيونس ايرس Buenos Ayres (الأرجنتين).

١٤- مدينة هافانا Havannah (كوبا).

١٥- مدينة باريس Paris (فرنسا).

١٦- مدينة مدريد Madrid (أسبانيا).

١٧- مدينة فونتاريبيا Fontarabia (أسبانيا).

١٨- مدينة لاكورونيا Groyne (أسبانيا).

١٩- مدينة سانتا مارتا St. Martha (كولومبيا).

٢٠- مدينة دوفر Dover (إنجلترا).

٢١- مدينة بامبلونا Pampeluna (أسبانيا).

٢٢- مدينة بوردو Bordeaux (فرنسا).

٢٣- مدينة روشيل Rochelle (فرنسا).

٢٤- مدينة كاليه Calais (فرنسا).

٢٥- مدينة تولوز Toulouse (فرنسا).

٢٦- مدينة اليكانتي Alicant (أسبانيا).

بالإضافة إلى أسماء الدول وأسماء المدن سالفة الذكر، ظهرت في أحداث الرواية مسميات لكيانات جغرافية أخرى، لا يمكننا تصنيفها على أنها دول أو مدن. إذ تبدو هذه المسميات على النحو التالي:

١- الجزيرة الكاريبية (التي نبذ فيها روبنسون).

٢- منطقة ونترتون نيس Winterton Ness (إنجلترا).

٣- ساحل أفريقيا Coast of Africa.

٤- جزر الكناري Canary Islands (تتبع أسبانيا).

٥- الساحل الأسباني Coast of Spain.

٦- خليج قادش Bay of Cadiz (أسبانيا).

٧- الساحل البربري Barbarian Coast (اسم تاريخي لساحل شمال أفريقيا).

٨- نهر غامبيا Gambia River (غرب أفريقيا).

٩- نهر السنغال Senegal River (غرب أفريقيا).

١٠- جبل تنريف Pico of Teneriffe (جزر الكناري).

١١- رأس سانت أوغسطين Cape St. Augustino (البرازيل).

١٢- جزر فرناندو دي نورونها Fernando de Noronha (تتبع البرازيل).

١٣- نهر الأمازون The River Amazon.

١٤- نهر أورينوكو The River Orinoco(أمريكا اللاتينية).

١٥- خليج جميع القديسين All Saints Bay (البرازيل).

١٦- جزر الكاريبي Caribbee Islands.

١٧- شمال البرازيل The North Part of Brazil.

١٨- أمريكا America.

١٩- أوروبا Europe.

٢٠- خليج المكسيك Gulf of Mexico.

٢١- جزر ليوارد Leeward Islands (البحر الكاريبي).

٢٢- الجزر الإنجليزية English Islands (أملاك انجلترا من جزر الكاريبي).

٢٣- خور ريو دي لا بلاتا Rio de la Plata.

٢٤- منطقة نافارا Navarre (أسبانيا).

٢٥- جبال البرانس Pyrenean Mountains.

٢٦- منطقة لانغيدوك Languedoc (فرنسا).

٢٧- منطقة غاسكوني Gascony (فرنسا).

٢٨- نهر لشبونة River of Lisbon.

٢٩- خليج بسكاي Bay of Biscay.

٣٠- منطقة يوركشاير Yorkshire.

٣١- منطقة تورباي Torbay.

٣٢- ساحل الكاريبي Caribbean Coast.

٣٣- البلاد الشمالية Northern Countries.

تضمنت أحداث الرواية ذكر عدد كبير جدًا من الصفات الجغرافية. وفيما يلي استعراض وافي ومفصل لهذه الصفات الجغرافية:

١- سفينة القراصنة العثمانيين Turkish rover of Sallee.

٢- محارب أسباني Spanish man-of-war.

٣- محارب برتغالي Portugal man-of-war.

٤- رجل إنجليزي English man.

٥- رجل أيرلندي Irish man.

٦- رجل اسكتلندي Scotch man.

٧- سفينة إنجليزية English ship.

٨- عبد إنجليزي English slave.

٩- أمم الزنوج Nations of negroes.

١٠- سفينة أوروبية European ship.

١١- سفينة برتغالية Portuguese ship.

١٢- بحار اسكتلندي Scotch sailor.

١٣- قارب أوروبي European boat.

١٤- اللغة البرتغالية Portuguese tongue.

١٥- اللغة الأسبانية Spanish.

١٦- اللغة الفرنسية French.

١٧- والدين إنجليزيين English parents.

١٨- بضاعة إنجليزية English goods.

١٩- عبد زنجي Negro slave.

٢٠- خادم أوروبي European servanz.

٢١- الجبن الهولندية Dutch cheeses.

٢٢- نقود أوروبية European coin.

٢٣- نقود برازيلية Brazil coin.

٢٤- كتب برتغالية Portuguese books.

٢٥- مغامرة أفريقية African adventure.

٢٦- شعير إنجليزي English barley.

٢٧- لحم خنزير برازيلي Brazil pork.

٢٨- رجال إنجليز English- men.

٢٩- البرازيليين Brazilians.

٣٠- قطط أوروبية European cats.

٣١- مناطق السيادة الأسبانية Spanish dominions.

٣٢- الساحل الأسباني Spanish coast.

٣٣- الدولة الأسبانية Spanish country.

٣٤- أسود وغمور أفريقيا Lions and tigers of Africa.

٣٥- الأوروبيين Europeans.

٣٦- الأتراك (العثمانيين) Turks.

٣٧- المغاربة Moors.

٣٨- الفلسطينيين Philistines.

٣٩- الأسباني Spaniard.

٤٠- الأسبان Spaniards.

٤١- أحذية إنجليزية English shoes.

٤٢- سكان أمريكا الأصليين Natives of America.

٤٣- الفرجينيين Virginians.

٤٤- الكاريبيين Caribs- Caribbees.

٤٥- برتغاليين Portuguese.

٤٦- أخشاب نيكاراغوا Nicaragua wood.

٤٧- سفينة أسبانية Spanish ship.

٤٨- بضائع أوروبية European goods.

٤٩- بحارة برتغاليين Portuguese seamen.

٥٠- قارب إنجليزي طويل English long-boat.

٥١- هولنديين Dutch.

٥٢- خمر ماديرا Madeira wine.

٥٣- حرير إيطالي Italian silks.

٥٤- جوخ إنجليزي English broadcloth.

٥٥- قراصنة جزائريين Algerines.

٥٦- سيد إنجليزي English gentleman.

٥٧- تجار إنجليز English merchants.

٥٨- سادة برتغاليون Portuguese gentlemen.

٥٩- بحار إنجليزي English sailor.

٦٠- سادة فرنسيين French gentlemen.

٦١- قبطان إنجليزي English captain.

٦٢- اللغة الإنجليزية English.

٦٣- تاجر غينيا Guinea trader.

٦٤- غلال غينية وعاج غيني Guinea grains، elephant teeth.

٦٥- سفن البرازيل Brazil ships.

٦٦- هنود البيرو Indians of Peru.

العلامات الجغرافية التي تمتلئ بها الرواية لا تتمثل في المسميات الجغرافية فحسب، بل تكتنز الرواية بالكثير من الأحداث الجغرافية. وفي مسح تحليلي لسائر هذه الأحداث الجغرافية، نجد أن أغلبها تدور حول النقاط التالية:

١- المغامرة الجغرافية.

٢- السفر البحري.

٣- السفر البري.

٤- التنوع الإثني والحضاري للشخصيات.

٥- استخدام الجهات الأربع وتفريعاتها.

٦- تخمين وتقدير المسافات والمواقع.

٧- الوصف الجغرافي للأماكن.

٨- تضمين معلومات وشروحات جغرافية.

٩- استخدام دوائر العرض وخطوط الطول.

١٠- الاستكشاف الجغرافي للأماكن.

١١- أهمية المرتفعات.

١٢- الاهتمام بحركتي المد والجزر، وتيار البحر، وحركة الأمواج.

١٣- الاهتمام بسرعة الرياح واتجاهاتها.

١٤- قصد خليج أو مصب نهر، من أجل عملية الرسو.

١٥- التعرض للكوارث الطبيعية.

١٦- التنوع المناخي، والحديث عن الحالة الجوية.

١٧- الجغرافيا الزراعية.

١٨- الحظ وسوء الحظ الجغرافي.

١٩- تضاريس الجزيرة.

٢٠- الاستفسار عن معلومات جغرافية.

- ثانيًا: تصنيف العلامات الجغرافية.

فيما سبق كشفنا ورصدنا العلامات الجغرافية الموجودة في رواية روبنسون كروزو. فقد ذكرنا ووضحنا كل نوع من العلامات الجغرافية على حدة، بدءًا من الأماكن، إلى الصفات، وحتى

الأحداث. إذا ما أردنا أن نصنف العلامات الجغرافية الخاصة بالرواية ككل، فعلينا بالتأكيد أن نصنفها إلى ما هو مؤثر، وما هو غير مؤثر.

في البداية، يمكننا القول أن سائر الأحداث الجغرافية التي تضمنتها رواية روبنسون كروزو، كانت مؤثرة. أما بالنسبة للصفات الجغرافية، فيمكننا القول أن أغلب الصفات الجغرافية التي جاءت في الرواية كانت بالفعل مؤثرة، ولكن تبقى هناك بعض الصفات القليلة الغير مؤثرة، كهذه الصفات:

١) الفلسطينيين Philistines.

٢) هنود البيرو Indians of Peru.

٣) قراصنة جزائريين Algerines.

من يقرأ الرواية جيدًا، يدرك أن هذه الصفات الجغرافية وأمثالها غير مؤثرة تمامًا، فلا علاقة لها مطلقًا بحبكة النص ولا بالمضمون العام لأحداث الرواية. فأي من أحداث الرواية لم يحدث في فلسطين، ولا حتى في البيرو ولا في الجزائر. ولم تكن أي من شخصيات الرواية من أي من هذه البلدان الثلاثة.

يبدو منطقيًا عدم وجود أي علاقة بين حبكة الرواية وكل من فلسطين و البيرو والجزائر. لذلك فعدم وجود هذه الصفات الثلاث من حيث الأساس، لا يسبب الضرر لحبكة الرواية ولا يؤثر سلبًا على اتجاهها العام، وذلك لأن الصفات الثلاث كما ذكرنا غير مؤثره. هكذا صفات ربما تكون بالفعل غير مؤثرة على مسيرة النص وحبكته، لكنها وبدون شك تضفي قيمة جمالية رائعة على النص الذي تتواجد فيه.

على خلاف الصفات الثلاث سالفة الذكر، يمكننا القول أن غالبية الصفات الجغرافية التي احتوتها الرواية، تعد صفات أو علامات مؤثرة. فثمة علاقة توجد بشكل أو بآخر، بين حبكة الرواية وهذه الصفات.

تعد الأماكن، أفضل وأسهل أنواع العلامات الجغرافية، التي يمكن تصنيفها إلى ما هو مؤثر وغير مؤثر. فالمكان المؤثر هو ما يقع أو يحدث على أرضه أو رقعته، شيء من أحداث العمل الأدبي. أما الغير مؤثر من الأماكن، فهو الذي لا يستضيف شيئًا من أحداث العمل الأدبي على أرضه.

الأماكن المؤثرة في الرواية:

١- انجلترا England.

٢- غينيا Guinea.

٣- المغرب Morocco.

٤- موريتانيا.

٥- السنغال Senegal.

٦- الجزيرة الكاريبية.

٧- البرازيل Brazil - Brazils.

٨- البرتغال Portugal.

٩- أسبانيا Spain.

١٠- فرنسا France.

١١- مدينة يورك York.

١٢- مدينة هل Hull.

١٣- مدينة لندن London.

١٤- مدينة كرومر Cromer.

١٥- مدينة يارموث Yarmouth.

١٦- مدينة سلا Sallee.

١٧- مدينة لشبونة Lisbon.

١٨- مدينة سلفادور St. Salvador.

١٩- مدينة مدريد Madrid.

٢٠- مدينة باريس Paris.

٢١- مدينة دوفر Dover.

٢٢- مدينة بامبلونا Pampeluna.

٢٣- مدينة كاليه Calais.

٢٤- مدينة تولوز Toulouse.

٢٥- منطقة ونترتون نيس Winterton Ness.

٢٦- ساحل أفريقيا Coast of Africa.

٢٧- الساحل البربري Barbarian Coast.

٢٨- خليج جميع القديسين All Saints Bay.

٢٩- جزر الكاريبي Caribbee Islands.

٣٠- منطقة نافارا Navarre.

٣١- جبال البرانس Pyrenean Mountains.

٣٢- منطقة لانغيدوك Languedoc.

٣٣- منطقة غاسكوني Gascony.

٣٤- منطقة يوركشاير Yorkshire.

٣٥- أمريكا America.

٣٦- أوروبا Europe.

الأماكن الغير مؤثرة:

١- الرأس الأخضر Cape de Verde.

٢- بربادوس Barbadoes.

٣- غويانا Guiana.

٤- ترينيداد Trinidad.

٥- مصر Egypt.

٦- الهند East Indies.

٧- جامايكا Jamaica.

٨- ألمانيا Germany.

٩- مدينة بريمن Bremen.

١٠- مدينة دونكيرك Dunkirk.

١١- مدينة نيوكاسل Newcastle.

١٢- مدينة القدس Jerusalem.

١٣- مدينة بيونس ايرس Buenos Ayres.

١٤- مدينة هافانا Havannah.

١٥- مدينة فونتاريبيا Fontarabia.

١٦- مدينة بوردو Bordeaux.

١٧- مدينة روشيل Rochelle.

١٨- مدينة لاكورونيا Groyne.

١٩- مدينة سانتا مارتا St. Martha.

٢٠- مدينة اليكانتي Alicant.

٢١- جبل تنريف Pico of Teneriffe.

٢٢- جزر الكناري Canary Islands.

٢٣- الساحل الأسباني Coast of Spain.

٢٤- خليج قادش Bay of Cadiz.

٢٥- نهر غامبيا Gambia River.

٢٦- نهر السنغال Senegal River.

٢٧- رأس سانت أوغسطين Cape St. Augustino.

٢٨- جزر فرناندو دي نورونها Fernando de Noronha .

٢٩- نهر الأمازون The River Amazon.

٣٠- نهر أورينوكو The River Orinoco.

٣١- خليج المكسيك Gulf of Mexico.

٣٢- الجزر الإنجليزية English Islands.

٣٣- خور ريو دي لا بلاتا Rio de la Plata.

٣٤- جزر ليوارد Leeward Islands.

٣٥- شمال البرازيل The North Part of Brazil.

٣٦- نهر لشبونة River of Lisbon.

٣٧- خليج بسكاي Bay of Biscay.

٣٨- منطقة تورباي Torbay.

٣٩- ساحل الكاريبي Caribbean Coast.

٤٠- البلاد الشمالية Northern Countries.

- ثالثًا: تحليل العلامات الجغرافية.

بعد أن حصرنا العلامات الجغرافية الواردة في الرواية، ومن ثم صنفناها، علينا الآن أن نفسر هذه العلامات وأن نحللها جيدًا، إذ يبدو تفسير العلامات الجغرافية الواردة في رواية روبنسون كروزو على النحو التالي:

- الأماكن.

١) إنجلترا England:

هي البلد التي ينتمي إليها روبنسون كروزو. بدأت أحداث الرواية من إنجلترا وفي نهاية الرواية عادت الأحداث مرة أخرى إليها. بدأ روبنسون مغامراته داخل إنجلترا، ومن ثم انطلاقًا منها نحو العالم. تنقلًا بين الشمال والشرق والجنوب، كثير من أحداث الرواية وتفاصيل حبكتها وقعت فوق أماكن مختلفة من التراب الإنجليزي، والمياه الإقليمية الإنجليزية.

٢) غينيا Guinea:

ليس بالضرورة أن يكون الامتداد الجغرافي والمساحة الجغرافية لغينيا في عهد روبنسون كروزو، هما ذات الامتداد والمساحة اللذان نعهدهما الآن لغينيا الحديثة. فباعتقادي أن غينيا في عصر روبنسون كروزو كانت أكبر مساحة وأوسع امتدادًا، من غينيا التي نعهدها اليوم بحدودها الحالية.

على أي حال، كانت غينيا هي أول بلد أجنبي يسافر إليه روبنسون في مغامراته. فقد استهل روبنسون رحلاته البحرية الخارجية، برحلة إلى سواحل غينيا.

٣) المغرب Morocco:

هي ثاني دولة أفريقية تطأها قدمي روبنسون كروزو بعد غينيا. في عهد روبنسون كروزو ووفقًا لوجهة النظر الغربية، كانت المغرب جزءًا من الساحل البربري. أما القراصنة الأتراك العثمانيين، الذين يتخذون مواضع من الساحل المغربي قاعدة لهم، فقد اختطفوا روبنسون من عرض المياه. ليصير روبنسون عبدًا عندهم.

قضى روبنسون سنتين من عمره عبدًا مملوكًا عند سيده في المغرب، قبل أن يفر إلى مياه الأطلسي وينجو من عبوديته بأعجوبة.

٤) موريتانيا:

اسم موريتانيا لم يتم ذكره بشكل صريح وواضح في أحداث الرواية. وإنما استنتجنا انخراط موريتانيا في أحداث الرواية من خلال الشرح والوصف الذي قدمه روبنسون عنها في عدة مناسبات، كقوله عنها (بحسب تخميناتي أنا الآن في الدولة التي تقع بين المغرب والزنوج).

لم يتوغل روبنسون في اليابسة الموريتانية، وإنما بعد هروبه من العبودية وبرفقته كزوري، كان يبحر بمحاذاة الساحل الموريتاني، وكان بين الفينة والأخرى يرسو على مناطق من الساحل الموريتاني، من أجل جلب الماء الصالح للشرب، وتحقيق بعض المنافع الأخرى.

٥) السنغال Senegal:

السنغال كدولة وليست كنهر، لم يتم ذكر اسمها هي الأخرى بشكل صريح وواضح في أحداث الرواية. وإنما استنتجنا انخراطها في أحداث الرواية من خلال شروحات وتوصيفات وإيحاءات روبنسون حولها. على الأرجح أن قدمي روبنسون لم يطئا الساحل السنغالي، وإنما اكتفى بوجوده في قاربه على مقربة شديدة من الساحل. أما كزوري فقد نزل إلى الساحل السنغالي أكثر من مرة ليجلب الماء الصالح للشرب.

٦) البرازيل Brazil - Brazils:

حين ذهب روبنسون إلى البرازيل، كانت البرازيل آنذاك مجموعة من المستعمرات البرتغالية. أي بمفهوم الجغرافيا القديمة لم تكن البرازيل دولة مستقلة، أما بمفهوم الجغرافيا الحديثة المعاصرة، فالبرازيل اليوم هي دولة اتحادية مستقلة.

بعد أن فر روبنسون من عبوديته، حمله القبطان البرتغالي على ظهر سفينته إلى البرازيل. كان روبنسون بمثابة المهاجر من العالم القديم (الواضح المعالم)، إلى العالم الجديد (الغير مكتمل الوضوح بعد). لقد انسجم روبنسون في حياته مع نمط الحياة في البرازيل، وسرعان ما ذاب وانصهر في بوتقة التعدد الإثني والأنثروبولوجي، التي كان ولا زال يتميز بها المجتمع البرازيلي.

٧) الجزيرة الكاريبية:

هي الجزيرة التي قضى فيها روبنسون ثمانية وعشرين عامًا من العزلة. بحسب التخمينات، تقع هذه الجزيرة بالقرب مما يتعارف عليه اليوم بجزيرة ترينيداد. والطريف في الأمر هو أن روبنسون، بالرغم من توصيفه الجغرافي الدقيق للعديد من الأماكن والمناطق، إلا أنه لم يذكر اسمًا معينًا ليعرف به عن هذه الجزيرة. وبالتالي لا يمكننا التوصل إلى التسمية التي تحملها هذه الجزيرة في عصرنا ووقتنا هذا.

بالفعل كان روبنسون مقصرًا في حق جزيرته، والتي كانت بمثابة المسرح للغالبية العظمى من أحداث الرواية. فقد اهتم روبنسون بذكر تسميات أماكن كثيرة جدًا، بعضها لم تكن ذات أهمية وتأثير في الرواية، إلا أنه وبكل المقاييس يظل مقصرًا في حق جزيرته، التي مكث فوق أرضها ثمانية وعشرين عامًا.

تلك الجزيرة الأطلسية الكاريبية كانت استوائية المناخ، وخالية تمامًا من السكان، باستثناء روبنسون ومن جاء عنده فيما بعد من نفر قلائل. بحسب استكشاف روبنسون لجزيرته من فوق قمم التلال، وجدها ووصفها على النحو التالي:

(جزيرة صغيرة الحجم، يحفها الماء من كل جانب، لا يكاد يرى بجوارها شيء من تشكيلات اليابسة، سوى بعض الصخور المتناثرة، وجزيرتين صغيرتين أخريين أقل منها حجمًا).

بحسب وصف روبنسون لمكان وموقع الجزيرة، نستنتج أنها كانت تقع إلى الشمال قليلًا من سواحل فنزويلا أو غويانا أو دلتا نهر الأورينوكو، أو كما ذكرنا من قبل، بالقرب من جزيرة ترينيداد.

٨) البرتغال Portugal:

هي أول دولة أوروبية بعد إنجلترا يذهب إليها روبنسون في مغامراته. العلاقة بين البرتغال والبرازيل هي علاقة وثيقة جدًا، فكما ذكرنا من قبل، إن البرازيل في عهد روبنسون كروزو، كانت جزءًا من الإمبراطورية البرتغالية المترامية الأطراف.

عندما أراد روبنسون أن يعرف مصير مزارعه في البرازيل، توجه مباشرة إلى البرتغال، لأن البرازيل في ذلك العصر كانت تابعة إداريًا للحكومة البرتغالية المركزية في لشبونة.

جاء روبنسون إلى البرتغال قادمًا من إنجلترا، في رحلة بحرية عبر مياه الأطلسي، لكنه عندما بارح البرتغال عائدًا إلى إنجلترا، سلك الطرق البرية مارًا باليابستين الأسبانية والفرنسية.

٩) أسبانيا Spain:

كانت أسبانيا ثاني دولة أيبيرية بعد البرتغال، تطأ أرضها قدمي روبنسون كروزو. وكانت ثالث دولة أوروبية في ذلك الشأن بعد كل من إنجلترا والبرتغال. مر روبنسون باليابسة الأسبانية في طريق عودته من البرتغال إلى بلاده إنجلترا. بدءًا من مدريد وحتى دخوله الحدود الفرنسية، مر روبنسون بالعديد من المدن والقرى الأسبانية، لكنه لم يستقر مطلقًا في أي من هذه المدن أو القرى، مكتفيًا بالمرور فحسب.

١٠) فرنسا France:

هي آخر دولة وصل إليها روبنسون في رحلته البرية، قبل أن يصل إلى بلده إنجلترا. كانت فرنسا ولا زالت بمثابة الفاصل الثقافي والحضاري بين دولتي أيبيريا في الجنوب، والجزر البريطانية

في الشمال، لم يستقر روبنسون في أي من المدن أو القرى الفرنسية، وإنما مر بها مجرد مرور العابر المسافر، أي كما فعل في أسبانيا تمامًا.

١١) يورك York:

تقع مدينة يورك في شمال إنجلترا، وهي ليست مدينة ساحلية. يورك هي المدينة التي ولد فيها روبنسون كروزو، وهي المدينة التي عاش فيها أهل روبنسون كروزو وأسرته.كما وأنها المدينة التي انطلق منها روبنسون لأداء مغامراته.

١٢) هل Hull:

تقع مدينة هل في الناحية الشمالية الشرقية من اليابسة الإنجليزية، وهي مدينة ساحلية، وهي بالمناسبة ليست ببعيدة عن مدينة يورك. بعد خروج روبنسون من يورك توجه مباشرة إلى هل، ومن ميناء هل بدأ رحلته البحرية التي كانت مزمعة إلى لندن.

١٣) كرومر Cromer:

تقع مدينة كرومر شرقي إنجلترا، وهي مدينة ساحلية، تعد أحد مدن الساحل الشرقي لإنجلترا. بعد تعثر الرحلة البحرية التي كان روبنسون من ضمنها، وبعد فشلها في استكمال المشوار نحو لندن. نزلت الرحلة اضطراريًا عند ساحل كرومر.

١٤) يارموث Yarmouth:

تقع في أقصى شرق إنجلترا، وهي مدينة ساحلية، تعد أحد أهم مدن الساحل الشرقي لإنجلترا. بعد نزول روبنسون وبقية المسافرين معه اضطراريًا عند ساحل كرومر، لم يواصلوا مسيرتهم إلى لندن بحرًا، بل توجهوا جميعًا إلى يارموث سيرًا على الأقدام. وفي يارموث تفرق روبنسون عن من سافر برفقتهم، وقرر استكمال الطريق نحو لندن لوحده، وعبر الطرق البرية.

١٥) لندن London:

هي عاصمة إنجلترا، أما عن الموقع، فتقع لندن في الطرف الجنوبي من اليابسة الإنجليزية. وبفضل نهر التيمز Thames، لا تبتعد لندن كثيرًا عن الساحل الشرقي لإنجلترا.

كانت لندن هي آخر المحطات الداخلية التي وصل إليها روبنسون، قبل أن يستهل رحلاته ومغامراته الخارجية. بالفعل كانت لندن بمثابة نقطة التحول في حياة وسيرة روبنسون كروزو، فمن خلال لندن خرج روبنسون من نطاق الرحلات المحلية والداخلية، وانطلق إلى فضاء رحب وواسع من الرحلات والمغامرات الخارجية والدولية. بالفعل بدأ روبنسون رحلاته تجاه العالم الخارجي من لندن، وذلك عندما أبحر منها إلى شواطئ غينيا.

١٦) سلا Sallee:

مدينة مغربية تقع على ساحل المحيط الأطلسي. أمضى روبنسون سنتين من عمره، عبدًا مملوكًا عند سيده في تلك المدينة، قبل أن يفر إلى مياه الأطلسي ويحرر نفسه من نير العبودية. بهويتها الإسلامية والغير أوروبية، تمثل سلا نموذجًا مغايرًا لكافة المدن الأخرى التي مر بها روبنسون في مغامراته.

١٧) سلفادور St. Salvador:

مدينة برازيلية تقع على ساحل المحيط الأطلسي، وهي عاصمة ولاية باهيا Bahia. كانت سلفادور هي الميناء المعتمد عند روبنسون ورفاقه من الزراع والتجار في البرازيل. وعلى الأغلب كان ميناء سلفادور، هو الميناء الذي انطلقت منه رحلة روبنسون ورفاقه. وهي الرحلة التي كانت مزمعة إلى ساحل غينيا، بهدف جلب العبيد من هناك.

١٨) لشبونة Lisbon:

عاصمة البرتغال الحديث، وعاصمة الإمبراطورية البرتغالية إبان العصور الاستعمارية. فضلًا عن ذلك، لشبونة مدينة ساحلية تقع غربي البلاد، وتطل على المحيط الأطلسي.

بعد انتهاء فترة تشرده الطويلة وبعد عودته إلى بلاده انجلترا، قرر روبنسون أن يذهب إلى لشبونة، كي يتعرف على المصير الذي آلت إليه مزارعه وأعماله في البرازيل. فسافر روبنسون من إنجلترا إلى لشبونة بحرًا عبر مياه الأطلسي، وكان برفقته فرايدي. وبعد أن أنهى روبنسون إجراءاته في لشبونة، عاد أدراجه إلى إنجلترا، ولكن هذه المرة برفقة مجموعة من المسافرين، وليس عن طريق البحر، وإنما عبر السبل البرية، مارًا في طريقه باليابستين الأسبانية والفرنسية.

١٩) مدريد Madrid:

عاصمة أسبانيا، وثاني عاصمة أيبيرية يزورها روبنسون بعد لشبونة. تقع مدريد في قلب اليابسة الأسبانية، وهي مدينة حبيسة ليست لها أية سواحل. كانت مدريد أول محطة هامة يصل إليها روبنسون، بعد مغادرته للبرتغال في رحلته البرية.

٢٠) بامبلونا Pampeluna:

تقع في أقصى شمال أسبانيا، وهي مدينة حبيسة ليست ذات سواحل، وتعد كذلك عاصمة إقليم نافارا. مر روبنسون بمدينة بامبلونا في رحلته البرية، وتحديدًا عندما كان في طريقه من أسبانيا إلى الحدود الجنوبية لفرنسا.

٢١) تولوز Toulouse:

مدينة هامة تقع في جنوب فرنسا، وهي ليست ساحلية. بعد تخلص روبنسون ورفاقه في السفر من الأخطار والأهوال العظيمة، التي واجهوها أثناء اجتيازهم جبال البرانس. ذهبوا مباشرة إلى تولوز، وبعد ذلك تحركوا من تولوز شمالًا باتجاه باريس.

٢٢) باريس Paris:

عاصمة فرنسا، تقع في الشمال، وهي مدينة حبيسة ليس لها سواحل على أي نوافذ مائية كبرى. بعد قدوم روبنسون ومن معه من تولوز إلى باريس، لم يمكثوا في باريس مطلقًا، بل توجهوا مباشرة شمالًا نحو كاليه.

٢٣) كاليه Calais:

مدينة ساحلية، تشرف بسواحلها على القنال الإنجليزي، وتقع في أقصى شمال اليابسة الفرنسية. كانت كاليه آخر المحطات التي وصل إليها روبنسون، في رحلته البرية داخل فرنسا. وانطلق روبنسون من كاليه ليعبر القنال الإنجليزي باتجاه دوفر.

٢٤) دوفر Dover:

هي مدينة ساحلية، تقع في أقصى الجنوب الشرقي لليابسة الإنجليزية. تقع دوفر على الضفة الإنجليزية للقنال الإنجليزي، أي مقابل مدينة كاليه الفرنسية. كانت دوفر أول مدينة إنجليزية تطأها قدمي روبنسون، في رحلته البرية التي بدأهْ من لشبونة.

٢٥) نافارا Navarre:

يقع إقليم نافارا في أقصى شمال أسبانيا، أي إلى الجنوب من الحدود الفرنسية. بامبلونا هي عاصمة الإقليم. مر روبنسون بإقليم نافارا عندما كان في طريقه من أسبانيا إلى فرنسا، وذلك في رحلته البرية، التي انطلقت من البرتغال.

٢٦) ونترتون نيس Winterton Ness:

منطقة تقع على الساحل الشرقي لإنجلترا، بالقرب من مدينة كرومر. على الأغلب أن روبنسون نزل عند شاطئ ونترتون نيس أو مر بها، وذلك عندما لجأ هو وأفراد الرحلة المنكوبة اضطراريًا إلى مدينة كرومر.

٢٧) يوركشاير Yorkshire:

إقليم أو منطقة جغرافية كبرى، تقع شمال إنجلترا، وتضم في رقعتها الممتدة مدن إنجليزية عديدة. لعل من أبرزها مدينتي هل، ويورك (مسقط رأس روبنسون).

بعد عودة روبنسون من الجزيرة الكاريبية إلى إنجلترا، ذهب مباشرة إلى يوركشاير، كي يتفقد أحوال أهله هناك. وحينها وجد والديه قد فارقا الحياة، ولم يجد سوى اثنتين من أخواته، واثنين من أبناء أخيه.

٢٨) ساحل أفريقيا Coast of Africa:

المقصود بساحل أفريقيا في هذه الرواية، هو الساحل الغربي لأفريقيا. أي ساحل أفريقيا المطل على المحيط الأطلسي. وقد كان لروبنسون تجارب عديدة مع هذا الساحل. بداية من زيارته لساحل غينيا، والذي يعد جزءًا من هذا الساحل الكبير. ثم تجربة أسره واستعباده في منطقة ما من الساحل المغربي، أو ساحل مدينة سلا بالتحديد. وحتى عندما نجح روبنسون في الفرار من عبوديته، لجأ على الأرجح إلى مواضع من ساحلي موريتانيا والسنغال، وذلك من أجل الحصول على مياه الشرب.

٢٩) الساحل البربري Barbarian Coast:

هو اسم تاريخي، أطلقه الأوروبيون على ساحل شمال أفريقيا. كان الساحل المغربي وساحل مدينة سلا بالتحديد، جزءًا من ذلك الساحل البربري الكبير. وكما نعلم أن روبنسون كانت له تجربة مع ساحل مدينة سلا.

٣٠) خليج جميع القديسين All Saints Bay:

يقع خليج جميع القديسين في ولاية باهيا البرازيلية، مدينة سلفادور المطلة على المحيط الأطلسي، هي أحد أبرز معالم ذلك الخليج. وقد كان خليج جميع القديسين، أول مكان يصل إليه روبنسون عند قدومه إلى البرازيل.

٣١) جزر الكاريبي Caribbee Islands:

هي الجزر التي تقع ضمن البحر الكاريبي، ويسميها البعض جزر الهند الغربية. في أحداث الرواية تم التطرق إلى أسماء العديد من هذه الجزر، كبربادوس وترينيداد. أما الجزيرة الكاريبية التي لا نعرف اسمها لحد الآن، فهي الأكثر أهمية، لأنها هي الجزيرة التي أمضى روبنسون فوق يابستها ثمانية وعشرين عامًا من العزلة. إذًا في خلاصة الحديث، يمكننا القول أن روبنسون أمضى ثمانية وعشرين عامًا من التيه والعزلة، قضاها في غياهب الكاريبي.

٣٢) جبال البرانس Pyrenean Mountains:

سلسلة من الجبال الوعرة، تقع شمال أسبانيا وجنوب فرنسا. مر روبنسون بجبال البرانس وعبرها هو ورفاقه في السفر. وذلك عندما كان في رحلته البرية، وبالتحديد عندما كان في طريقه من أسبانيا إلى فرنسا.

٣٣) الرأس الأخضر Cape de Verde:

دولة مستقلة تتألف من أرخبيل من الجزر، وتتبع قارة أفريقيا. تقع جزر الرأس الأخضر في المحيط الأطلسي، وتحديدًا إلى الغرب من سواحل السنغال وموريتانيا. عندما فر روبنسون من عبوديته، وأبحر بمحاذاة الساحل الأفريقي متوجهًا نحو الجنوب، كان يسعى للوصول إلى أقرب نقطة ممكنة من جزر الرأس الأخضر، وذلك لعلمه بالتواجد الكثيف للسفن الأوروبية في منطقة ومحيط هذه الجزر.

٣٤) بربادوس Barbadoes:

هي الآن دولة مستقلة، وأحد جزر الكاريبي في نفس الوقت. عندما فشلت السفينة في التوجه نحو ساحل غينيا، وجرفها المحيط باتجاه جزر الكاريبي، اقترح روبنسون على طاقم السفينة ألا يحاولوا العودة إلى ساحل البرازيل، وأن يهتدوا بدلًا من ذلك، إلى شواطئ أحد الجزر الكاريبية الإنجليزية (الأملاك الإنجليزية في الكاريبي آنذاك)، كبربادوس مثلًا.

٣٥) غويانا Guiana:

هي دولة تقع شمال البرازيل، وشمال قارة أمريكا الجنوبية عمومًا. عندما فشلت السفينة في التوجه نحو ساحل غينيا وجرفها المحيط باتجاه الغرب، قدر قائد السفينة وبناءً على القياسات التي أجراها، أن سفينته ربما تكون قد صارت، في المياه المقابلة لساحل غويانا.

٣٦) ترينيداد Trinidad:

هي جزيرة كاريبية، تقع إلى الشمال قليلًا من ساحل فنزويلا. بناءً على المعلومات الجغرافية التي أخذها عن فرايدي، وبناءً على استنتاجاته المسبقة، توقع روبنسون أن جزيرته ربما تقع، إلى الشرق قليلًا من جزيرة ترينيداد.

٣٧) مصر Egypt:

هي الدولة العربية والأفريقية التي نعرفها جميعًا، لم يكن لها مطلقًا أي علاقة بمجريات أحداث الرواية. وإنما ورد ذكر اسم مصر في الرواية، من خلال حديث الرجل الأسباني لروبنسون. وذلك عندما قال الأسباني مخاطبًا روبنسون: (كما تعلم أن بني إسرائيل في البداية فرحوا وكانوا ممتنين للرب، لأنه أخرجهم من مصر، ولكنهم سرعان ما ثاروا على الرب نفسه وعصوه).

٣٨) الهند East Indies:

بالتأكيد نقصد بالهند، تلك الدولة العظمى التي تقع جنوب آسيا. أيًا من أحداث الرواية لم يقع فوق أرض الهند، ولكن تمت الإشارة إلى الهند مرتين في أحداث الرواية. المرة الأولى كانت عندما قال روبنسون، أن الكثير من السفن الأوروبية التي تمر بجزر الرأس الأخضر تكون وجهتها إلى الهند. والمرة الثانية كانت في نهاية الرواية، عندما ذكر روبنسون أنه سوف يبحر إلى الهند كتاجر.

٣٩) جامايكا Jamaica:

هي الآن دولة مستقلة، وهي كذلك جزيرة كبيرة، تقع شمال البحر الكاريبي، وإلى الجنوب من كوبا. تم التطرق إلى ذكر جامايكا، في خضم مساعي روبنسون والقبطان الإنجليزي، من أجل استعادة السفينة المختطفة. فقد كان القبطان الإنجليزي يفكر في أن يبحر بسفينته بعد أن يستعيدها، إلى جامايكا.

٤٠) ألمانيا Germany:

بالتأكيد ألمانيا هي تلك الدولة الأوروبية الكبرى ، التي نعرفها جيدًا. وما لا شك فيه أن ألمانيا كمكان، كانت بعيدة كل البعد عن مجريات أحداث الرواية. لكن روبنسون تطرق بشكل عابر في هذه الرواية إلى اسم ألمانيا، وذلك ضمن تعليقه على قيام فرايدي بقطع رأس أحد المتوحشين بضربة سيف واحدة. إذ قال روبنسون حينها: (لا يوجد هناك منفذ أحكام إعدام في ألمانيا، باستطاعته أن يفعل ذلك بشكل أسرع أو أفضل من فرايدي).

٤١) جزر ليوارد Leeward Islands:

الليوارد، هي تسمية تطلق على جزر الأنتيل الصغرى الشمالية، مثل أنتيجوا وبربودا Antigua and Barbuda وسانت كيتس ونيفيس Saint Kitts and Nevis وغيرها من الجزر المجاورة.

أي من أحداث الرواية لم يقع في أي من جزر الليوارد. لكن تسمية جزر الليوارد وردت في الرواية، عندما قال روبنسون أنه يستطيع إصلاح الخرق الذي أحدثه هو ورفاقه في القارب، بحيث يتعافى هذا القارب، ويصير بمقدوره أن يبحر ويصل لمسافات بعيدة، كجزر الليوارد مثلًا.

٤٢) بريمن Bremen:

مدينة تقع في شمال ألمانيا. أيًا من أحداث الرواية لم يقع في مدينة بريمن. لكن روبنسون ذكرها في السطور الأولى من الرواية، وتحديدًا عندما قال، أن أصول والده تنحدر أساسًا من بريمن.

٤٣) دونكيرك Dunkirk:

مدينة ساحلية، تقع في أقصى نقطة من الشمال الفرنسي. أيًا من أحداث الرواية لم يقع في دونكيرك. لكن روبنسون تطرق إلى اسم المدينة في السطور الأولى من الرواية، وتحديدًا عندما قال أن أحد أخويه كان عسكريًا، وقد لقي حتفه في معركة بالقرب من دونكيرك.

٤٤) نيوكاسل Newcastle:

مدينة تقع في شمال إنجلترا. لم يذهب روبنسون إلى تلك المدينة، ولم تصل مغامراته إلى هناك. لكن عندما كان روبنسون في رحلته البحرية الداخلية، المتوجهة إلى لندن، ذكر أن رحلته قابلت في طريقها، العديد من السفن القادمة من نيوكاسل.

٤٥) القدس Jerusalem:

القدس كما نعلم هي عاصمة دولة فلسطين. بدون شك كانت القدس بموقعها المنحاز إلى الشرق، بعيدة تمامًا عن الساحة الرحبة التي تتنقل فيها أو تدور أحداث الرواية.

لكن عندما قام روبنسون بقطع شجرة الأرز العملاقة، تساءل مع نفسه قائلًا: (هل استخدم سليمان مثل هذه الشجرة في بناء هيكل القدس؟).

٤٦) بيونس ايرس Buenos Ayres:

هي عاصمة الأرجنتين، وتطل بشواطئها على المحيط الأطلسي، عبر خور ريو دي لا بلاتا. أي من أحداث الرواية لم يتجاوز البرازيل جنوبًا ليبلغ الأرجنتين. لكن روبنسون ذكر بيونس ايرس، عندما تحطمت السفينة الأسبانية على مقربة من جزيرته المنعزلة. إذ خمن روبنسون

حينها أن تلك السفينة الأسبانية، ربما تكون قد أبحرت من بيونس ايرس أو خور ريو دي لا بلاتا، باتجاه هافانا.

٤٧) هافانا Havannah:

تطل بشواطئها على الجهة الشرقية من خليج المكسيك، وهي عاصمة كوبا. صحيح أن أي من أحداث الرواية لم يتجاوز الكاريبي شمالًا ليبلغ كوبا. لكن روبنسون تطرق إلى ذكر هافانا في أحداث الرواية، وذلك عندما توقع أن السفينة الأسبانية المنكوبة، ربما كانت وجهتها من مكان ما في أمريكا الجنوبية إلى هافانا.

٤٨) نهر الأمازون The River Amazon:

نهر عملاق يجري في قارة أمريكا الجنوبية، ويصب في المحيط الأطلسي. يعد الأمازون أضخم نهر في العالم، وثاني أطول نهر بعد النيل. تحدث روبنسون عن نهر الأمازون، عندما وصف الموقع الذي آلت إليه السفينة، بعد انحرافها عن وجهتها المقررة إلى سواحل غينيا. إذ قال روبنسون حينها، أن السفينة وبحسب تقديرات القبطان، ربما تكون في المياه المقابلة لساحل غويانا، أو في مكان ما وراء مصب نهر الأمازون[1].

٤٩) نهر أورينوكو The River Orinoco:

يعتبر أحد أضخم وأطول الأنهار، التي تجري في قارة أمريكا الجنوبية. الكم الأكبر من مساحة النهر تقع ضمن اليابسة الفنزويلية. ويصب النهر في المحيط الأطلسي، عبر فنزويلا أيضًا. تطرق روبنسون بالذكر إلى نهر الأورينوكو في مرات عديدة. وتحديدًا عندما قال، أن السفينة التي انحرفت عن وجهتها المقررة إلى سواحل غينيا، ربما صارت في المياه المقابلة لمصب نهر أورينوكو. وكذلك عندما استنتج أن جزيرته المنعزلة، لا تبتعد كثيرًا عن مصب الأورينوكو.

---

(1) أي إلى الغرب من مصب نهر الأمازون.

٥٠) خور ريو دي لا بلاتا Rio de la Plata:

هو خور تصب من خلاله مجموعة من الأنهار في المحيط الأطلسي، وهو يمثل جزءًا كبيرًا من الحدود الفاصلة بين الأرجنتين جنوبًا وأوروغواي شمالًا. تحدث روبنسون عن خور ريو دي لا بلاتا، وذلك عندما توقع أن السفينة الأسبانية المنكوبة، ربما تكون قد أبحرت من هناك.

٥١) رأس سانت أوغسطين Cape St. Augustino:

يقع في أقصى الطرف الشمالي الشرقي لليابسة البرازيلية، ويشرف بساحله على المحيط الأطلسي. تحدث روبنسون عن رأس سانت أوغسطين، في رحلته التي خرج فيها من البرازيل. وتحديدًا عندما ذكر، أن رحلته أبحرت في المياه المقابلة لرأس سانت أوغسطين.

٥٢) جزر فرناندو دي نورونها Fernando de Noronha:

هي مجموعة من الجزر الأطلسية الصغيرة جدًا، تتبع البرازيل، وتقع بمحاذاة الساحل الشمالي الشرقي للبرازيل، أي بالقرب من رأس سانت أوغسطين. تحدث روبنسون عن جزر فرناندو دي نورونها، عندما كان في رحلته التي خرج فيها من البرازيل. وتحديدًا عندما ذكر أن رحلته مرت بجوار هذه الجزر، من ناحية الغرب.

٥٣) الجزر الإنجليزية English Islands:

هي الجزر الكاريبية التي كانت قبل استقلالها تخضع للإدارة الإنجليزية، وتتبع انجلترا. كان هناك الكثير من الجزر الكاريبية الإنجليزية كبربادوس، وجامايكا، وأنتيجوا وبربودا، وسانت كيتس ونيفيس، وغيرها من الجزر.

عندما انحرفت السفينة عن مسارها المقرر إلى ساحل غينيا، وجرفها المحيط غربًا باتجاه الكاريبي، حاول طاقم السفينة الاهتداء إلى شواطئ أحد الجزر الإنجليزية، طلبًا للنجاة والأمان.

٥٤) خليج المكسيك Gulf of Mexico:

هو جسم مائي ضخم، تحيط به اليابستين الأمريكية والمكسيكية من معظم الجهات. ورد ذكر خليج المكسيك في الرواية، عندما انحرفت السفينة عن مسارها المقرر إلى ساحل غينيا، وجرفها المحيط غربًا نحو الكاريبي. حينها قال روبنسون أن طاقم السفينة، خشي الاقتراب من التيارات الجرارة لخليج المكسيك.

٥٥) سانتا مارتا St. Martha:

مدينة تقع شمال كولومبيا، وتطل بشواطئها على البحر الكاريبي. عندما أراد روبنسون أن يصف موقع وامتداد منطقة الكاريبي، قال أنها تمتد من غويانا ومصب نهر الأورينوكو شرقًا حتى سانتا مارتا غربًا.

٥٦) نهر السنغال Senegal River:

يعد أحد أطول الأنهار في قارة أفريقيا، ينبع من مرتفعات غينيا ويصب في المحيط الأطلسي. كما ويمثل الحدود الطبيعية الفاصلة بين دولتي السنغال وموريتانيا.

بعدما فر روبنسون من عبوديته في سلا، وبعدما هرب بمحاذاة الساحل الأفريقي باتجاه الجنوب. أراد أن يصل إلى منطقة نهر السنغال أو نهر غامبيا، كي يبحر من هناك إلى منطقة جزر الرأس الأخضر.

٥٧) نهر غامبيا Gambia River:

ينبع من مرتفعات غينيا، ويصب في المحيط الأطلسي، عبر ساحل غامبيا. بعدما فر روبنسون من عبوديته، وبعدما هرب بمحاذاة الساحل الأفريقي باتجاه الجنوب. أراد أن يصل إلى منطقة نهر غامبيا أو نهر السنغال، كي يبحر من هناك إلى منطقة جزر الرأس الأخضر.

٥٨) جزر الكناري Canary Islands:

جزر تقع في المحيط الأطلسي، إلى الغرب قليلًا من السواحل المغربية. جزر الكناري تتبع أسبانيا، وتعد جزءًا من الدولة الأسبانية. أشار روبنسون إلى جزر الكناري عندما كان في رحلته من إنجلترا إلى غينيا. وتحدث عنها كذلك، عندما كان في رحلة فراره من العبودية، متجهًا نحو الجنوب. وتحديدًا عندما قال، أنه وصل إلى مكان ما من الساحل، ربما يكون مقابل لجزر الكناري.

٥٩) جبل تتريف Pico of Teneriffe:

يعتبر أعلى جبل في أسبانيا، كما ويقع في جزيرة تتريف Tenerife (أكبر جزر الكناري). تحدث روبنسون عن هذا الجبل، عندما ذكر أنه رأى قمته، خلال رحلة هروبه من العبودية. أي حينما كان يبحر على مقربة شديدة من الساحل الغربي لأفريقيا.

٦٠) الساحل الأسباني Coast of Spain:

أي من الأحداث البحرية التي تضمنتها الرواية لم يقع في أسبانيا. وبالتالي فإن سائر السواحل والموانئ الأسبانية بمواقعها وامتداداتها المختلفة، لم تشهد أي من أحداث الرواية. عندما قرر روبنسون أن يفر من عبوديته، كان ينوي في البداية أن يفر شمالًا نحو الساحل الأسباني، لكن الاتجاه المعاكس للريح دفعه للفرار جنوبًا، نحو سواحل موريتانيا والسنغال.

٦١) خليج قادش Bay of Cadiz:

هو جزء من الساحل الأيبيري الجنوبي ، المطل على المحيط الأطلسي. ويمثل جزءًا من الساحل الجنوبي لأسبانيا. عندما أراد روبنسون أن يفر من عبوديته باتجاه السواحل الأسبانية، كان يهدف للوصول إلى خليج قادش على أقل تقدير.

٦٢) نهر لشبونة River of Lisbon:

لعل المقصود بذلك النهر هو نهر تاجة Tagus River. ويعد ذلك النهر هو الأطول على مستوى أنهار شبه جزيرة أيبيريا. ينبع نهر تاجة من المرتفعات الأسبانية، ويعبر الأراضي البرتغالية، ليصب في المحيط الأطلسي، عند ساحل لشبونة. تحدث روبنسون عن نهر لشبونة أو نهر تاجة، عندما كان في زيارته إلى لشبونة. إذ قال حينها روبنسون: (إن السفن الراسية في نهر لشبونة جاهزة للإبحار إلى البرازيل).

٦٣) توربای Torbay:

هي منطقة ساحلية تقع جنوب غربي إنجلترا. تحدث روبنسون عن تورباي، عندما كان يخطط للعودة من البرتغال إلى إنجلترا. وتحديدًا عندما ذكر سفينة فقدت بالقرب من تورباي، غرق جميع ركابها، باستثناء ثلاثة منهم فقط نجو بأعجوبة.

٦٤) خليج البسكاي Bay of Biscay:

يعد خليج البسكاي جزءًا من المحيط الأطلسي، وهو يقع بين دولتين اثنتين، هما فرنسا وأسبانيا. اقترح القبطان البرتغالي على روبنسون في نصيحته الأولى، أن يبحر عبر خليج البسكاي (من لاكورونيا إلى روشيل) في طريق عودته من البرتغال إلى إنجلترا. لكن روبنسون لم يأخذ بهذه النصيحة من صديقه القديم القبطان، مفضلًا أن يسلك السبل البرية بشكل كامل، على أن يبحر في مياه خليج البسكاي.

٦٥) اليكانتي Alicant:

مدينة تقع جنوب شرق أسبانيا، وهي في نفس الوقت ميناء هام وتاريخي على البحر الأبيض المتوسط. تطرق روبنسون إلى ذكر مدينة اليكانتي، عندما قام هو وفرايدي والرجل الأسباني بجني كميات كبيرة من العنب، تمهيدًا لتجفيفها تحت وطأة أشعة الشمس، وتحويلها إلى زبيب. وعلى ما يبدو أن اليكانتي كانت تشتهر بهذه الصناعة أو العادة.

٦٦) لاكورونيا Groyne:

مدينة ساحلية تقع في أقصى الشمال الغربي لليابسة الأسبانية، كما وتقع على مشارف خليج البسكاي من جهته الجنوبية. نصيحة القبطان البرتغالي الأولى لروبنسون، كانت أن يبحر من لاكورونيا وأن يعبر البسكاي إلى روشيل الفرنسية. لكن روبنسون كما ذكرنا من قبل، لم يأخذ بهذه النصيحة، مفضلًا خوض رحلة عودته إلى إنجلترا، بشكل كامل عبر السبل البرية.

٦٧) روشيل Rochelle:

مدينة فرنسية ساحلية، تطل على خليج البسكاي. بحسب النصيحة الأولى التي أسداها القبطان البرتغالي لروبنسون، كان عليه أن يبحر من لاكورونيا الأسبانية إلى مدينة روشيل. لكن روبنسون أصر على تشاؤمه من البحر، فلم يأخذ بالنصيحة الأولى للقبطان البرتغالي ، مفضلًا أن يأخذ بالنصيحة الثانية، ألا وهي أن يجعل رحلة عودته إلى إنجلترا، رحلة برية خالصة.

٦٨) فونتاريبيا Fontarabia:

منطقة ساحلية تقع في أقصى شمال أسبانيا، وتطل على خليج البسكاي. عندما وصل روبنسون ورفاقه في السفر إلى مدينة بامبلونا، أخذ روبنسون يفكر جديًا في خوض رحلة بحرية قصيرة من فونتاريبيا إلى بوردو الفرنسية. وذلك من أجل الالتفاف حول جبال البرانس، و تجنب الخوض فيها في ظل الشتاء القارص.

٦٩) بوردو Bordeaux:

مدينة تقع إلى الجنوب الغربي من اليابسة الفرنسية، وبفضل خور جيروندGironde estuary، فهي ليست ببعيدة عن خليج البسكاي. تبادر إلى تفكير روبنسون أن يبحر من فونتاريبيا الأسبانية إلى مدينة بوردو. لكن روبنسون سرعان ما عدل عن هذه الفكرة، مفضلًا سلوك الطرق البرية على الإبحار.

٧٠) غاسكوني Gascony:

مقاطعة فرنسية تاريخية، تقع جنوب غرب فرنسا. عندما كان روبنسون هو ورفاقه في السفر في طريقهم من الشمال الأسباني إلى مدينة تولوز الفرنسية، مروا بمقاطعة غاسكوني.

٧١) لانغيدوك Languedoc:

مقاطعة فرنسية تاريخية، تقع إلى الجنوب من اليابسة الفرنسية، وكانت مدينة تولوز هي عاصمة هذه المقاطعة. تحدث روبنسون عن لانغيدوك عندما رأى ربوعها الخلابة، من فوق جبال البرانس. وبذهابه إلى تولوز يكون روبنسون، قد نزل بلانغيدوك وزارها بالفعل.

٧٢) أوروبا Europe:

تحدث روبنسون في أحداث الرواية مرات عديدة عن قارة أوروبا. ولعل أبرز هذه المرات، عندما ذكر أن السفن المبحرة من أوروبا باتجاه ساحل غينيا، أو البرازيل، أو حتى الهند، جميعها تمر بمنطقة جزر الرأس الأخضر. حتى عندما أخذ روبنسون على عاتقه مهمة تعليم وتثقيف فرايدي، كان يحدثه عن أوروبا.

٧٣) شمال البرازيل The North Part of Brazil:

المقصود بشمال البرازيل في هذه الرواية، هو الساحل الشمالي للبرازيل. وقد تحدث روبنسون عن شمال البرازيل، عندما أخفقت السفينة في التوجه نحو ساحل غينيا، وجرفها المحيط غربًا باتجاه الكاريبي. حينها قال روبنسون أن السفينة ربما صارت، في المياه المقابلة لغويانا أو شمال البرازيل.

٧٤) أمريكا America:

المقصود بأمريكا في هذه الرواية ليس الولايات المتحدة الأمريكية، وإنما أمريكا القارة. ولم يوضح روبنسون إذا ما كان يقصد أمريكا الشمالية أم الجنوبية. لكن دعونا نستنتج أنه بكلمة أمريكا كان يقصد الأمريكيتين معًا بدون تجزيء، أو ربما كان يقصد أمريكا اللاتينية.

تحدث روبنسون عن أمريكا، عندما ذكر أنه هو ورفاق المحنة قد أمسكوا بخارطة أمريكا، وراحوا يبحثوا عن مكان مناسب لترسو عليه سفينتهم، التي جرفها المحيط غربًا. وذكر روبنسون أمريكا مرة أخرى، وذلك عندما تحدث عن الأعمال البربرية والوحشية، التي ارتكبها الأسبان في أمريكا.

٧٥) ساحل الكاريبي Caribbean Coast:

ذكر روبنسون ساحل الكاريبي، وذلك عندما قال: (سمعت من قبل أن ساكني ساحل الكاريبي، هم من المتوحشين وآكلي لحوم البشر).

٧٦) البلاد الشمالية Northern Countries:

المقصود بالبلاد الشمالية في هذه الرواية، هو بلاد شمال أوروبا، وربما بلاد نورديا أو اسكندنافيا تحديدًا. تطرق لها روبنسون بالذكر، عندما قال أن الثلج في شمال أسبانيا كان يملأ الشوارع وبكثافة، لكنه كان ثلجًا هشًا تغوص فيه الأقدام، وليس كثلج البلاد الشمالية، والذي عادة ما يكون متماسكًا ومتحجرًا وفي غاية الصلابة.

****

إنجلترا كدولة، والمدن الإنجليزية بداخلها كلندن ويورك وهل ونيوكاسل وغيرها، كانت جميعها تعني الوطن بالنسبة لروبنسون. نعم التراب الإنجليزي كله، كان يعني الوطن بالنسبة لروبنسون.

إنجلترا ومدنها في عهد روبنسون، كانت ترمز بالتأكيد إلى الثقافة الأوروبية البيضاء، والمسيحية البروتستانتية، والسلالة القوقازية، والجذور البريطانية والأنجلوساكسونية.

أوروبا كانت هي القارة التي انطلقت منها مغامرات روبنسون. أما أمريكا (دعونا نفترض أنها أمريكا اللاتينية)، فقد كانت القارة التي استضافت الكم الأكبر من مغامرات روبنسون

وأحداث الرواية. الفرق بين كلا القارتين يبدو واضحًا وجليًا. فأوروبا تعد جزءًا من العالم القديم. ولولا أوروبا لما اكتشف العالم الجديد. ولولا المهاجرين الأوروبيين، لما كانت هناك مجتمعات بالشكل الذي نعهده اليوم فوق أرض أمريكا.

في المقابل، تعد أمريكا جزءًا من العالم الجديد، والذي اهتدت إليه سفن المستكشفين قبل قرون قليلة فقط. وكما ذكرنا، لولا حركات الهجرة الأوروبية، لما كانت هناك مجتمعات كالتي نعهدها اليوم، قائمة فوق الأراضي الأمريكية. فغالبية سكان الأمريكيتين اللتان نعهدهما اليوم، هم من أصول أوروبية.

في عهد روبنسون، كانت أوروبا تمثل الحضارة والتقدم والنهضة والعلم. أما أمريكا فقد كانت عبارة عن قطع من اليابسة، تسكنها جماعات من المهاجرين وأقوام من البدائيين المتخلفين. آنذاك كان يكتنف أمريكا الكثير من الغموض وفي مختلف الجوانب، وبالتالي كانت أمريكا في حاجة إلى المزيد من استكشافات ومعالجات الأوروبيين لها.

باختصار شديد يمكننا القول، أن أوروبا في عهد روبنسون كانت ترمز إلى النور والوضوح، بينما أمريكا ترمز إلى الظلام والغموض. بالرغم من هذا، أمريكا بالنسبة للمهاجر الأوروبي كانت تعني البشرى والطموح والأمل. لكن في نظر سكان أمريكا الأصليين، كان المهاجر الأوروبي الأبيض، دلالة على الشؤم والشر.

بما أن اسم أفريقيا ورد أيضًا في أحداث هذه الرواية، علاوة على أن كثير من أحداث الرواية وقعت هناك في القارة السمراء. نقول أن أفريقيا كانت تجمع آنذاك، بين عدة عوامل مشتركة مع كل من أوروبا وأمريكا. فأفريقيا تمثل العالم القديم ولها باع طويل في التاريخ الحضاري والإنساني، أي تمامًا كأوروبا. لكنها كانت تشترك مع أمريكا بعض الشيء في خصائص عديدة، مثل الغموض والتخلف والمعاناة من الاستعمار والاستغلال الأوروبي.

فرنسا كدولة، والمناطق والمقاطعات والمدن الفرنسية بداخلها، مثل لانغيدوك وغاسكوني وباريس وتولوز وبوردو وغيرها، كانت تمثل الحضارة والثقافة التي طالما وضعت نفسها في مكانة الند بالنسبة للثقافة والحضارة الإنجليزية.

التنافس بين الفرنسيين والإنجليز كان محتدمًا وتاريخيًا، في مختلف الميادين والمجالات. لكن روبنسون تحدث عن فرنسا وعن أحداث الرواية التي وقعت في فرنسا، بلا حساسية تذكر وبلا تعصب، وإنما تحدث عنها بأريحية تامة وهدوء.

فرنسا وكل ما يمت إليها بصلة من مناطق ومقاطعات ومدن، جميعها تمثل الثقافة الأوروبية البيضاء ذات المزايا الفرنكية والبحر متوسطية، والمسيحية الكاثوليكية، والسلالة القوقازية، وأشياء أخرى غير ذلك.

الكولونيالية الإنجليزية والكولونيالية الفرنسية، كل منهما بسطت سيطرتها على أجزاء هائلة من رقعة العالم. ففي ذلك المجال تنافست كلتا الدولتين أو الإمبراطوريتين، وسعت كل منهما إلى تعزيز هيمنة ونفوذ ثقافتها الخاصة، على حساب الثقافة الأخرى المنافسة.

لكن ديفو في سائر أحداث الرواية لم يتطرق مطلقًا إلى المستعمرات الفرنسية، مركزًا اهتمامه على فرنسا الدولة فحسب. على العكس تمامًا من ذلك، أعطى ديفو اهتمامًا أكبر في روايته لكل من أسبانيا والبرتغال بجانب إنجلترا. فقد ركزت أحداث الرواية كثيرًا على الدولتين الأسبانية البرتغالية، وعلى الكولونياليتين الأسبانية والبرتغالية ما وراء البحار، على حد سواء.

أسبانيا والبرتغال، والمدن والمناطق الأسبانية والبرتغالية بداخلهما، ترمز جميعها إلى الثقافة الأوروبية البيضاء، والبيئة الأيبيرية الهسبانية، والمسيحية الكاثوليكية، والسلالة القوقازية، وأشياء أخرى غير ذلك.

خالط روبنسون في أحداث الرواية، الكثير من الشخصيات الأسبانية والبرتغالية. وكي لا ننسى فإن أمريكا اللاتينية التي صال روبنسون وجال فيها، كانت في أيامه وفي عهده، تابعة إداريًا لكل من أسبانيا والبرتغال. وبالتالي تعرف روبنسون خلال مغامراته الأمريكية، على كثير من جوانب الثقافات الأسبانية والبرتغالية، وتعلم بعضًا من مفردات اللغتين الأسبانية والبرتغالية.

كانت البرتغال وكان البرتغاليين فألًا حسنًا على روبنسون. فالقبطان البرتغالي هو الذي نشل روبنسون من المعاناة، ومد له يد المساعدة في مناسبات عديدة. ومن خلال رحلته إلى البرتغال، استعاد روبنسون أمواله التي كانت في حكم الضائعة في البرازيل. وإن كان بدرجة أقل، كانت أسبانيا وكان الأسبانيين أيضًا، فألًا حسنًا على روبنسون. فالأدوات والمنافع التي جلبها روبنسون من حطام السفينة الأسبانية، خدمته كثيرًا في حياته على أرض الجزيرة. والرجل الأسباني الذي جاء في نهاية الرواية إلى الجزيرة، خفف كثيرًا من وحدة روبنسون ويأسه وقنوطه.

جزر الكناري تتبع الدولة الأسبانية، لكنها جغرافيًا تقع خارج نطاق يابسة شبه الجزيرة الأيبيرية. وبحكم وقوع هذه الجزر في مياه الأطلسي وبالقرب من الساحل الأفريقي، نجد مجتمع هذه الجزر يتميز ببعض السمات الثقافية الخاصة والفارقة عن المجتمعات الأم في أسبانيا.

أما عن رمزية جزر الكناري بالنسبة لروبنسون، فقد كانت قمة جبل تريف (أعلى جبال جزر الكناري وأسبانيا عمومًا)، تمثل أفق الحرية والخلاص الذي ينشده روبنسون ويتمناه، وسراب النجاة الذي يلهث وراءه دون أن يدركه.

كما ذكرنا من قبل، لم يذكر روبنسون اسمًا واضحًا للجزيرة التي انعزل فيها عن العالم لمدة ثمانية وعشرين عامًا. وبالتالي لا يمكننا من خلال مسميات الجزر المتداولة في الجغرافيا الحديثة، أن نستنتج أو نحدد اسمًا بعينه لهذه الجزيرة.

لكن الجزيرة على أية حال وبحسب وصف روبنسون، تقع إلى الشمال قليلًا من ساحل غويانا أو فنزويلا، أي على مشارف البحر الكاريبي من جهته الجنوبية الشرقية. وكي لا ننسى، ذكر روبنسون أن الجزيرة، لا تبتعد كثيرًا عن.ما هو متعارف عليه اليوم بدولة ترينيداد وتوباغو.

عندما لجأ روبنسون إلى شواطئ الجزيرة، وجدها قليلة المساحة، وغير مأهولة بالسكان. فعانى روبنسون في بداية عيشه فوق أرض الجزيرة أشد معاناة.

في بادئ معيشته على أرض الجزيرة، كانت الجزيرة توحي إلى روبنسون بالغموض والمشقة واستحالة البقاء. لكن مع استكشافاته المتكررة للجزيرة، وتعرفه بأثر ذلك على مواردها ومقدراتها. تمكن روبنسون من تدجين الجزيرة واستئناسها. فأخذ غموض الجزيرة ومشقة العيش فوق أرضها، يزولان تدريجيًا.

الانعزال والوحدة فوق أرض الجزيرة هذبا سلوك روبنسون كثيرًا، وعلماه الصبر والحكمة. فتاب عن خطاياه السابقة، وصار أكثر تدينًا عن ذي قبل.

الجزيرة في البداية كانت توحي لروبنسون بالوحدة والخوف والذعر والاكتئاب والملل. لكن بعد نجاح روبنسون في تدجين واستئناس الحياة على أرض الجزيرة. وبعد قطعه لدابر المتوحشين آكلي لحوم البشر. وبعد نجاحه في جلب بعض الأدوات والإمكانات من حطام السفينتين المنكوبتين. وبعد نجاحه في استقطاب سكان جدد، يدبوا بأقدامهم فوق أرض الجزيرة. كسر روبنسون وحدته، وصار بجواره من يشاركونه الحياة على أرض الجزيرة. وبذلك بدأ روبنسون يتخلص من الوحدة والملل والخوف والذعر. وصار اجتماعيًا، آمنًا مستقرًا، و مطمئنًا. فلم تعد الجزيرة تعني لروبنسون ما كانت تعنيه له من قبل.

البرازيل كدولة، وسائر المناطق البرازيلية التي وردت في الرواية، كمدينة سلفادور، وخليج جميع القديسين، وجزر فرناندو دي نورونها. جميعها ترمز إلى العالم المكتشف حديثًا، والكولونيالية البرتغالية، والمسيحية الكاثوليكية، والخليط الإثني ألفسيفسائي المعقد، وأشياء أخرى غير ذلك.

مكث روبنسون عدة سنوات في البرازيل، تعلم فيها الكثير من ثقافة وعادات المجتمع البرازيلي في ذلك العصر. ومن ثم ذهب روبنسون ليقضي ثمانية وعشرين عامًا من عمره، في جزيرته الكاريبية المنعزلة، والتي لا تبتعد كثيرًا عن الساحل الشمالي للبرازيل.

البرازيل آنذاك كانت كما القارة الأم أمريكا. كانت بالنسبة للكثير من الأوروبيين تمثل الخير والأمل والحلم الجميل. وفي المقابل، تحدثنا فيما سبق عن نظرة سكان أمريكا الأصليين، إلى المهاجرين الأوروبيين.

دولة المغرب، ومدينة سلا بالتحديد، تحملان ذكريات أليمة لروبنسون في هذه الرواية. ففي مدينة سلا الواقعة على الساحل المغربي، قضى روبنسون سنتين من عمره أسيرًا للعبودية، قبل أن يحرر نفسه ويفر نحو الجنوب.

دولة المغرب ومدينة سلا تحديدًا تمثلان الهوية والأصول العربية والبربرية، والثقافة الشرقية، والديانة الإسلامية، والسلالة القوقازية، والنطاق الشمال أفريقي، وأشياء أخرى غير ذلك. وإلى حد كبير تتشابه موريتانيا (أشار إليها روبنسون في الرواية) مع المغرب وسلا، في كثير من الصفات والمزايا سالفة الذكر.

غينيا والسنغال في أحداث هذه الرواية، تمثلان الثقافة الأفريقية السوداء، والسلالة الزنجية، والطبيعة البدائية المتخلفة، ونطاق غرب أفريقيا، وأشياء أخرى غير ذلك.

كانت غينيا تمثل الخير بالنسبة لروبنسون في البداية، وخصوصًا عندما ذهب إليها تاجرًا وعاد منها رابحًا. لكن بعد الرحلتين البحريتين المنكوبتين، صارت غينيا تمثل لروبنسون فألًا سيئًا. أما السنغال فقد كانت بمثابة العلامة أو المنارة، التي أراد روبنسون أن يصل إليها ويهتدي بها، كي يبحر من ناحيتها باتجاه منطقة جزر الرأس الأخضر.

جزر الرأس الأخضر كانت بمثابة طوق النجاة، الذي كان روبنسون يبحث عنه بشغف في عرض المحيط. كي يهتدي من خلاله إلى ظهر سفينة، تقله على متنها، وتنشله من تشرده وتيهه في مياه المحيط.

ساحل أفريقيا، والساحل البربري، وساحل الكاريبي. ثلاثتها تجسد شيئًا من الرعب والخوف الذي عاشه روبنسون، في كثير من أحداث هذه الرواية وأماكنها. هذه السواحل الثلاثة، كانت ترمز إلى الغموض والخوف والرعب، ليس عند روبنسون وحده فحسب، بل عند كثير من الأوروبيين الذين عاشوا حقبة روبنسون وزمانه.

في أحداث الرواية، نجد أن الكثير من القبائل الأفريقية البدائية، والكثير من الحيوانات الفتاكة المفترسة، كانت تنتشر على طول امتداد ساحل أفريقيا الغربي. أما الساحل البربري فقد كان رمزًا للهلاك والضياع عند كثير من الأوروبيين وليس روبنسون فحسب. حيث كان القراصنة المرابطين على الساحل البربري، يقتادون الكثير من السفن والقوارب الأوروبية إلى ساحلهم. فكان الأوروبيين يمتهنوا على أرض الساحل البربري ويعاملوا هناك كعبيد. أما ساحل الكاريبي فقد كان الأكثر غموضًا وإرهابًا ورعبًا. فقد ذكر روبنسون أن الأوروبيين في عهده، كانوا يأخذون في أذهانهم صورة نمطية Stereotype عن الساحل الكاريبي، أنه في كثير من أجزائه، يعد موطنًا للمتوحشين آكلي لحوم البشر.

الجزر الإنجليزية كجامايكا وبربادوس، تمثل الكولونيالية الإنجليزية في منطقة البحر الكاريبي. كانت هذه الجزر بمثابة الملاذ الآمن، الذي بحث عنه روبنسون وطاقم سفينته، تلك السفينة التي جرفها المحيط عن مسارها باتجاه غينيا، غربًا نحو الكاريبي. لكن روبنسون فشل في الوصول إلى أي من هذه الجزر. إذ انتهى به المطاف ناجيًا وحيدًا بين رفاقه الصرعى، ومنبوذًا على أرض جزيرة منعزلة ليست ذات سكان. وبالتالي فإن الجزر الإنجليزية هذه، كانت بمثابة السراب الشارد الذي تمنى روبنسون الوصول إليه ولم يدركه، تمامًا كقمة جبل تنريف في جزر الكناري.

جزر الكاريبي وبما فيها جزر ليوارد، كانت تمثل خليطًا معقدًا من الثقافات والإثنيات، التي تتداخل مع بعضها البعض فوق رقع صغيرة وضئيلة من اليابسة. فجزر الكاريبي وحتى يومنا هذا تجمع بين الأوروبيين البيض، والأفارقة الزنوج، والمولاتو Mulatto المولدين، والسكان الأصليين Natives ، وغير ذلك من أنواع المهاجرين. حتى نفوذ الكولونياليات الأوروبية (أسبانيا، إنجلترا، هولندا، فرنسا ... الخ) راح يتداخل بشكل دقيق ومعقد بين هذه الجزر، التي تقع على مقربة شديدة من بعضها البعض.

تقريبًا كل جزر الكاريبي المأهولة بالسكان، كانت تابعة لنفوذ الكولونياليات الأوروبية، لذلك كان روبنسون في الرواية يطلق على هذه الجزر (المستعمرات المسيحية). وبلا شك فإن المستعمرات الأوروبية أو المسيحية، كانت تمثل فأل خير عند روبنسون. إذ كان يتمنى طوال سنين عزلته لو كان بإمكانه الوصول إلى أحد هذه الجزر، فيحقق بذلك النجاة وكسر العزلة.

وفي المقابل كانت جزر الكاريبي الغير مأهولة بالسكان، تمثل فألًا سيئًا ونذير شؤم عند روبنسون، لما تتضمنه مثل هذه الجزر من غموض وأهوال ومخاطر.

ترينيداد، وغويانا، وساحل فنزويلا (رغم أن روبنسون لم يذكر فنزويلا في الرواية). كانت جميع هذه المناطق بالنسبة لروبنسون عبارة عن نقاط أو علامات على الخريطة. إنما يستخدمها ويذكرها، فقط من أجل تحديد موقع جزيرته الكاريبية من محيطها الجغرافي. فقد سبق وأن ذكر روبنسون في أحداث الرواية أن جزيرته تبدو قريبة نوعًا ما من جزيرة ترينيداد. وقد ذكر أيضًا أن جزيرته لا تبتعد كثيرًا، عن ساحل غويانا، ودلتا الأورينوكو (ساحل فنزويلا).

بيونس ايرس، وهافانا، وسانتا مارتا. جميعها مدن، تقع في بلدان مختلفة من قارة أمريكا اللاتينية. المدن الثلاث ترمز إلى العالم الجديد، والكولونيالية الأسبانية، والثقافة اللاتينية الهسبانية، والمسيحية الكاثوليكية، والخليط الإثني ألفسيفسائي المعقد، الذي تحدثنا عنه عند حديثنا عن البرازيل والكاريبي.

هذه المدن الثلاث، لم تكن تعني أو تمثل الشيء الكثير لروبنسون، إذ لم تشارك ثلاثتها بشكل فعال ومؤثر في أحداث الرواية.

خور ريو دي لا بلاتا وخليج المكسيك، هما جسمين مائيين يقعان ضمن نطاق قارة أمريكا اللاتينية. خور ريو دي لا بلاتا ينتمي بأكمله لأمريكا اللاتينية، إذ يعتبر فجوة مائية بين مستعمرتين أسبانيتين في عهد روبنسون، هما الأرجنتين وأوروغواي. أما خليج المكسيك فكان وما زال في أغلبه، ينتمي إلى قارة أمريكا اللاتينية. ينطبق على السواحل اللاتينية التي تشرف على هذين الجسمين المائيين، ما ينطبق على المدن الثلاث سالفة الذكر. فهذين الجسمين المائيين لا يمثلان الكثير لروبنسون، فهما كالمدن الثلاث سالفة الذكر، من حيث عدم المشاركة بفعالية وقوة في أحداث الرواية.

بالنسبة لروبنسون، كانت جبال البرانس ترمز إلى الوعورة والمشقة والهلاك والخطورة. فهي إطلاقًا لم تحمل له سوى الذكريات الأليمة. فقد واجه روبنسون ورفاقه في السفر مخاطر وكوارث وأهوال جمة، وذلك أثناء عبورهم لتلك الجبال.

جبال البرانس تفصل بريًا بين فرنسا وأسبانيا، أما خليج البسكاي فيفصل بحريًا بين السواحل الفرنسية والسواحل الأسبانية. لم يخُض روبنسون في خليج البسكاي ولم يسافر فيه كما سافر في جبال البرانس. فقد كان روبنسون يخشى، أن يكون على موعد جديد مع سوء حظه البحري، والذي يتمثل عادة في كوارث السفن وهجمات القراصنة.

دولة ألمانيا ومدينة بريمن تمثلان العالم القديم، والثقافة الأوروبية البيضاء، والسلالة القوقازية النوردية، والخليط ما بين البروتستانتية والكاثوليكية، وأشياء أخرى غير ذلك. أي من أحداث الرواية لم يقع في ألمانيا أو بريمن، لكن روبنسون كما ذكرنا من قبل، اكتفى بذكرهما فحسب. ذكر روبنسون أماكن أخرى، لم يكن لها فعالية أو تأثير حقيقي في أحداث الرواية كالهند، ومصر، والقدس.

الهند ترمز إلى العالم القديم، والثقافة الشرقية الآسيوية، والوثنية الهندوسية، وغير ذلك. أما مصر والقدس فترمزان في عهد روبنسون وفيما بعد ذلك أيضًا، إلى العالم القديم، والتاريخ البشري والحضاري العريق، والثقافة الشرقية العربية، والديانة الإسلامية، والسلالة القوقازية، ونطاق البحر المتوسط ، والكولونيالية العثمانية، وأشياء أخرى. هذا مع أن روبنسون قصد الحديث عن مصر والقدس، في حقبتي النبي سليمان وصراع فرعون مع بني إسرائيل. أي ما قبل الميلاد بكثير.

- الصفات الجغرافية.

١) سفينة القراصنة العثمانيين Turkish rover of Sallee:

كان على متنها القراصنة العثمانيين، اللذين هاجموا سفينة روبنسون قبالة السواحل المغربية. وبأثر ذلك أسر روبنسون، وصار عبدًا عند سيده العثماني في سلا.

٢) محارب أسباني - محارب برتغالي Spanish or Portugal man-of war:

كان روبنسون يأمل لو يأخذه سيده التركي معه إلى المحيط. عل سيده يقابل في مياه المحيط محاربًا أسبانيًا أو برتغاليًا، فيأسره ذلك المحارب ويحرر روبنسون.

٣) رجل إنجليزي- رجل أيرلندي- رجل اسكتلندي English- man، Irishman، or Scotchman :

شعر روبنسون بالحزن والحسرة، وذلك عندما لم يجد ولو رجلًا إنجليزيًا، أو رجلًا أيرلنديًا، أو حتى رجلًا اسكتلنديًا، ضمن عديد زملائه المأسورين معه في العبودية.

كم كان روبنسون يتمنى لو كان برفقته في العبودية (في منزل سيده)، رجلًا إنجليزيًا، أو أيرلنديًا، أو حتى اسكتلنديًا، كي يؤنس وحدته في الوسط الثقافي المغاير والمختلف تمامًا عنه. وكي يكون له عونًا ونصيرًا، يساعده في إتمام مهمة الفرار من العبودية.

٤) سفينة إنجليزية English ship:

هي السفينة الإنجليزية التي استولى عليها القراصنة العثمانيين في عرض المحيط. إذًا هي ذات السفينة التي كان على متنها روبنسون، عندما جرى اعتقاله واقتياده إلى الساحل المغربي، ومن ثم جرى استعباده هناك لمدة عامين. أما السفينة التي عاد روبنسون على متنها من جزيرته المنعزلة إلى إنجلترا، فقد كانت أيضًا سفينة إنجليزية.

٥) عبد إنجليزي English slave:

عبد إنجليزي !!. نعم لقد كان روبنسون عبدًا ولمدة عامين كاملين، عند سيده التركي أو العثماني، في مدينة سلا.

٦) أمم الزنوج Nations of Negroes:

الأمم الزنجية التي تحدث عنها روبنسون وذكرها في هذه الرواية، هي أمم الأفارقة الزنوج، الذين يسكنون الساحل الغربي لأفريقيا بالتحديد.

٧) سفينة أوروبية European ship:

أثناء رحلة هروبه من العبودية وفراره نحو الجنوب، كان روبنسون يأمل في الوصول إلى المنطقة، التي تتواجد فيها جزر الرأس الأخضر، عله يقابل سفينة أوروبية في تلك المنطقة. فمنطقة جزر الرأس الأخضر ومياه المحيط المحيطة بها، كانت ممرًا للكثير من السفن الأوروبية المتجهة إلى أمريكا اللاتينية، أو الهند وجنوب آسيا آنذاك.

٨) سفينة برتغالية Portuguese ship:

بعد هروب روبنسون من العبودية وبرفقته كزوري، قابلتهما السفينة البرتغالية في مياه الأطلسي، فحملتهما إلى البرازيل. لقد كانت السفينة البرتغالية بمثابة طوق النجاة الذي أنقذ روبنسون. وبفضل السفينة البرتغالية انتقل روبنسون من العالم القديم، إلى العالم الجديد بقاراته ويابسته المكتشفة حديثًا.

٩) بحار اسكتلندي Scotch sailor:

كان بحارًا من ضمن طاقم السفينة البرتغالية سالفة الذكر. وهو الوحيد من بين أفراد الطاقم، الذي تمكن من محاورة روبنسون بسهولة ويسر، وذلك بحكم إجادته للغة الإنجليزية، فهي اللغة التي لم يكن روبنسون ليجيد سواها آنذاك.

١٠) قارب أوروبي European boat:

عندما انتبه البحارة على ظهر السفينة البرتغالية، إلى قارب روبنسون وهو يقترب من سفينتهم. اعتقدوا أن قارب روبنسون، ربما يكون قارب أوروبي يخص سفينة أوروبية، غرقت أو فقدت في مكان ما من المحيط.

١١) اللغة البرتغالية- الأسبانية- الفرنسية Portuguese، Spanish، French:

عندما صعد روبنسون إلى ظهر السفينة البرتغالية، أراد البحارة أن يسألوه عن هويته وقصته كذلك. فسألوه بالبرتغالية، ثم بالأسبانية، ثم بالفرنسية، قبل أن يسألوه بالإنجليزية فيجيبهم بها.

١٢) رجل إنجليزي Englishman:

عندما قام البحار الاسكتلندي الذي يعمل ضمن طاقم السفينة البرتغالية، بسؤال روبنسون عن هويته، أجابه روبنسون: (أنا رجل إنجليزي، هربت من عبوديتي في سلا).

١٣) والدين إنجليزيين English parents:

جار روبنسون في البرازيل، كان رجلًا برتغاليًا اسمه والز، والغريب في الأمر هو أن والدي والز وبحسب رواية روبنسون، كانا إنجليزيين.

١٤) بضاعة إنجليزية English goods:

هي البضاعة إنجليزية الصنع التي حملها القبطان البرتغالي من لشبونة، إلى روبنسون في البرازيل. وذلك بعد أن قام تاجر إنجليزي بشرائها من إنجلترا، وإرسالها إلى القبطان في لشبونة.

١٥) عبد زنجي- خادم أوروبي Negro slave، European servant:

بالإضافة إلى الخادم الذي جلبه القبطان البرتغالي لروبنسون من لشبونة. قام روبنسون بشراء عبد زنجي وخادم أوروبي آخر، كي يساعدانه في أعمال مزارعه.

١٦) الجبن الهولندية Dutch cheeses:

بعد نجاة روبنسون من حادثة تحطم السفينة، وبعد اهتدائه إلى شاطئ الجزيرة النائية. ركب روبنسون طوافته وذهب إلى موقع السفينة المنكوبة، فنشل من داخلها العديد من الأشياء النافعة، كالجبن الهولندية، وغيرها من صنوف الطعام.

١٧) نقود أوروبية- نقود برازيلية Some European coin، some Brazil:

عندما ذهب روبنسون في مرة أخرى إلى موقع السفينة المنكوبة، جلب منها العديد من الأشياء والأدوات النافعة، كما جلب منها بعض النقود الأوروبية والبرازيلية. ومما لا شك فيه، أن تلك النقود وفي ذلك الوقت تحديدًا، لم تكن ذات قيمة إطلاقًا بالنسبة لروبنسون.

١٨) كتب برتغالية Portuguese books:

بعد خوضه العديد من الرحلات إلى موقع السفينة المنكوبة، وبعد جلبه الكثير من اللوازم والأشياء النافعة من هناك. أراد روبنسون أن يصنف هذه اللوازم والأشياء النافعة، بحسب درجة أهميتها وضروريتها له. فصنف المواد الغذائية وغيرها من الأدوات الحياتية الأساسية، على أنها الأشياء الأكثر أهمية وضرورية له. بينما صنف الخرائط، والجداول، وكتب الملاحة، والحبر، والأوراق، والكتب البرتغالية، على أنها أشياء أقل أهمية وضرورية بالنسبة له، وبالنسبة للواقع الصعب الذي يعيشه.

١٩) مغامرة أفريقية African adventure:

في سبيل التغلب على العتمة وإيجاد وسيلة للإنارة، كم تمنى روبنسون لو كان باستطاعته أن يصنع مصابيح من شمع عسل النحل، كما كان يفعل وهو في مغامرته الأفريقية. لكن مادة الشمع غير متوفرة على أرض الجزيرة. ما دفع روبنسون إلى استخدام دهن الأغنام المجفف، بدلًا منها في صناعة المصابيح.

٢٠) شعير إنجليزي English barley:

عندما نما بعض الشعير، بجوار مسكن روبنسون على أرض الجزيرة، قال عنه روبنسون أنه يشبه إلى حد كبير الشعير الإنجليزي.

٢١) لحم خنزير برازيلي Brazil pork:

بعثت السفينة المنكوبة ببعض من أجزاء حطامها إلى الشاطئ، ومع ذلك الحطام وصل روبنسون البعض من لحم الخنزير البرازيلي. لكن ذلك اللحم لم يكن صالحًا للأكل، ولم يكن ذات قيمة، وذلك بسبب اختلاطه بماء البحر والرمل.

٢٢) رجال إنجليز English-men:

خلال تجوال روبنسون في أرجاء الجزيرة واستكشافه لها، وجد كم هائل وكبير جدًا من ثمار العنب الناضجة. فراودته فكرة جني العنب، وإمكانية الاعتماد عليه كأحد مصادر غذائه الرئيسية. لكنه خاف من أن يلقى نفس مصير الرجال الإنجليز، الذين تسمموا وماتوا من قبل، وذلك بفعل أكلهم نوع غريب من العنب كهذا.

٢٣) البرازيليين Brazilians:

تحدث روبنسون عن البرازيليين، عندما تحطمت حالته النفسية، وأصابه نكد حاد وهو على أرض الجزيرة. حينها ذكر روبنسون أن البرازيليين لا يتعاطون علاجًا لحالتهم النفسية السيئة ونكدهم، سوى القليل من التبغ. أي أن التبغ يحسن المزاج عند البرازيليين.

وتحدث روبنسون عن البرازيليين في مناسبة أخرى. وذلك عندما قال أن لون بشرة فرايدي، لا يشبه لون بشرة البرازيليين، أو الفرجينيين، أو غيرهم من السكان الأمريكيين الأصليين.

٢٤) قطط أوروبية European cats:

تطرق روبنسون إلى ذكر القطط الأوروبية، وذلك عندما تحدث عن أحد القطط الموجودة على أرض جزيرته. إذ قال حينها عن تلك القطة، أنها تنتمي إلى نوع شاذ ومختلف تمامًا عن القطط الأوروبية.

٢٥) مناطق السيادة الأسبانية- الساحل الأسباني- الدولة الأسبانية Spanish dominions، Spanish coast، Spanish country:

وردت جميع هذه الصفات الجغرافية في أحداث الرواية، عندما كان روبنسون يضع الفرضيات والاحتمالات المختلفة. وذلك من أجل محاولة تفسير وتحري هوية اليابسة، التي أبصرها روبنسون من على شاطئ جزيرته.

٢٦) أسود ونمور أفريقيا Lions and Tigers of Africa:

في إطار عملية تقييمه وتقديره لمدى خطورة المتوحشين آكلي لحوم البشر، على حياته وسلامته. كان روبنسون يعتقد اعتقادًا جازمًا، أن خطورة أسود ونمور أفريقيا، لا تساوي شيئًا، مقارنة مع خطورة المتوحشين آكلي لحوم البشر.

٢٧) الأوروبيين Europeans:

كان روبنسون يخشى أن يقع فريسة للمتوحشين آكلي لحوم البشر، فينتهي بذلك مصيره إما إلى الأسر أو إلى القتل. فقد حدث ذلك مع الكثير من الأوروبيين الذين أسروا أو لقوا حتفهم، على أيدي المتوحشين ساكني الساحل الكاريبي.

٢٨) الأتراك- المغاربة Turks، Moors:

تحدث روبنسون في موضع ما من الرواية عن لحيته كيف كانت طويلة جدًا، ومن ثم كيف صارت مشذبة ومنسقة. تطرق روبنسون بالذكر إلى الأتراك والمغاربة في هذه الرواية، وذلك عندما أخذ يقارن لحيته وشاربه بلحى وشوارب الأتراك والمغاربة.

٢٩) الفلسطينيين Philistines:

ربط روبنسون بين حالته المزرية وحالة شاول، قائلًا: (أنا أبدو مثل شاول، الذي عانى ليس من تسلط الفلسطينيين عليه فحسب، بل أيضًا من غضب الرب عليه).

٣٠) الأسباني- الأسبان Spaniard، Spaniards:

وردت هاتين الصفتين في الكثير من المناسبات. ولعل أبرز هذه المناسبات، عندما تحدث روبنسون عن الممارسات البربرية للأسبان، ضد السكان الأمريكيين الأصليين. وكذلك عندما تحدث روبنسون مع الرجل الأسباني، بشأن إنقاذ وإحضار بقية الرجال الأسبان، العالقين عند القوم الكاريبيين البدائيين.

٣١) أحذية إنجليزية English shoes:

بعدما نشل روبنسون الكثير من النقود، من حطام السفينة الأسبانية الغارقة. قال روبنسون أن كل هذه النقود ليست ذات قيمة إطلاقًا بالنسبة له. وقال أنه مستعد أن يتخلى عنها كلها، مقابل الحصول على ثلاثة أو أربعة أزواج من الأحذية الإنجليزية.

٣٢) سكان أمريكا الأصليين- الفرجينيين Natives of America، Virginians:

عندما راح روبنسون يصف فرايدي، قال في خضم وصفه، أن لون بشرة فرايدي لا يشبه لون بشرة البرازيليين، أو الفرجينيين، أو غيرهم من سكان أمريكا الأصليين.

٣٣) الكاريبيين Caribs- Caribbees:

عندما قام روبنسون بسؤال فرايدي، عن الأمم التي تعيش بجوار جزيرته. أجابه فرايدي أن تلك الأمم جميعها من الكاريبيين.

٣٤) برتغاليين Portuguese:

عندما ذكر فرايدي لروبنسون، أن هناك سبعة عشرة رجل من البيض. لجئوا بقاربهم اضطراريًا إلى ساحل قومه الكاريبيين. توقع روبنسون أن يكون اولئك الرجال من الأسبان والبرتغاليين. وبالفعل كانوا كا توقع روبنسون.

٣٥) أخشاب نيكاراغوا Nicaragua wood:

الشجرة التي وقع عليها اختيار فرايدي، من أجل استخدامها في صناعة القارب، كانت ذات نوع ممتاز جدًا من الخشب. إذ قال روبنسون عن نوعية ذلك الخشب، أنها تشبه إلى حد كبير نوعية أخشاب نيكاراغوا.

٣٦) لغة برتغالية Portuguese tongue:

بعدما قام روبنسون وفرايدي بإنقاذ الرجل الأبيض، من قبضة المتوحشين آكلي لحوم البشر. قام روبنسون بسؤال الرجل عن هويته، سائلًا إياه باللغة البرتغالية. لكن روبنسون عرف فيما بعد أن الرجل كان أسبانيًا وليس برتغاليًا.

٣٧) سفينة أسبانية- بضائع أوروبية- بحارة برتغاليين Spanish ship، European goods، Portuguese seamen:

قال الرجل الأسباني لروبنسون، أنه كان برفقة زملائه على متن سفينة أسبانية، كانت متوجهة من ريو دي لا بلاتا إلى هافانا. وذكر الرجل أن السفينة كانت محملة بكميات من الفضة وجلود المواشي، على أن تعود من هافانا بكميات من البضائع الأوروبية التي يمكن جلبها من هناك. وذكر الرجل الأسباني لروبنسون أيضًا، أن سفينتهم كان على متنها خمسة بحارة برتغاليين.

٣٨) قارب إنجليزي طويل English long-boat:

مع اقتراب نهاية أحداث الرواية، رصد روبنسون رسو قارب إنجليزي طويل على شاطئ الجزيرة. وقد كان هذا القارب يقل مجموعة من المتمردين وبرفقتهم ثلاثة أسرى. وكان من بين الأسرى، قبطان السفينة الإنجليزية المخلوع.

٣٩) هولنديين Dutch:

عندما رسا القارب الطويل على شاطئ الجزيرة، وترجل منه الرجال (المتمردين)، ومشوا على أرض الجزيرة، توقع روبنسون أن بعض هؤلاء الرجال ربما يكونوا هولنديين.

٤٠) خمر ماديرا Madeira wine:

بعدما استعاد القبطان الإنجليزي سفينته المختطفة، من قبضة المتمردين. جاء القبطان لروبنسون بالعديد من الهدايا كعرفان بالجميل. وكان من ضمن هذه الهدايا، ست قوارير كبيرة الحجم من خمر ماديرا. وبالمناسبة ماديرا هي أرخبيل من الجزر الأطلسية، لا تبتعد كثيرًا عن جزر الكناري، وما زالت تتبع البرتغال إلى يومنا هذا.

٤١) حرير إيطالي- جوخ إنجليزي Italian silks، English broadcloth:

أرسل روبنسون هدايا قيمة إلى شريكه الأسبق في البرازيل، وكان من ضمن هذه الهدايا، بعض الحرير الإيطالي وقطعتين من الجوخ الإنجليزي.

٤٢) قراصنة جزائريين Algerines:

عندما تحدث روبنسون عن خوفه من فكرة الإبحار، من البرتغال إلى إنجلترا. ذكر روبنسون قصة سفينتين منكوبتين، فقدت إحداهما بالقرب من منطقة تورباي، أما الأخرى فقد استولى عليها القراصنة الجزائريين.

٤٣) سيد إنجليزي- تجار إنجليز- سادة برتغاليون- بحار إنجليزي English gentleman، English merchants، Portuguese gentlemen، English sailor:

هذه الصفات الجغرافية، جميعها تعود لأشخاص، سافروا مع روبنسون ورافقوه في رحلته البرية. والتي انطلقت من البرتغال إلى إنجلترا، مرورًا باليابستين الأسبانية والفرنسية.

٤٤) سادة فرنسيين French gentlemen:

عندما كان روبنسون ورفاقه في السفر في رحلتهم البرية. وتحديدًا عندما كانوا متجهين من شمال أسبانيا إلى جنوب فرنسا، قابلوا في طريقهم أربعة رجال فرنسيين، كانوا قادمين إلى الأراضي الأسبانية.

٤٥) قبطان إنجليزي English captain:

ذهب روبنسون إلى رحلة غينيا برفقة قبطان إنجليزي. وعاد روبنسون من جزيرته الكاريبية إلى إنجلترا، برفقة قبطان إنجليزي أيضًا.

٤٦) اللغة الإنجليزية English:

هي لغة روبنسون الرسمية. وهي اللغة التي تعلمها فرايدي. وهي اللغة التي تحدث وتحاور بها روبنسون مع والديه، والقبطان الإنجليزي، وغيرهم من الشخصيات.

٤٧) غلال غينية وعاج غيني Guinea grains، elephant teeth:

قال روبنسون للتجار البرازيليين، أنه بإمكانهم بيع الحلوى والألعاب والسكاكين والمقصات والفراش للغينيين، ليس مقابل مسحوق الذهب فحسب، وإنما أيضًا مقابل بعض الغلال وقطع العاج الغينية.

٤٨) تاجر غينيا- سفن البرازيل- هنود البيرو Guinea trader، Brazil ships، Indians of Peru:

وردت هذه الصفات الجغرافية، في مواضع مختلفة من أحداث الرواية.

كانت أحداث الرواية غنية وممتلئة بالصفات الجغرافية، وإذا ما أردنا أن نصنف الصفات الجغرافية التي وردت في أحداث الرواية، نجد أن معظمها كانت بشأن وظائف وألقاب أشخاص، بشأن أمم وشعوب، سفن وقوارب، لغات، بضائع وأدوات، مواد غذائية، حيوانات.

وكما نعلم، فإن الصفات الجغرافية هي في الأصل عبارة عن صفات ذات مدلول جغرافي، أي عبارة عن (جنسيات). وإذا ما نظرنا بشيء من التحليل والتدقيق إلى سائر الصفات الجغرافية الواردة في الرواية، نجد أن الصفات الإنجليزية تمثل العدد الأكبر من بين صفات الرواية، ومن ثم تأتي الصفات الأسبانية، والبرتغالية. ومن ثم تأتي صفات أقل عددًا وكثافة كالصفات الفرنسية، والبرازيلية، والتركية، والاسكتلندية، والهولندية، والأفريقية، وغير ذلك.

(عبد إنجليزي) كانت هي الصفة الجغرافية الوحيدة في الرواية، التي جاءت مخالفة لطبيعة وصورة الإنجليز، والتي أراد ديفو أن يروج لها من خلال الرواية. ربما هذه الصفة تحمل نوع من الامتهان للإنسان الإنجليزي المتقدم والراقي بطبعه. لكن ربما أراد ديفو أن يؤكد على أن الإنسان الإنجليزي غير يوطوبي، وأنه كغيره من البشر، فقد تضعه ظروف معينة في موقف الضحية والمظلوم والعاجز.

أما إذا ما نظرنا إلى بقية الصفات الجغرافية التي تصف الإنسان الإنجليزي، مثل سيد إنجليزي، بحار إنجليزي، رجل إنجليزي، والدين إنجليزيين، وغير ذلك. نجد أن هذه الصفات جميعها تروج للهوية الإنجليزية، والسيادة والثقافة الإنجليزية، وتحاول التأكيد على ريادة الإنسان الإنجليزي وسمو عرقه ونوعه. كما وتحاول التأكيد على دور الإنسان الإنجليزي الكبير في الكولونيالية الغربية، أو الكولونيالية المسيحية كما أسماها روبنسون في الرواية.

باقي الصفات الإنجليزية، والتي بدورها تصف البضائع والأدوات وما هو نحو ذلك، مثل جوخ إنجليزي، أحذية إنجليزية، قارب إنجليزي طويل، وغير ذلك. هي جميعها صفات جاءت في سياق الرواية، كي تروج للجودة الفائقة آنذاك للمنتج الإنجليزي والسلعة الإنجليزية. ما نفهمه هنا إجمالًا، هو أن ديفو كان يحاول التأكيد على تفوق وريادة وتميز كل ما هو إنجليزي. أي كل ما يمت إلى إنجلترا بصلة، من إنسان وجوامد وثقافة، وغير ذلك.

زج ديفو بالكثير من الصفات الأسبانية والبرتغالية في الرواية، لأن كثير من أحداث الرواية وقعت كما نعلم في أماكن متفرقة من قارة أمريكا اللاتينية. وأمريكا اللاتينية في عصر روبنسون كانت كما نعلم خاضعة في أغلب أرجائها للاستعمارين الأسباني والبرتغالي. إذ كانت البرازيل وقتها تتبع للكولونيالية البرتغالية، وباقي القارة تقريبًا كان يتبع الكولونيالية الأسبانية.

محارب أسباني، الأسبان، سفينة أسبانية، سادة برتغاليون، بحارة برتغاليين، كتب برتغالية. هذه هي بعض الصفات الأسبانية والبرتغالية التي جاءت في أحداث الرواية. وقد كانت هذه الصفات في مجملها تشير إلى الكولونياليتين الأسبانية والبرتغالية، ونفوذهما وهيمنتهما شبه المطلقة على قارة أمريكا اللاتينية.

كما أن بعض هذه الصفات، مثل (سفينة برتغالية، سفينة أسبانية، بحارة برتغاليين)، نجدها تتعلق بركوب البحر والإبحار. كيف لا والأيبيريين هم من رواد العالم في ركوب البحر. فالفضل يعود لهم كما ذكرنا من قبل، في كثير من الكشوف والفتوحات الجغرافية.

في كثير من الأحيان كان روبنسون يستخدم صفة (أوروبي)، بدلًا من أن يخوض في التفاصيل أكثر، أي بدلًا من أن ينسب الصفة إلى دولة بعينها داخل قارة أوروبا. صحيح أن روبنسون ذكر في أحداث الرواية صفات إنجليزية، وبرتغالية، وأسبانية، وفرنسية، وغير ذلك. لكن روبنسون استخدم أيضًا في بعض المواضع من الرواية، صفات تشير إلى قارة أوروبا بأسرها، وليس إلى قطر أوروبي بعينه.

في تقديري، ربما كان روبنسون يستخدم صفة (أوروبي) في بعض الأحيان، لأن نفوذ الكولونياليات الأوروبية كما ذكرت سابقًا، كان يتداخل بشكل دقيق ومعقد في بعض مناطق أمريكا اللاتينية وجزر الكاريبي. لذا ففي بعض المواقف التي يصعب فيها على روبنسون تحديد هوية بعض الأشياء بدقة ووضوح، كان روبنسون يصف تلك الأشياء بصفة (أوروبي)، تخفيفًا للجهد وتيسيرًا للمسألة.

جميع الصفات الأوروبية الواردة في الرواية، تشير بالتأكيد إلى أشخاص، وبضائع، وأدوات، وغلال، وحيوانات أوروبية. والشيء الوحيد الذي ترمز له سائر هذه الصفات، هو الهيمنة الأوروبية على أمريكا اللاتينية والعالم الجديد. أي الكولونيالية الأوروبية، أو الكولونيالية المسيحية، كما أسماها روبنسون في موضع ما من الرواية.

(هولنديين، الجبن الهولندية) هما صفتين هولنديتين ذكرهما روبنسون في أحداث الرواية. كان لا مفر لديفو من إقحام بعض الصفات الهولندية في روايته. وذلك كون الغالبية العظمى من أحداث الرواية دارت في منطقة أمريكا اللاتينية والكاريبي. نقول لا مفر لديفو من ذكر هولندا والهولنديين في هذه الرواية، لأن الهولنديين كانوا أصحاب نفوذ واضح في منطقة أمريكا اللاتينية والكاريبي. فقد كانت هولندا من أولى الدول الأوروبية الرائدة في ركوب البحر، إذ كانت تنافس أسبانيا والبرتغال وبقوة في ذلك المجال. إذ تعد هولندا أحد أقدم القوى الاستعمارية الأوروبية، وقد كانت لها مستعمراتها المنتشرة في شتى أطراف الأرض. باختصار شديد يمكننا القول، أن ذكر هولندا فرض نفسه على ديفو في هذه الرواية، وذلك نظرًا لقوة الكولونيالية الهولندية وتأثيرها، ونفوذها الذي لا يستهان به في منطقة أمريكا اللاتينية والكاريبي.

جاء ذكر روبنسون للعديد من الصفات الاسكتلندية والأيرلندية في هذه الرواية، بحكم أن ثمة علاقة وثيقة، نعرفها جميعًا بين إنجلترا وكل من اسكتلندا وأيرلندا. فما إنجلترا واسكتلندا وأيرلندا إلا جيران متجاورين في الجزر البريطانية. وتربط ثلاثتها ثقافات متشابهة إلى حد ما، فضلًا عن

العامل المشترك الأهم، ألا وهو اللغة الإنجليزية. وبالفعل لقد استنتجنا من خلال الرواية، أن اسكتلندا وأيرلندا تعدان أقرب لروبنسون وعامة الإنجليز، من بقية البلاد الأوروبية.

(البرازيليين)، صفة جغرافية تشير إلى أحد أهم شعوب العالم الجديد، وأمريكا اللاتينية تحديدًا. وقد تحدثنا فيما سلف عن التنوع والتداخل الإثني والثقافي، والذي يتميز به المجتمع البرازيلي. لقد كان من الرائع أن يشير ديفو في روايته، إلى شعب أو قوم بهكذا مزايا ومواصفات.

وكي لا ننسى، استخدم ديفو صفة (البرازيليين) في موضع ما من الرواية، كي يشير إلى السكان الأصليين للبرازيل.

(سفن البرازيل، لحم خنزير برازيلي)، سفن البرازيل في عهد روبنسون، كانت دومًا محملة بالمنتجات البرازيلية، وكانت دومًا تتجه بحمولاتها شمالًا نحو أوروبا. كانت البرازيل أرض كريمة معطاءة، تفيض بالخير الوفير. فكانت تزود أوروبا وغيرها بالمنتجات المختلفة، من محاصيل، وغلال، ومواشي، ومعادن، وأشياء أخرى كثيرة غير ذلك. لقد صور ديفو البرازيل في هذه الرواية، على أنها أرض الموارد والخيرات والكنوز.

(الأتراك، المغاربة، الفلسطينيين) ثلاثة شعوب أو أقوام شرقية ومتوسطية. تحدث عنها روبنسون في الرواية، كل منها في موضع مختلف. تحدث روبنسون عن الأتراك، تأثرًا بوجود الإمبراطورية العثمانية أو الكولونيالية العثمانية في زمانه. فقد كانت الإمبراطورية العثمانية تنافس البلاد الأوروبية وتتصارع معها في عدة ميادين، والساحل البربري كان أحد هذه الميادين. إذًا تحدث روبنسون عن الأتراك، ليشير إلى الإمبراطورية أو الكولونيالية العثمانية.

تحدث روبنسون عن المغاربة، ليشير إلى الساحل البربري وما يمثله من أهوال في نظر الأوروبيين. إذًا تحدث روبنسون عن المغاربة في موضع ما من الرواية، كي يشير إلى أهوال ومصائب الساحل البربري. فالسواحل المغربية تعتبر جزءًا من ذلك الساحل الطويل، المسمى بالساحل البربري.

تحدث روبنسون عن الفلسطينيين من منظور تاريخي ديني. ليس ليشير إلى فلسطينيي زمانه من العرب المسلمين. بل ليشير إلى الفلسطينيين القدماء الوثنيين، الذين كانت لهم تجارب مع بني إسرائيل، وورد ذكرهم في الكتاب المقدس عند المسيحيين. إذًا فالفلسطينيين الذين تحدث عنهم روبنسون في الرواية، يرمزون إلى الكفر والوثنية.

الصفات الثلاث عمومًا، تعني وتمثل العداء بالنسبة لروبنسون. فالإمبراطورية العثمانية معادية لكثير من البلاد الأوروبية. والمغاربة يقطنون جزء من الساحل البربري المعادي للأوروبيين. أما الفلسطينيين القدماء (الوثنيين)، فهم أعداء الله وأعداء بني إسرائيل (المؤمنين).

(سفينة القراصنة العثمانيين، قراصنة جزائريين) هاتين الصفتين الجغرافيتين وغيرهما في الرواية، تشير إلى مشكلة كبرى، كان العالم يعاني منها وبشدة في عصر روبنسون. ألا وهي مشكلة القرصنة البحرية. وقد بدا اهتمام ديفو الواضح بقضية القرصنة البحرية، في مواضع كثيرة من الرواية.

في تلك القضية، كان تركيز ديفو على الساحل البربري أكثر من غيره من الأماكن. وكأنه أراد أن يؤكد على أن الساحل البربري، هو أكثر مواطن القراصنة، التي كانت تثير هواجس الأوروبيين ومخاوفهم، في عصر روبنسون.

(عبد زنجي)، هذه الصفة الجغرافية، تشير إلى الامتهان والظلم الشديد الذي لاقته سلالة الزنوج على أيدي البيض، سواء في هذه الرواية أو في عصر روبنسون عمومًا. فقد كان الأوروبيون يأخذون الزنوج من أوطانهم، من أجل العمل كعبيد في مزارع العالم الجديد (الأمريكيتين).

(أم الزنوج) صفة جغرافية تشير إلى أفريقيا، فأفريقيا تاريخيًا تعتبر أصل الزنوج، وموطن الأم الزنجية قاطبة. وقد تحدث روبنسون في بعض الصفات الجغرافية صراحة عن أفريقيا، مثل(مغامرة أفريقية، أسود ونمور أفريقيا).

كانت أفريقيا بالنسبة لروبنسون ومن وراءه ديفو، تشير وترمز إلى الغموض والأخطار والأهوال. ومما لا شك فيه أن كلاهما عملا على الترويج لأفريقيا في الرواية، على هذا النحو.

مثلما البرازيل هي أرض معطاءة، تفيض بالخيرات الوفيرة والموارد التي لا تنضب. صفة (أخشاب نيكاراغوا) تؤكد على أن أماكن كثيرة من أمريكا اللاتينية، حالها كحال البرازيل، من حيث الغنى بالخيرات والموارد.

مثلما البضائع والمصنوعات الإنجليزية هي مثال للجودة والإتقان والرقي. صفة (حرير إيطالي) تؤكد على أن مصنوعات ومنتجات دول أوروبية أخرى كإيطاليا، تعد أيضًا مثال للجودة والصناعة الراقية.

(اللغة البرتغالية، اللغة الأسبانية، اللغة الإنجليزية، اللغة الفرنسية). هذه اللغات الأربع، هي أهم لغات الكولونيالية الأوروبية. هذه اللغات الأربع، كانت تمثل غزوًا فكريًا وحضاريًا في نظر سكان أمريكا الأصليين. بينما كان انتشار هذه اللغات الاستعمارية على حساب لغات الأمريكيين الأصليين، يمثل نجاحًا للفتح المسيحي لبلاد الوثنية، وازدهارًا للكولونيالية الأوروبية، وذلك في نظر روبنسون، والأوروبيين في زمانه.

كما كان الأفارقة في نظر روبنسون وغيره من الأوروبيين، يرمزون إلى الغموض والتخلف والوحشية. كان (الكاريبيين) كذلك يرمزون إلى ذات المزايا والأوصاف. وهنا بالطبع نقصد السكان الأصليين للكاريبي، وليس المهاجرين الأوروبيين.

(سكان أمريكا الأصليين، هنود البيرو، الفرجينيين). ثلاثتها صفات جغرافية، تشير إلى عموم السكان الأصليين لأمريكا، أيًا كانت أنواعهم. تحدث روبنسون في عدة مواضع من الرواية عن اولئك الأمريكيين الأصليين، لكن موقفه تجاههم لم يكن واضحًا بالقدر الكافي.

ربما تطرق روبنسون في أكثر المواضع وضوحًا، إلى المجازر التي ارتكبها الأسبان في حق الأمريكيين الأصليين. ولم ينصف روبنسون الأمريكيين الأصليين، بل كان تقريبًا مؤيد لممارسات الأسبان، المتمثلة في التطهير العرقي والإبادة الجماعية.

(خمر ماديرا)، هي صفة جغرافية ترمز في هذه الرواية تحديدًا، إلى البهجة والاحتفال. في موضع من الرواية، نجد أن القبطان الإنجليزي قد أهدى روبنسون قوارير من خمر ماديرا. وذلك كنوع من الاحتفال بتحرير السفينة من قبضة المتمردين، واسترجاعها من جديد.

ليس في هذه الرواية فحسب، بل في كثير من جوانب الثقافة الأوروبية والغربية، يأتي استخدام الخمر ضمن طقوس الاحتفال.

- الأحداث الجغرافية.

١) المغامرة الجغرافية:

كما ذكرنا من قبل، تدور أحداث رواية روبنسون كروزو بأسرها، حول مغامرات البطل الأسطوري، والذي يحمل نفس اسم الرواية (روبنسون كروزو). إذ يمكننا تشبيه أحداث الرواية بأنها عبارة عن سلسلة من المغامرات المتعاقبة والمتتالية. فمنذ البداية الأولى لأحداث الرواية وحتى نهايتها، لا يكاد يدرك القارئ للرواية، سوى المغامرات التي قام بها روبنسون.

حبكة الرواية بأسرها كانت تتعلق بمغامرات روبنسون. إذ لم نشهد في الرواية أي مظاهر أو إيحاءات، لوجود حبكات ثانوية Sub-plots بشأن مواضيع أو قضايا أخرى. بل كانت أحداث الرواية قاطبة، تسير في ركب واحد، ألا وهو الحديث عن مغامرات روبنسون.

مغامرات روبنسون كروزو، كانت جميعها ذات نزعة ودلالة جغرافية واضحة. فقد اشتملت هذه المغامرات على التنقل والترحال بين أماكن جغرافية متعددة وكثيرة، تحدثنا عنها بل وشرحناها بالتفصيل في تفسير المسميات الجغرافية. بالإضافة إلى ذلك، فقد اشتملت مغامرات

روبنسون كروزو على العديد من الممارسات والأنشطة والعادات الجغرافية، وهذا ما سوف نتناوله بالتفصيل في تفسير وتحليل الأحداث الجغرافية. أي في البنود التالية.

٢) السفر البحري:

اشتملت أحداث الرواية على عدد كبير من الرحلات البحرية. وبالطبع كان روبنسون مشاركًا في الغالبية العظمى من هذه الرحلات. ما يهمنا هنا بالتحديد، هو فقط الرحلات التي شارك فيها روبنسون.

لقد كان المحيط الأطلسي بتفريعاته المختلفة، هو الميدان الذي دارت فوق مياهه، سائر هذه الرحلات البحرية. بعض هذه الرحلات البحرية كانت لمسافات قصيرة، وبعضها كانت لمسافات طويلة جدًا. بعضها كانت تتم بواسطة سفن تجارية عملاقة، وبعضها كانت تتم بواسطة قوارب أو حتى طوافات بسيطة. بعض هذه الرحلات البحرية كانت موفقة وناجحة، وبعضها الآخر كانت على موعد مع النحس والقرصنة وكوارث الطبيعة.

لقد كانت أهم الرحلات البحرية في رواية روبنسون كروزو، على النحو التالي:

- الرحلة البحرية الأولى لروبنسون، كانت مقررة من هل إلى لندن (أي رحلة داخل إنجلترا). وبالفعل أبحرت الرحلة من هل، لكن غضب البحر حال دون وصولها إلى لندن. إذ نزلت الرحلة اضطراريًا عند سواحل كرومر وونترتون نيس.

- الرحلة البحرية الثانية لروبنسون، كانت لمسافة أطول بكثير من سابقتها، إذ كانت رحلة دولية وليس محلية. لقد كانت رحلة من إنجلترا إلى ساحل غينيا (رحلة ذهاب وعودة). وقد قال روبنسون عن هذه الرحلة، أنها الرحلة الوحيدة التي يعتبرها ناجحة وموفقة بالمعنى الحقيقي للكلمة.

- الرحلة البحرية الثالثة، كانت أيضًا من إنجلترا إلى ساحل غينيا. لكن هذه الرحلة كانت تعيسة وكارثية على روبنسون. فقد هوجمت سفينة الرحلة قبالة السواحل المغربية، من قبل القراصنة. وبإثر ذلك صار روبنسون عبدًا، عند سيده التركي في مدينة سلا.

- أثناء فترة رزوحه تحت نير العبودية، في مدينة سلا المغربية. كان روبنسون وبأمر من سيده التركي، يذهب في رحلات بحرية محدودة (ليس ببعيد عن الشاطئ). وذلك من أجل الصيد، في أغلب الأحيان.

- عندما فر روبنسون من عبوديته، هرب على متن قارب. في رحلة من ساحل مدينة سلا، باتجاه الجنوب. حيث مياه السنغال وغامبيا (أي قبالة جزر الرأس الأخضر).

- بينما كان روبنسون ورفيقه في السفر (كزوري)، في طريقهما نحو منطقة جزر الرأس الأخضر. عثرت عليهما سفينة برتغالية في مياه المحيط. فحملتهما تلك السفينة على ظهرها، وأقلتهما في رحلة طويلة، إلى البرازيل. وبالتالي كانت هذه الرحلة سعيدة وموفقة بالنسبة لروبنسون.

- قرر روبنسون السفر وبرفقته مجموعة من التجار البرازيليين، إلى ساحل غينيا، وذلك من أجل جلب العبيد من هناك. تحركت سفينة الرحلة من البرازيل، لكن المحيط جرف السفينة عن مسارها المحدد نحو غينيا، لتتجه غربًا نحو الكاريبي.

وعلى مشارف الكاريبي، تحطمت السفينة فغرق جميع ركابها، عدا روبنسون الذي بقي الناجي الوحيد على قيد الحياة. لقد كانت هذه الرحلة الأكثر إيلامًا وترويعًا بالنسبة لروبنسون، فقد فتكت بجميع رفاقه، وجعلت الحال ينتهي به على شواطئ جزيرة نائية. ليعيش فوق أرضها ثمانية وعشرون عامًا، من العزلة والملل والمعاناة.

- أثناء مكوثه على أرض الجزيرة المنعزلة، قام روبنسون بالعديد من الرحلات البحرية البسيطة (مستخدمًا طوافة أو قارب صغير). فقد أبحر روبنسون مرات عديدة، باتجاه موقع حطام السفينتين الغارقتين (السفينة البرازيلية ثم السفينة الأسبانية). وذلك من أجل نشل وجلب بعض الأدوات والمنافع، التي من شأنها أن تحسن من حياته على أرض الجزيرة.

- قام روبنسون وعلى متن قاربه المتواضع، برحلة بحرية. بقصد الدوران حول الجزيرة واستكشاف محيطها وساحلها. لكن هذه الرحلة لم تنجح حتى النهاية، إذ لم ينجح روبنسون في إتمام دورته حول الجزيرة. فقد كان روبنسون على موعد جديد مع التعاسة وسوء الحظ. إذ قام تيار المحيط بجرف قاربه بعيدًا عن ساحل الجزيرة. وهذا ما حال دون أن يتم روبنسون رحلته البحرية الاستكشافية، حول الجزيرة.

- في رحلة بحرية هي الأطول، مقارنة بسائر رحلات روبنسون والرواية. نفذ القبطان الإنجليزي تعهده ووعده لروبنسون، فحمله على ظهر سفينته من الجزيرة الكاريبية المنعزلة إلى إنجلترا. وقد كانت هذه الرحلة من أسعد وأجمل الرحلات بالنسبة لروبنسون. كيف لا وقد أخرجته من الجزيرة، التي نبذ على أرضها ثمانية وعشرين عامًا.

- في رحلة بحرية هادئة وآمنة وبعيدة عن المخاطر، أبحر روبنسون من إنجلترا إلى لشبونة. وذلك من أجل التعرف والاطمئنان على مصير أملاكه في البرازيل.

- الرحلة البحرية الموجزة والضئيلة التي انتقل فيها روبنسون، من كاليه (الفرنسية) إلى دوفر (الإنجليزية). كانت هي الاستثناء البحري الوحيد، في الرحلة البرية الشاقة والطويلة، والتي خاضها روبنسون مع رفقاء السفر، من البرتغال إلى إنجلترا.

- اقترح القبطان البرتغالي على روبنسون، خوض رحلة بحرية من لاكورونيا إلى روشيل. لكن روبنسون لم يأخذ بهذه النصيحة، ولم يخض هذه الرحلة. كما وتبادرت إلى ذهن روبنسون فكرة خوض رحلة بحرية، من فونتاريبيا إلى بوردو. لكنه سرعان ما عدل عن هذه الفكرة،

وبالتالي لم يخض هذه الرحلة أيضًا. وقبل كل هذا، رفض روبنسون أن يعود من البرتغال إلى بلاده إنجلترا، من خلال رحلة بحرية. مفضلًا العودة عبر الطرق البرية.

٣) السفر البري:

راحت العديد من أحداث الرواية، تصف الرحلات البرية التي قام بها روبنسون كروزو. لكن إذا ما قارنا الرحلات البرية التي قام بها روبنسون بالرحلات البحرية، من حيث العدد. فإننا نجد الرحلات البرية قد كانت أقل ظهورًا في أحداث الرواية. فالرواية من حيث الأساس، تعد رواية مغامرات بحرية، أكثر منها رواية مغامرات برية.

إذًا ما نستنتجه هنا وبوضوح، هو أن الرحلات البحرية كانت أكثر ظهورًا وبروزًا في أحداث الرواية. كما أنه بإمكان الناقد أو المحلل، أن يدرك وأن يحصي الرحلات البحرية داخل الرواية، بسهولة ويسر. أما الرحلات البرية فيصعب تمييزها وإحصاؤها. لأن العادة جرت في غالبية الأعمال الأدبية والروايات تحديدًا، أن يكون مسرح الأحداث بريًا أكثر منه بحريًا.

لذلك لا نستطيع هنا أن نعتبر، كل مشوار بري قطعه البطل في عمل أدبي ما، من أجل تحقيق مصلحة ما، على أنه رحلة برية. وإن أراد المحلل أو الناقد أن يعمل بهكذا أسلوب، فلن يستطيع مجاراة الأحداث، وسيجد نفسه وبلا شك، في دوامة من التشتت والخلط ، بين مجريات الأحداث العادية والرحلات البرية.

لكن إذا ما نظرنا بعمق إلى أحداث الرواية. وإذا ما قرأنا تلك الأحداث بشيء من الحكمة والتحليل. سنجد ثمة رحلات برية، يمكن تمييزها بوضوح، عن سواها من تلك الغير مكتملة الوضوح.

إذ تبدو أهم الرحلات البرية في رواية روبنسون كروزو، على النحو التالي:

- بعدما نزل روبنسون وأفراد رحلته اضطراريًا، عند سواحل ونترتون نيس وكرومر. توجهوا جميعًا إلى يارموث، في رحلة برية قصيرة، مشيًا على الأقدام.

- في يارموث، افترق روبنسون عن أفراد الرحلة، والذين رافقهم منذ خروجه من هل. ما يهمنا هنا، هو أن روبنسون سافر لوحده، في رحلة برية من يارموث إلى لندن.

- حدثنا روبنسون، في الكثير من أحداث الرواية، أنه قام على أرض جزيرته الكاريبية المنعزلة، بالعديد من الرحلات البرية الاستكشافية. إذ كان الهدف من وراء هذه الرحلات البرية البسيطة. هو استكشاف أرجاء الجزيرة، بغية التعرف على مواردها، وأشكال السطح فيها، وأشياء أخرى.

- الرحلة البرية الأكثر أهمية في الرواية، كانت تلك الرحلة البرية الطويلة والشاقة، التي خاضها روبنسون وبعض رفاق السفر، من لشبونة إلى إنجلترا.

لقد قطع روبنسون كامل المسافة من لشبونة إلى إنجلترا، عبر الطرق البرية (باستثناء الإبحار الوجيز عبر القنال الإنجليزي من كاليه إلى دوفر). وفي طريقه من لشبونة إلى إنجلترا، مر روبنسون بالتراب البرتغالي، ثم الأسباني، ثم الفرنسي، ثم وصل إلى التراب الإنجليزي أخيرًا.

وفي رحلته البرية الطويلة تلك، مر روبنسون بالعديد من المدن الأوروبية كمدريد، وبامبلونا، وتولوز، وباريس، وغير ذلك.

٤) التنوع الإثني والحضاري للشخصيات:

طافت بنا أحداث الرواية في جولة، تعرفنا من خلالها على شخصيات، من مختلف الانتماءات والأنواع الإثنية، والحضارية، والثقافية. بالفعل لقد تواجدت الشخصيات داخل رواية روبنسون كروزو، بشكل فسيفسائي مبهر وعجيب.

فقد جاءت شخصيات الرواية كما ذكرنا، من خلفيات حضارية، وثقافية، وإثنية، مختلفة ومتنوعة. ولكنها في النهاية توحدت وانصهرت مع بعضها البعض، في بوتقة نص بديع ورائع.

تنوع الشخصيات جاء برأيي كنتيجة طبيعية، لتنوع الأماكن والنطاقات الجغرافية داخل الرواية. إذ يبدو التنوع الإثني والحضاري والثقافي لشخصيات الرواية، على النحو التالي:

- روبنسون، ووالديه، وابن أخيه، والقبطان الإنجليزي، والأرملة، وغيرهم من الشخصيات الإنجليزية الأخرى. ينتمون جميعًا إلى العرق النوردي الأبيض، وإلى الأصول الأنجلوساكسونية، والثقافة المسيحية البروتستانتية، والحضارة الأوروبية الغربية.

- القبطان البرتغالي، وابنه، وربما والز أيضًا. ينتمون إلى العرق القوقازي المتوسطي، والثقافة المسيحية الكاثوليكية، والحضارة الأوروبية الغربية، والسمات اللاتينية الأيبيرية.

- كريستيانوس (هو الرجل الأسباني الذي أنقذه روبنسون من قبضة المتوحشين)، وينتمي تقريبًا إلى نفس ما تنتمي إليه الشخصيات البرتغالية، سالفة الذكر.

- السيد التركي، ينتمي إلى العرق القوقازي الأرمني أو المتوسطي، والثقافة الإسلامية السنية، والحضارة الشرقية العثمانية.

- كزوري، وماريسكو، وإسماعيل ربما. ينتمون إلى العرق القوقازي المتوسطي، والملامح العربية أو البربرية، والثقافة الإسلامية، والحضارة العربية المغاربية.

- والد فرايدي، وغيره من المتوحشين والكاريبيين البدائيين. ربما ينتمون إلى عرق قريب من السلالة الزنجية، ويمثلون الثقافة الوثنية الطوطمية، والحضارة الكاريبية البدائية.

- فرايدي، ربما ينتمي إلى عرق قريب من السلالة الزنجية[1]، ويمثل الانتقال من الوثنية إلى

---

(1) ربما ينتمي فرايدي ووالده، وربعهم من الكاريبيين الأصليين، إلى عرق قريب من السلالة الزنجية الأسترالية.

المسيحية البروتستانتية، وكذلك الانتقال من الحضارة الكاريبية البدائية إلى الحضارة الغربية الأوروبية المتقدمة.

٥) استخدام الجهات الأربع وتفريعاتها:

في كثير من أحداث الرواية ومجرياتها، كان روبنسون يستخدم الجهات الأربع. لم يكتف روبنسون بالجهات الأربع، بل كان يستخدم تفريعاتها واشتقاقاتها في كثير من الأحيان.

نستنتج من القدرة المذهلة لروبنسون على تحديد مواقع الأماكن والظواهر الجغرافية، وفقًا للجهات الأربع وتفريعاتها. أنه كان على اطلاع ودراية ومعرفة كبيرة بالجغرافيا، وتقسيمات اليابسة، ومواقع النواحي والأقطار.

بالفعل كان روبنسون يستخدم الجهات الأربع وتفريعاتها وبدقة متناهية، من أجل تحديد مواقع الأماكن والظواهر الجغرافية داخل النص. ولعل هذا هو ما يزيد عند القارئ من إثارة ومتعة الإحساس، بتنقل الأحداث والتفاصيل من مكان إلى آخر، على أرضية المسرح الجغرافي للرواية.

التطرق إلى الجهات الأربع وتفريعاتها، وبكثرة كما هو الحال في هذه الرواية. يزيد بالتأكيد من حيوية وديناميكية ورشاقة الأحداث. فتصبح الأحداث أكثر وضوحًا وصراحة، وهذا ما يتيح للقارئ فرصة الوقوف على مسافة أكثر قربًا من النص، وبالتالي يصير مواكبًا أكثر للتطور والتغير المتواصل، الذي يطرأ على سير الأحداث وتفاصيل النص.

مما لا شك فيه، إن استخدام روبنسون للجهات الأربع وتفريعاتها، أو اشتقاقاتها، قد أضاف قيمة جمالية وجغرافية رائعة للنص، أو الرواية.

يمكننا تصنيف الجهات التي استخدمها روبنسون أو ذكرها في أحداث الرواية، على النحو التالي:

أ- الجهات الأربع، أو الجهات الأصلية. وقد ذكرها روبنسون وفقًا لصيغ عديدة، لعل أهمها هاتين الصيغتين: الصيغة الأولى (شرق- غرب- شمال- جنوب East، West، North، South). أما الصيغة الثانية فهي (شرقًا- غربًا- شمالًا- جنوبًا -Eastward- Westward- Northward Southward).

ب- الجهات الفرعية، أي الجهات المتفرعة من الجهات الأربع الأصلية. وقد جاء ذكر روبنسون لها وفقًا لصيغتين اثنتين. الصيغة الأولى (شمال شرقي- شمال غربي- جنوب شرقي- جنوب غربي North East، North West، South East، South West). أما الصيغة الثانية فهي صيغة الاختصارات abbreviations ، (مثلًا S.W وتعني اختصار للجنوب الغربي، وN.E أي الشمال الشرقي).

ت- الجهات الفرع فرعية، أي تلك التي يأتي اشتقاقها من الفروع وليس من الأصول. وبالمناسبة فإن كافة الجهات الفرع فرعية، التي ذكرها روبنسون في أحداث الرواية، جاءت وفقًا لصيغة الاختصارات. (فمثلًا عندما ذكر روبنسون N.N.E كان يقصد شمال الشمال الشرقي، وعندما ذكر E.S.E كان يقصد شرق الجنوب الشرقي).

في الغالب، جاء استخدام روبنسون للجهات وفروعها، وفروع فروعها، من أجل التعبير عن المواقف التالية:

- تحديد اتجاه الرياح.
- تحديد وجهة أو مسار الإبحار.
- تحديد موقع مكان ما على أرض الجزيرة.
- تحديد موقع مكان ما على ساحل الجزيرة.

- تحديد مواقع أماكن خارجية، مجاورة لموقع الجزيرة.
- تحديد مواقع أنشطة روبنسون وتنقلاته على أرض الجزيرة.

وهذه هي بعض النماذج، من أحداث الرواية التي استخدم فيها روبنسون الجهات واشتقاقاتها:
- (لقد أبحرنا جنوبًا، باتجاه الساحل البربري الحقيقي، حيث توجد أمم الزنوج).
- (عاصفة أخرى جاءت علينا، فقذفتنا بقوة واندفاع شديد نحو الغرب).

- (فقدنا رؤية اليابسة، وبدا لنا كأننا نتجه نحو جزر فرناندو دي نورونها. عدلنا مسارنا من الشمال الشرقي إلى الشمال، فتجاوزنا منطقة فرناندو دي نورونها بسلام، وتركنا تلك الجزر إلى الشرق منا).

- (هبت الرياح من جهة شمال الشمال الشرقي، وهذا ما جاء مخالفًا لرغباتي، فقد أجبرني اتجاه الريح هذا، على الإبحار نحو الجنوب. وبالتالي لم أتمكن من الإبحار شمالًا، نحو الساحل الأسباني، أو خليج قادش على أقل تقدير).

- (عندما صعدت إلى أعلى التل، رأيت سفينة رست لتوها في المياه، ناحية جنوب الجنوب الشرقي، على بعد فرسخين ونصف مني تقريبًا، ولكن ليس على بعد أكثر من فرسخ ونصف من ساحل الجزيرة).

٦) تخمين وتقدير المسافات والمواقع:

كون الرواية ملئا بالأماكن والمواقع الجغرافية، وبالتنقل والسفر والترحال. كانت ظاهرة تخمين وتقدير وتوقع المسافات والمواقع، هي السمة الغالبة على الكثير من أحداث الرواية.

فلم يخلُ موضع من الرواية، من اجتهاد روبنسون في تخمين أو تقدير يخص موقع ما أو

مسافة معينة. بالفعل لقد كان روبنسون جريئًا في إطلاق تخميناته وتوقعاته بشأن المسافات والمواقع. بل بالفعل كان روبنسون بارعًا وربما دقيقًا إلى حد بعيد، في تخمين وتوقع المسافات ومواقع الأماكن المختلفة. فقد كان روبنسون كما ذكرنا من قبل، على قدر كبير من المعرفة والدراية بالجغرافيا. وكان كذلك على قدر كبير من الخبرة في شؤون الإبحار وتقدير المسافات، ولعله اكتسب هذه الخبرة أساسًا، من رحلتيه اللتين قصد فيهما ساحل غينيا، في بداية الرواية.

عكف روبنسون على تخمين مواقع الأماكن، مستخدمًا المسميات الجغرافية، والجهات الأربع واشتقاقاتها، ووسائل أخرى متعددة غير ذلك. أما الوحدات المعيارية التي قام روبنسون باستخدامها في تخمينه للمسافات، فقد تنوعت ما بين (القدم، الياردة، الميل، الفرسخ).

قام روبنسون في العديد من أحداث الرواية، بتخمين وتقدير المسافات والمواقع. كي يعبر تحديدًا عن الحالات التالية:

- تخمين مواقع أماكن جغرافية (دول، جزر، .. الخ).
- تخمين الأماكن التي تنطلق منها وإليها السفن.
- تخمين المسافات بين السواحل، والسفن والقوارب التي في عرض البحر.
- تخمين المسافات التي قطعها روبنسون، في رحلاته وتنقلاته على أرض الجزيرة.
- تخمين المسافات بين أماكن وأماكن أخرى، تقع جميعها على أرض الجزيرة.

وهذه هي بعض الأمثلة، لأحداث الرواية التي قام فيها روبنسون، بتخمين وتقدير المسافات والمواقع:

- (وفقًا لحساباتي، المكان الذي أتواجد فيه حاليًا، يجب أن يكون هو تلك الدولة، التي تقع بين الأراضي المغربية شمالًا، وأراضي الزنوج جنوبًا).

- (بحسب توقعاتي، هذه اليابسة يجب أن تكون بالقرب من مناطق السيادة الأسبانية، أو ربما هي من الأماكن التي يقطنها المتوحشين البدائيين).

- (على الأرجح أن هذه السفينة، ربما أبحرت من بيونس ايرس أو ريو دي لا بلاتا، أي من منطقة جنوب القارة الأمريكية أو ما وراء البرازيل، إلى هافانا الواقعة في خليج المكسيك. أو ربما تكون وجهة السفينة إلى أسبانيا).

- (عندما اعتليت التل، استكشفت عيناي سفينة ترسو لتوها. ربما كان بيني وبين تلك السفينة نحو فرسخين ونصف تقريبًا. وربما كان بين تلك السفينة وساحل الجزيرة، مالا يزيد عن فرسخ ونصف تقريبًا).

- (قررت أن أسيج قطعة من الأرض، يبلغ طولها نحو ١٥٠ ياردة تقريبًا، أما عرضها فيبلغ نحو ١٠٠ ياردة تقريبًا).

- (وفي الصباح التالي، واصلت رحلتي الاستكشافية، فسافرت أربعة أميال تقريبًا).

- (كان هناك تل على أرض الجزيرة، لا يبتعد عني أكثر من ميل واحد).

- (رأيت قارب في عرض المياه، ربما لا يبتعد عنا سوى فرسخ ونصف الفرسخ).

٧) الوصف الجغرافي للأماكن:

في مواضع متعددة من أحداث الرواية، قدم لنا روبنسون وصفًا جغرافيًا وافيًا، للعديد من الأماكن والمواقع الجغرافية. يبدو بشكل جلي وواضح، أن الوصف الذي يقدمه روبنسون في هذه المواضع، هو وصفًا جغرافيًا وليس وصفًا عاديًا. وذلك كون روبنسون يتناول الموصوف من منظور جغرافي، ومكاني، ومساحي، وطبيعي، وتضاريسي، بحت وصريح. فحديث روبنسون أو وصفه، كما سنشاهد في الأمثلة التالية، تغلب عليه النكهة الجغرافية بوضوح:

- (لقد كنت في جزيرة، محاطة بالبحر من كل الأرجاء. لا أكاد أرى من حولي أية يابسة،

لا يقل عن ١٥٠ ميل. أي تقريبًا وراء مناطق السيادة المغربية، وتحديدًا في منطقة صحراوية قاحلة تخلو تمامًا من السكان).

- (بما أنني مررت عن هذا الساحل من قبل، أدركت جيدًا أن جزر الكناري وجزر الرأس الأخضر أيضًا، تقع جميعها على مسافة ليست ببعيدة من هذا الساحل. لكنني لم أكن أمتلك أدوات، لأستطيع من خلالها معرفة دائرة العرض الأقرب إلينا. وفي ذات الوقت لم أكن أعلم أو على الأقل أتذكر، دوائر العرض التي تقع عليها هذه الجزر. لذلك وقفت حائرًا لا أعلم أين أبحث بالضبط عن تلك الجزر وبأي اتجاه، ولا أعلم النقاط الساحلية التي توازيها بالضبط هذه الجزر).

- (لمرة أو مرتين في وقت النهار، أعتقد أنني رأيت بيكو تنريف، القمة العالية لجبل تنريف، الواقع في جزر الكناري. كانت لدي رغبة في المجازفة، على أمل الوصول إلى هناك. حاولت مرتين، لكن كلا المحاولتين باءتا بالفشل، ففي كل مرة كانت تواجهني اتجاهات الريح العكسية، وكان المحيط كذلك يقسو كثيرًا على قاربي الصغير).

٩) استخدام دوائر العرض وخطوط الطول:

ظهر جليًا في أحداث الرواية، استخدام روبنسون والبحارة الذين يرافقونه في كل مرة، لتقنية دوائر العرض Latitude وخطوط الطول Longitude، كوسيلة لتحديد المواقع الجغرافية للأماكن. كان روبنسون وبقية البحارة في الرواية، يرصدون دوائر العرض وخطوط الطول بدقة متناهية وإتقان. إذ كانوا يحددونها بالتفاصيل والدقائق. ربما كانوا يعتمدوا في قياسهم لدوائر العرض وخطوط الطول، على بعض الأدوات التي تساعدهم على القيام بذلك. لكن هذا لا يقلل بأي حال من الأحوال، من شأن القدرة والدراية الجغرافية الفائقة لروبنسون، وزملائه من ربابنة وبحارة الرواية، فاستخدام دوائر العرض وخطوط الطول وعلى هذا النحو الدقيق، يعد

أحد أهم العوامل التي صبغت الرواية، صبغتها الجغرافية المميزة.

هذه بعض النماذج أو الأمثلة، من أحداث الرواية التي جاء فيها، استخدام دوائر العرض وخطوط الطول:

- (وقفنا بعيدًا، إلى الشمال من ساحلنا. وكنا ننوي تحويل مسارنا باتجاه ساحل أفريقيا، وذلك بمجرد وصولنا عند درجتي ١٠ أو ١٢ شمال خط الاستواء).

- (أعتقد وبحسب قياساتي وتقديراتي، أنني عند دائرة عرض مقدارها ٩ درجات و ٢٢ دقيقة، شمالي خط الاستواء).

- (قام القبطان بإجراء قياساته على قدر المستطاع، فوجد أنه كان تقريبًا عند دائرة عرض، مقدارها ١١ درجة شمالي خط الاستواء. لكنه كان عند خط طول يقع إلى الغرب من رأس سانت أوغسطين ب ٢٢ درجة. لذلك فقد وجد أنه كان في منطقة ما، فوق ساحل غويانا، أو الجزء الشمالي من البرازيل).

١٠) الاستكشاف الجغرافي للأماكن:

كان استكشاف الأماكن، هو أحد معالم السلوك الجغرافي لروبنسون، في هذه الرواية. كانت أحداث الرواية مليئة بالأماكن الغريبة والغامضة، وخصوصًا تلك التي في الجزيرة الكاريبية المنعزلة، على وجه التحديد. لذلك كان الشغل الشاغل لروبنسون وفي كثير من المناسبات والمواقف، هو استكشاف تلك الأماكن، وذلك من خلال تقييمها جغرافيًا، والتعرف على ماهياتها ومزاياها ومواصفاتها الجغرافية.

النماذج أو الأمثلة التالية، هي من ضمن تلك الأحداث، التي اشتملت على استكشافات

روبنسون الجغرافية لبعض الأماكن:

- (مهمتي التالية كانت هي استكشاف المنطقة، وإيجاد مكان مناسب كي أجعله مسكنًا لي، وفي نفس الوقت مخزنًا لحاجياتي وأغراضي. لا أعلم إذا ما كنت فوق أرض قارية أم أرض جزيرة. لا أعلم إذا ما كانت هذه اليابسة مأهولة بالسكان أم غير مأهولة. لا أعلم إذا ما كانت تتهددني هاهنا، مخاطر الحيوانات المفترسة أم لا).

- (بعد أن نجحت في تأمين المسكن المناسب لي، كانت لدي رغبة جامحة، في القيام برحلة استكشافية أكثر دقة لأرض الجزيرة، كي أتعرف على المزيد من مقدرات ومنتجات الجزيرة، التي لم أعرفها بعد، وفي يوم الخامس عشر من يوليو، بدأت في القيام بمسح استكشافي دقيق جدًا لأرض الجزيرة).

- (الاستكشافات التي قمت بها في تلك الرحلة الصغيرة، جعلتني شغوف جدًا لرؤية أجزاء أخرى من الساحل. وبعد أن صار لدي قارب، لم أفكر في شيء سوى، الإبحار حول محيط الجزيرة).

١١) أهمية المرتفعات:

تأسيسًا على ما ذكرناه في البند السابق، نقول أن أهمية المرتفعات في الرواية، تكمن في كونها منافذ أو وسائل للاستكشاف. فقد عكف روبنسون في العديد من أحداث الرواية على اعتلاء المرتفعات، من أجل كشف محيطه الجغرافي، واستكشاف واستطلاع ورصد كل شاردة وواردة تدور من حوله، كانت أرض الجزيرة تحتوي على العديد من أشكال المرتفعات، كالتكتلات الصخرية والتلال. لكن روبنسون وكما سنشاهد في الأمثلة التالية، وضع معظم تركيزه على أحد التلال. وهو التل الأكثر أهمية وإستراتيجية لروبنسون ومهماته الاستكشافية.

- (صعدت إلى قمة ذلك التل، من أجل الاستكشاف. فبعد أن وصلت إلى قمة ذلك التل

بالكثير من الجهد والمشقة، وحظي العاثر والخائب، فقد اكتشفت أنني متواجد على أرض جزيرة منعزلة؛ محاطة بالبحر من كل الاتجاهات. لم أجد من حولي أي من أشكال اليابسة، سوى بعض الصخور، والتي تبتعد ...).

- (اصطحبت منظاري معي، وصعدت إلى جانب التل، لأستكشف ما يمكنني استكشافه: فشاهدت من خلال منظاري وعلى وجه الفور، أنه كان هناك ٢١ من المتوحشين، وثلاثة أسرى، وثلاثة قوارب).

- (صعدت إلى أعلى التل، لأستكشف وأرى كيف يبدو الساحل، وكيف تبدو حالة تيار البحر):

١٢) الاهتمام بحركتي المد والجزر، وتيار البحر، وحركة الأمواج:

تبدى لنا في كثير من أحداث الرواية، ذلك الاهتمام الكبير الذي أولاه روبنسون لمسائل المد والجزر، وتيار البحر، وحركة الأمواج. فالرواية أساسا، وكما ذكرنا من قبل، هي عبارة عن سلسلة من المغامرات والتي يغلب على معظمها، الطابع الملاحي أو البحري. لذلك فشيء طبيعي وبديهي جدًا، أن تكون شؤون حركتي المد والجزر، وتيار البحر، وحركة الأمواج، من أبرز اهتمامات روبنسون في هذه الرواية.

روبنسون كونه البطل المطلق والأوحد، في هذه الرواية، اهتم كثيرًا برصد حركات المد والجزر والتيارات البحرية والأمواج. أما روبنسون كونه الراوي الوحيد، في هذه الرواية، فقد كانت الكثير من الأحداث التي نقلها ورواها لنا، بخصوص المد والجزر والتيارات البحرية والأمواج، وهذه بعض النماذج من تلك الأحداث:

وهذه بعض النماذج، من أحداث الرواية، التي تناول فيها روبنسون مسألة الرياح:

- (أبحرت لمدة خمسة أيام، كان الريح خلالها لطيفًا ومعتدلًا. لكن بعد ذلك انحاز الريح إلى ناحية الجنوب).

- (كان الريح يهب من ناحية شمال الشمال الشرقي، وهذا ما جاء مخالفًا لرغبتي وإرادتي. فلو هب هذا الريح من ناحية الجنوب، لتمكنت بالتأكيد من الوصول إلى ساحل أسبانيا، أو خليج قادش على أقل تقدير).

- (مكثت هنا، وبأي وسيلة، لمدة يومين. لأن الريح كان يهب باتجاه شرق الجنوب الشرقي، وكان ذلك مناقضًا ومعاكسًا لحركة تيار البحر).

- (شعرت بنسيم رقيق من الريح يداعب وجهي، ويأتي من ناحية جنوب الجنوب الشرقي).

١٤) قصد خليج أو مصب نهر، من أجل عملية الرسو:

انطلاقًا من الطبيعة البحرية للرواية، كانت الضرورة تقتضي في كثير من الأحيان، أن يبحث روبنسون عن مصب نهر أو جدول، أو خليج صغير، من أجل إتمام عملية الرسو هناك. من المعروف ملاحيًا، أن المركبة البحرية (سواء سفينة أو قارب) تحتاج إلى قصد مكان بهكذا طبيعة ومزايا جغرافية، من أجل إتمام عملية الرسو بسهولة وأمان. حتى الموانئ الحديثة التي يتم تشييدها اليوم، يراعى فيها وجود بعض المزايا الجغرافية والهندسية الشبيهة.

الأشياء التي كان روبنسون يبحث عنها، أي سواء مصب النهر أو الجدول، أو الخور، أو الخليج، جميعها تعتبر أشكال وأنماط لأماكن جغرافية. وبالتالي فالبحث عنها، وقصدها من أجل إتمام عملية الرسو فيها، يعتبر نشاطًا جغرافيًا بحتًا.

في النماذج التالية، سنشاهد مدى اهتمام روبنسون بمصب النهر والجدول، والخور، والخليج، كأماكن ضرورية لعملية الرسو:

- (جازفت من أجل الوصول إلى الشاطئ، ورسوت عند مصب نهر صغير. لم أكن أعلم أي نهر هذا، ولم أكن أعلم موقعه بالتحديد، ولا مقدار دائرة العرض التي يقع بها. لم أكن أعلم في أي بلد يقع هذا النهر، ولا اسم الأمة التي تعيش من حوله، أو بالقرب منه).

- (الرجاء الوحيد، الذي من الممكن أن يعطينا ولو ذرة من الأمل، هو لو نتمكن من إيجاد خليج، أو خور، أو مصب نهر ما. سنكون محظوظين بشكل عظيم لو تمكنا من إيجاد هكذا مكان، إذ يمكننا أن نرسي قاربنا من خلاله).

- (وبالتالي، كنت آأمل أن أجد هناك جدول أو نهر صغير، كي أستخدم ذلك الجدول أو النهر كمرفأ، يمكنني أن أرسو عنده بحمولتي).

١٥) التعرض للكوارث الطبيعية:

شهدت أحداث الرواية تعرض روبنسون للعديد من الكوارث الطبيعية. وقد كانت هذه الكوارث الطبيعية، من أبرز المعيقات والعقبات التي واجهها روبنسون طوال مسيرته الشاقة والمتعبة في الرواية.

استكمالًا للكوارث البشرية (أي التي جاءت بفعل البشر)، كعبودية سلا، وإرهاب آكلي لحوم البشر. جاءت الكوارث الطبيعية (وهي الكوارث التي ليس للبشر دخل في نشأتها). فتعرض روبنسون وعلى مدار أحداث الرواية لكوارث ومحن عديدة: كالزوابع، والأعاصير. والزلزال المدمر، والعواصف البحرية، والتيارات المائية الجرارة، وأشياء أخرى غير ذلك

لولا تعرض روبنسون لهذه النكبات وهذه الكوارث، لما صار بالإمكان اعتباره مغامرًا، فكيف يكون هناك مغامر في منأى عن الصعاب، والشدائد، والنكبات، والكوارث ؟!.

إذًا فالمكان المناسب والطبيعي لبطل خارق على غرار روبنسون، يجب أن يكون دومًا في قلب الشدائد والتحديات. فطريق البطل المغامر، لا ولن يكون يومًا مفروشًا بالورود.

كان روبنسون في هذه الرواية كالفارس الماهر والبارع، إذ تجاوز وتخطى بجواده، جميع الحواجز والموانع التي وضعها له دانيال ديفو، في كل ركن وزاوية من طرق ودهاليز الرواية.

الكوارث الطبيعية التي حلت بروبنسون، أثرت عليه وبلا شك معنويًا ونفسيًا. ولكنه في النهاية تخطاها، شأنها شأن بقية الحواجز والموانع الأخرى، ليحقق الوصول إلى نجاته المجنونة في آخر الرواية.

وهذه هي بعض المواقف، التي تعرض فيها روبنسون للكوارث الطبيعية:

- عندما كان روبنسون على متن السفينة المتوجهة من هل إلى لندن، هبت عاصفة بحرية مروعة، كادت أن تفتك بجميع أفراد الرحلة. فاضطر روبنسون ومن معه في الرحلة، إلى طلب النجاة من خلال اللجوء اضطراريًا، إلى ساحل ونترتون نيس وكرومر.

- عندما كان روبنسون ومعه مجموعة من البحارة والتجار، في رحلة بحرية انطلقت من البرازيل باتجاه ساحل غينيا. جاءت عاصفة بحرية عنيفة، فجرفت السفينة التي كان على متنها روبنسون ومن معه غربًا، قبل أن تتحطم السفينة ويموت جميع ركابها وأفراد طاقمها. أما روبنسون فيظل الناجي الوحيد الباقي على قيد الحياة، لتدرك قدماه فيما بعد، يابسة شاطئ الجزيرة الكاريبية.

- في يوم ما، من الأيام التي قضاها روبنسون على أرض الجزيرة. ضرب أرض الجزيرة زلزال عنيف ومدمر. فأخذت تحدث إنزلاقات وانهيارات صخرية رهيبة ومخيفة، من أعلى قمم التلال. وقد كانت الصخور تحدث عند سقوطها على الأرض، أصوات مهولة تصم الآذان.

- عندما كان روبنسون في رحلة استكشافية حول الجزيرة، قام تيار بحري قوي جدًا بجرف قاربه، بعيدًا عن شاطئ الجزيرة. فكاد روبنسون من جراء ذلك أن يهلك ويغرق، لولا أن العناية الإلهية حالت دون ذلك.

- لقد واجه روبنسون ورفاقه في السفر، صقيع شرس وقارس وقاتل. وذلك عندما كانوا متجهين من شمال أسبانيا إلى الأراضي الجنوب فرنسية، أي بالتحديد في منطقة جبال البرانس.

١٦) التنوع المناخي، والحديث عن الحالة الجوية:

اعتاد روبنسون وفي الكثير من أحداث الرواية، على الحديث عن الحالة الجوية. فقد كان يحدثنا عن درجات الحرارة، وعن الأمطار، والرياح، والصقيع، والضباب، وأشياء أخرى.

حدثنا روبنسون كيف كانت الحالة الجوية الجيدة، تنعكس عليه وعلى نفسيته بالإيجاب. وفي المقابل كيف كانت الحالة الجوية السيئة، تنعكس عليه وعلى نفسيته بالسلب. فقد كانت الأجواء السيئة، تحبسه أحيانًا عن مبارحة مسكنه لأيام عديدة ومتواصلة، وذلك عندما كان يعيش فوق أرض الجزيرة.

كان روبنسون يصف لنا الحالة الجوية لأيامه، وكان يحدثنا عنها باهتمام شديد. كيف لا وللحالة الجوية بالغ التأثير على حياته اليومية، وعلى توجيه دفة نشاطاته، التي كان يمارسها على أرض الجزيرة تحديدًا.

قدم روبنسون دراسة استنتاجية وتحليلية دقيقة إلى حد ما، لتصوره بشأن مناخ الجزيرة. فقد بدت الفصول الأربعة للمناخ السنوي للجزيرة، وبحسب روبنسون، على النحو التالي:

- الفصل الأول: يبدأ من منتصف فبراير وينتهي عند منتصف أبريل، وهو فصل مطير.

- الفصل الثاني: يبدأ من منتصف أبريل ويستمر حتى منتصف أغسطس، وهو فصل جاف.

- الفصل الثالث: يبدأ من منتصف أغسطس وينتهي عند منتصف أكتوبر، وهو فصل مطير.

- الفصل الرابع: يبدأ من منتصف أكتوبر ويستمر حتى منتصف فبراير، وهو فصل جاف.

المواقع الجغرافية الكثيرة التي تنقل فيما بينها روبنسون، أعطت الرواية سمة جغرافية هامة جدًا، ألا وهي التنوع المناخي. فكل منطقة أو دولة زارها روبنسون في رحلاته، تميزت عن غيرها ببعض سمات نمطها المناخي الخاص. ولا عجب أن نرى روبنسون قد جمع في أسفاره التي زار فيها ثلاث قارات، بين تناقضات وتباينات وتفاوتات مناخية واضحة.

فبداية مغامرات روبنسون كانت انطلاقًا من بريطانيا، صاحبة المناخ البارد والبارد جدًا أحيانًا. وفي أماكن أكثر دفئًا من بريطانيا، نجد روبنسون قد زار كل من أسبانيا وفرنسا والبرتغال، إذ يغلب على ثلاثتها تقريبًا نمط مناخ البحر الأبيض المتوسط. أما تجربة روبنسون مع جبال البرانس، فقد كانت قاسية جدًا، فمناخ تلك الجبال في فصل الشتاء يكون قارس ولا يحتمل.

عند الاتجاه جنوبًا نحو الأماكن الأكثر دفئًا، نجد مدينة سلا ذات مناخ متوسطي معتدل. أما الصحراء الغربية وموريتانيا، فكلاهما ذات مناخ حار وجاف. وفي النهاية نجد أن السنغال وغينيا والبرازيل والجزيرة الكاريبية، جميعها ذات مناخات متقاربة، تتفاوت وتتأرجح بين ما هو مداري وما هو استوائي من السمات المناخية.

ما بين الجزيرة الكاريبية المطيرة والمخضوضرة، والصحراء الغربية الجافة الفقيرة والمقفرة. ما بين صهد شمال البرازيل الحارق، الذي يتبخر بفعله الدم من مسام الجلد، وصقيع شمال إنجلترا القارس، الذي يتجمد بفعله الدم في العروق. هنا تكمن تناقضات المناخ العجيبة، والتي جمع بينها روبنسون في مغامراته الغريبة !!.

١٧) الجغرافيا الزراعية:

من المعروف علميًا، أن أنواع النباتات والزروع تختلف من مكان لآخر، بسبب التنوع والتباين المناخي للأماكن. فعلى سبيل المثال نباتات مناخ التندرا البارد في روسيا، تختلف عن نباتات المناخ المتوسطي في اليونان، وعن نباتات المناخ المداري أو الاستوائي في الهند والكاميرون مثلًا.

كما ذكرنا من قبل، تمتاز الرواية بتنوع وثراء مكاني وجيوديسي كبير جدًا، وبالتالي تمتاز بتعدد في المناخات. وقد تحدث روبنسون في كثير من أحداث الرواية عن نشاطاته الفلاحية، وعن الكثير من أنواع الغلال والنباتات والزروع.

لكن روبنسون لم يتحدث عن الأنماط الزراعية والغلال والنباتات، الخاصة بكل إقليم أو مكان من أماكن الرواية. أي لم يتحدث مثلًا عن المزروعات والنباتات الخاصة بإنجلترا وأسبانيا وفرنسا والبرتغال، ولم يحدثنا كذلك عن الزروع ولا الزراعة الأفريقية. بل تطرق روبنسون في أحداث الرواية، فقط إلى الزراعة في البرازيل وجزيرته الكاريبية.

في البرازيل، كانت حرفة روبنسون أصلًا هي الزراعة، فقد كان روبنسون مزارعًا، وكانت له مزرعته الخاصة. في مزرعته البرازيلية، عمل روبنسون على زراعة نباتات ومحاصيل متعددة، أهمها التبغ وقصب السكر.

الحديث الأكثر تفصيلًا وإسهابًا لروبنسون بخصوص الزراعة، كان حديثه عن الزراعة والمزروعات في جزيرته الكاريبية. فقد تحدث روبنسون عن ممارسته لزراعة الغلال. إذ كان يزرع على أرض الجزيرة ثلاثة أنواع من الغلال وهي: الأرز، والشعير، والذرة.

لقد كانت هذه المحاصيل الثلاثة، بمثابة المحاصيل الأساسية التي يقوم ويرتكز عليها النظام الغذائي لروبنسون، وكل من جاء ليسكن معه أرض الجزيرة في مراحل متقدمة من الرواية.

أشار روبنسون إلى أن ثمة معالم لأنماط النباتات الاستوائية أو شبه الاستوائية، تتواجد على أرض الجزيرة. كحشائش السافانا، وقصب السكر البري، وأشجار الكاكاو البري. بالإضافة إلى ذلك فقد تحدث روبنسون عن استفادته من وجود أنواع من شجيرات وأشجار الفواكه البرية على أرض الجزيرة كالشمام، والعنب، والبرتقال، والليمون، والأترج.

وكي لا ننسى، فقد تحدث روبنسون كثيرًا عن الغابات الاستوائية المتواجدة على أرض الجزيرة، وما تحتويه تلك الغابات من أشجار استوائية، ذات نوعية جيدة من الأخشاب. ولقد حدثنا روبنسون في أكثر من مرة عن صناعته للقوارب، من تلك الأخشاب المتينة والممتازة التي تدرها الأشجار الاستوائية.

بالفعل لم يتحدث روبنسون عن الشؤون الزراعية والنباتية، الخاصة بكل الأماكن والأقاليم التي تنقلت فيما بينها أحداث الرواية. بل كان أغلب تركيز روبنسون واهتمامه متعلق بالشؤون الزراعية والنباتية الخاصة بالجزيرة الكاريبية، وبدرجة أقل من ذلك بالبرازيل.

لم يحدث للحيوانات نفس ما حدث للزراعة والنبات، فقد توزعت الحيوانات التي ذكرها روبنسون، على سائر الأماكن التي دارت فيها أحداث الرواية تقريبًا. ففي غرب أفريقيا جاء ذكر النمر، وفي الجزيرة الكاريبية جاء ذكر الببغاء، وفي جبال البرانس جاء ذكر الدب.

أي أن النمر في هذه الرواية يمثل أفريقيا، والببغاء يمثل الكاريبي وأمريكا اللاتينية، والدب يمثل أوروبا. أي أن القارات الثلاث كانت ممثلة وبوضوح في حيوانات الرواية.

١٨) الحظ وسوء الحظ الجغرافي:

في بعض مواطن الرواية كانت الجغرافيا تمثل سوء الحظ بالنسبة لروبنسون، وفي مواطن أخرى كانت تمثل له الحظ والخير والسلامة. جلبت الجغرافيا سوء الحظ وسوء التوفيق لروبنسون، عندما جعلته يسقط في قبضة القراصنة وبراثن العبودية. وعندما جعلته ينبذ وينعزل على أرض

جزيرة مجهولة، تخلو تمامًا من السكان. وعندما جعلته يتعرض لزلزال عنيف ومدمر، كاد أن يهلك فيه. وأيضًا عندما جعلته لسنين طويلة، يعجز عن الفرار وكسر عزلته على أرض الجزيرة.

أما المواقف التي كان روبنسون محظوظًا فيها مع الجغرافيا، فقد كانت مواقف عديدة، وهذه أبرزها:

- بفضل الجغرافيا تحطمت كلًا من سفينة روبنسون البرازيلية والسفينة الأسبانية، على مقربة شديدة من ساحل الجزيرة. وبالتالي كان بإمكان روبنسون الوصول وبسهولة إلى حطام هاتين السفينتين، وانتشال ما ينفعه ويلزمه من منافع وأشياء كانت بداخلهما.

- كانت الجغرافيا رحيمة بروبنسون، وذلك عندما جعلت عزلته تكون على أرض جزيرة، لا يقطنها أي من المتوحشين آكلي لحوم البشر.

- كان روبنسون محظوظًا جدًا، لأن آكلي لحوم البشر اعتادوا في زياراتهم للجزيرة، على النزول عند جانبها الغربي. بينما هو كان يقيم ويمارس أغلب نشاطاته، في القسمين الشرقي والأوسط من أرض الجزيرة.

- المرتفعات والتلال التي أهدتها الجغرافيا لروبنسون في هذه الرواية، مكنته من استكشاف محيطه، واستطلاع كل شاردة وواردة تدور من حوله. سواء على أرض الجزيرة، أو في المياه القريبة من ساحلها.

١٩) تضاريس الجزيرة:

لقد أشرنا في العديد من النقاط والبنود السابقة، إلى أن جزيرة روبنسون الكاريبية كانت ذات تضاريس متنوعة. بالفعل لقد تعددت أشكال السطح على أرض الجزيرة، وبشكل مدهش ولافت للنظر. فبالرغم من صغر ومحدودية مساحة الجزيرة، إلا أنها كانت تحتوي على ما هو مرتفع وما هو منخفض، ما هو سهلي وما هو وعر، من الأشكال والمعالم التضاريسية.

حدثنا روبنسون في كثير من أحداث الرواية، ووصف لنا العديد من أرجاء الجزيرة، وصفًا تضاريسيًا دقيقًا. وإجمالًا يمكننا القول أن المعالم التضاريسية الموجودة على أرض الجزيرة، تبدو في معظمها كالآتي: تلال، نتوءات صخرية، وديان، سهول، غابات، مرتفعات غابية، جداول، مروج، شواطئ، وغير ذلك.

مما لا شك فيه، أن التنوع التضاريسي لأشكال سطح الجزيرة، كان أحد أبرز وأهم السمات الجغرافية، التي امتازت بها أحداث الرواية.

٢٠) الاستفسار عن معلومات جغرافية:

في الأجزاء الأخيرة من الرواية، تخلص روبنسون من وحدته القاتلة، وصار بجواره من يشاركونه الحياة على أرض الجزيرة. حينئذ بدأ روبنسون يسأل من حوله، بشأن بعض الأمور والمسائل الجغرافية.

فمثلًا، قام روبنسون بسؤال الرجل الأسباني (كريستيانوس)، حول وجهة ومصير السفينة التي كان على متنها هو ورفاقه. حينها أجابه كريستيانوس، أن السفينة كانت متوجهة من ريو دي لا بلاتا إلى هافانا، وكانت محملة بالفضة وجلود المواشي، لكنها تعثرت وغرقت في المحيط، فلجأ هو ورفاقه إلى ساحل من سواحل المتوحشين البدائيين.

الكم الأكبر من الأسئلة الجغرافية التي وردت في الرواية، تمثل في الأسئلة الكثيرة التي انهال بها روبنسون على رفيقه الوفي فرايدي. فقد قام روبنسون بسؤال فرايدي والاستفسار منه، حول الكثير من القضايا والمسائل الجغرافية.

لاحظوا الفقرة التالية، المقتبسة من أحداث الرواية. وتأملوا فيما قال روبنسون، عن الكم الكبير من الأسئلة الجغرافية، والتي انهال بها على فرايدي:

(سألت فرايدي ألف سؤال حول البلاد، والسكان، والبحر، والساحل، والأمم التي تعيش في الجوار. وقد أجابني فرايدي بكل ما يملك من علم ودراية).

قام روبنسون بسؤال فرايدي عن أسماء الشعوب والأعراق، التي تعيش في محيط الجزيرة. فلم يجبه فرايدي سوى بكلمة (كاريبيين). وقام كذلك بسؤال فرايدي عن المسافة التي تفصل بين الجزيرة وساحل المتوحشين، وسأله أيضًا عن أمور أخرى كثيرة.

- رابعًا: أثر المؤلف.

ذكرنا فيما سبق، أن مؤلفي وكتاب النصوص الأدبية الجغرافية الواقعية، ينقسموا عادة إلى فريقين. أما الفريق الأول، فيمثله المؤلفون الذين يأخذون فكرة وأحداث النص الأدبي الذي يكتبونه، من تجارب ومعايشات وروايات وأخبار الغير. بينما الفريق الثاني، يمثله المؤلفون الذين يأخذون فكرة ومجريات النص الذي يكتبونه، من واقع تجاربهم الشخصية، ومشاهداتهم، ومعايشتهم للأمور عن كثب.

إذًا المؤلف في الفريق الأول دوره هو أنه مؤلف فقط. أما المؤلف في الفريق الثاني فيتجاوز كونه مؤلف فحسب، من خلال كونه بحارًا، أو مغامرًا، أو رحالة، أو مستكشفًا، أو غير ذلك. المؤلف في الفريق الأول يكتب عن ما يسمع أو يقرأ عنه فقط. بينما المؤلف في الفريق الثاني يكتب عن ما يراه بعينيه، ويلاحظه واقعًا ماثلًا أمامه.

دانيال ديفو وفي هذه الرواية تحديدًا، كان ممن ينطبق عليهم تصنيف الفريق الأول. أي أن علاقة ديفو بروايته روبنسون كروزو، لا تتجاوز كونها علاقة مؤلف بما ألف، فقط. غالبية أحداث الرواية وكما نعلم، وقعت على أرض تلك الجزيرة الكاريبية، وفي محيطها. وديفو كما ورد في سيرته، لم يسافر يومًا إلى هناك، ولم تطأ قدميه ذلك الركن البعيد من العالم.

نعم بالفعل عمل ديفو بالتجارة، وكان أحيانًا يرتحل ويتنقل، لكن رحلاته وتنقلاته لم تبرح نطاق بريطانيا، أو حتى أوروبا على أقصى تقدير. إذًا، نقول أن ديفو لم يكن متواجدًا بشخصه على اليابسات البعيدة والنائية، التي أسقط عليها أحداث روايته، وبالتالي لم يكن مواكبًا للأحداث الأصلية وهي تجري في مهدها، ولم يرها مرأى العين!.

إذًا ما هو المصدر الذي جاء منه ديفو، بفكرة روايته وتركيبة أحداثها ؟.

المصدر الأساسي الذي استلهم منه ديفو فكرة ونمط روايته، كان ما كتبه الصحفي والكاتب الأيرلندي ريتشارد ستيل Richard Steele عن تجربة العزلة الحقيقية والواقعية، التي تعرض لها البحار الاسكتلندي ألكسندر سلكرك، على يابسة أحد جزر خوان فرنانديز، الواقعة في المحيط الهادئ، إلى الغرب من سواحل تشيلي.

إذًا فالمصدر الأساسي الذي نبعت منه فكرة رواية روبنسون كروزو، وغيرها من روايات الروبنسونات التي جاءت فيما بعد، كان تجربة الكسندر سلكرك الحقيقية، والتي قضى فيها نحو أربعة أعوام من العزلة.

نفهم من ذلك أن ديفو لم يأت بفكرة روايته ولم يستلهمها من وحي الخيال، بل جاء بالفكرة واستمدها من قصة واقعية حقيقية، مثبتة الوجود ولا تقبل التشكيك.

لم يقم ديفو عندما كتب روايته بمحاكاة قصة ألكسندر سلكرك بالضبط وبالتفصيل. بل خالف وبدل في روايته، الكثير من الوقائع والمواقع التي وردت في تجربة أو قصة سلكرك الحقيقية. فمثلًا فترة العزلة التي قضاها روبنسون على أرض جزيرته بلغت ٢٨ عام، أما سلكرك فقد بلغت فترة عزلته على أرض جزيرته نحو أربعة أعوام فقط. جزيرة روبنسون كانت تقع جنوب شرقي البحر الكاريبي، أما جزيرة سلكرك فتقع في المحيط الهادئ، إلى الغرب من السواحل التشيلية.

نقر ونعترف بأن ديفو قد غير في روايته الكثير من الوقائع والمواقع، التي وردت في قصة أو تجربة سلكرك الحقيقية. لكن ديفو في كلتا الحالتين، لم يكن متواجدًا لا عند روبنسون على أرض جزيرته الكاريبية، ولا عند سلكرك على أرض جزيرته الباسيفيكية. لم يكن ديفو كأولئك الكتاب الذين يراقبون الأحداث وينقلونها إلى أوراقهم، وهم في قلب أو مهد الحدث.

أثناء فترة كتابته للرواية وما قبل ذلك بسنوات عديدة، لم يبرح ديفو بريطانيا (على الأرجح). وبالتالي فقد استلهم فكرة روايته بالكامل من قضية سلكرك، والتي أثارها من حوله آنذاك المجتمع، والرأي العام، والكتاب، والمثقفين، وتحديدًا رتشارد ستيل، الذي كتب عن تلك القضية بوضوح واهتمام شديد، فتأثر ديفو بذلك أشد تأثر.

لا غرابة في أن نجد، أن رواية روبنسون كروزو، هي أحد أبدع وأروع القطع الأدبية التي أنتجتها البشرية. فقد كتبها ديفو عندما كان في قرابة الستين من عمره، وبالتالي فقد وضع فيها عصارة خبرة سنين طويلة، قضاها في الكتابة والإبداع والممارسة الفكرية.

لقد كانت رواية روبنسون كروزو نقطة تحول، ليس في الأدب العالمي فحسب، بل أيضًا في مسيرة ديفو الأدبية. فبحسب العديد من النقاد، لم تكن مؤلفات ديفو التي كتبها قبل سن الستين، ذات أهمية وشهرة كبيرة. أما روبنسون كروزو وما تلاها من روايات ومؤلفات كتبها ديفو في نهايات عمره، فقد كانت الأعظم والأروع، على مستوى نتاج ديفو الفكري والأدبي الطويل.

من يقرأ الرواية بقليل من التحليل والتدقيق، يستنتج وبسهولة أن ديفو كان مثقفًا، وعارفًا للكثير من المصطلحات والمعلومات الجغرافية. نعم لقد كان ديفو ماهرًا في توظيف معرفته ودرايته الجغرافية تلك، في سبيل صياغة نص أدبي جغرافي رائع وبديع، على شاكلة روبنسون كروزو.

لا ندري إذا ما كانت الدراية الجغرافية الواسعة لديفو، هي دراية مكتسبة فقط من أجل كتابة الرواية (أي اكتسبها وتعلمها قبيل كتابة الرواية، من أجل كتابة الرواية فحسب)، أم كانت درايته الجغرافية سابقة ومتجذرة عنده من قبل. أنا أميل إلى الاحتمال الثاني، فالمطالع لسيرة هذا الرجل، يجده منخرطًا في السياسة وشؤونها وبشكل كبير جدًا. والإنسان العالم بالسياسة والمراقب لشؤونها، يكون عادة ملمًا بقدر كبير من المعرفة الجغرافية. فعلاقة السياسة بالجغرافيا، هي علاقة جد وثيقة ومتينة.

جعل ديفو روايته متخمة بالدلالات والإيحاءات والرموز، فلا يكاد يخلو موضع من الرواية من دلالات وإيحاءات متنوعة، سواء أكانت سياسية، أو ثقافية، أو دينية، أو فلسفية، أو غير ذلك.

لقد أتينا فيما سبق على الدراية والمعرفة الجغرافية العميقة عند ديفو، والتي ظهرت بشكل جلي وواضح في أحداث الرواية. لكن يتوجب علينا كذلك، أن نشير إلى أن ديفو قد أورد بعض المعلومات الجغرافية الغير واضحة أو الغير دقيقة في هذه الرواية. وخصوصًا فيما يتعلق بالموقع الفعلي والحقيقي لجزيرة روبنسون الكاريبية، وكذلك هوية تلك الجزيرة واسمها المتعارف عليه اليوم في الجغرافيا الحديثة.

لقد قام ديفو وبمنتهى الدقة، بذكر المعلومات الجغرافية والأوصاف المكانية الصريحة، الخاصة بكل المواقع والأماكن التي وردت في الرواية. لكنه كان مقصرًا كثيرًا في حق أكثر الأماكن أهمية على مستوى الرواية بأسرها، ألا وهو الجزيرة الكاريبية. لقد ظلت مسألة موقع وهوية تلك الجزيرة، قضية جدلية وخلافية إلى يومنا هذا. يجتهد الكثيرون في هذا الجانب، لكن في اعتقادي الشخصي، أن جزيرة روبنسون الكاريبية، وبحسب الأوصاف التي وردت لها في الرواية، ربما لا يكون لها وجود فعلي في جغرافيتنا الحديثة المعاصرة (هذا في حال كانت جزيرة مغمورة). أما إن كان المقصود بها أحد جزر الكاريبي البارزة والمعروفة لدينا اليوم (كما يحاول

أن يفسر البعض)، فالوصف المكاني الذي ورد في الرواية بخصوص الجزيرة، وفي هكذا حالة، يكون وصفًا مغلوطًا وغير دقيق بالمرة. فالموقع الجغرافي الذي جاءت فيه جزيرة روبنسون في الرواية، لا يتطابق البتة مع أي من مواقع جزر الكاريبي البارزة والمشهورة، التي نعرفها اليوم في الخرائط.

- ملاحظات على التطبيق

١) في مستهل التطبيق السابق، قمنا بكشف العلامات الجغرافية المتواجدة داخل النص، ومن ثم صنفنا تلك العلامات إلى ما هو مؤثر وغير مؤثر، ومن ثم قمنا بتفسيرها أو تحليلها، وفي النهاية تطرقنا إلى أثر المؤلف.

هذا يؤكد على أننا التزمنا بتطبيق الفرضيات الأربع، كاملة غير منقوصة، أي دون أن نهمل أو نعطل عمل أي من تلك الفرضيات. بالإضافة إلى ذلك، فقد التزمنا بالتراتبية والتسلسل الخاص بفرضيات النظرية. فقد طبقنا الفرضيات الأربع على النص، بحسب ترتيبها الرياضي والمنطقي المتعارف عليه فيما سبق.

هذا يعد أول تطبيق لنظرية التحليل الجغرافي على نص أدبي. لذلك كان لا بد من الالتزام، بكل من كلية وتسلسلية الفرضيات، وقت تطبيقها على النص.

مخالفة كلية وتسلسلية الفرضيات وقت تطبيقها على العمل الأدبي، نعم قد تقلل من جودة وقوة هذا التطبيق، لكنها لا تنسفه ولا تلغيه تمامًا. فبإمكان النقاد الأدبيين الجغرافيين، أن يخالفوا الأسلوب الذي جئنا به في تطبيقنا هذا. أي بإمكانهم مخالفة الكلية والتسلسلية التي التزمنا بها، إن رأوا حاجة إلى ذلك.

التزمنا في هذا التطبيق، بكل من كلية وتسلسلية الفرضيات، لأنه تطبيق تعليمي نموذجي. سيستقي منه النقاد الأسلوب والنموذج الأمثل، الذي تطبق به فرضيات نظرية التحليل الجغرافي، على نصوص الأدب.

٢) في التطبيق السابق لم نتطرق إلى كافة العلامات الجغرافية، الموجودة داخل نص رواية روبنسون كروزو. كثير من العلامات الجغرافية، وخصوصًا من تلك التي تنتمي إلى (الأحداث الجغرافية)، لم نتناولها في التطبيق السابق. فالنظرية لم تنشأ كي ترصد كافة العلامات الجغرافية التي يحتويها النص. بل نشأت كي ترصد تأثير تلك العلامات في عمومها ومجملها على النص، وكيف من شأن هكذا علامات أن تصبغ النص بصبغتها الجغرافية.

ذكرنا من قبل، أن المسميات الجغرافية يمكننا رصدها داخل النص بسهولة، أما الأحداث الجغرافية فمن الصعوبة بمكان رصد وجودها وبدقة داخل النص. حتى المسميات الجغرافية التي سلمنا بسهولة رصدها داخل النص، فإنه كثيرًا ما يتكرر ظهورها داخل مجريات النص. وبالتالي فليس من المعقول، ملاحقة ورصد كافة التكرارات، التي تتمخض عن كل مسمى من هذه المسميات.

نظرية التحليل الجغرافي للأدب، لا تميل إلى الكمية على حساب الكيفية. فالنظرية ليست نظرية إحصاء جغرافي، أو إحصاء للوجود الجغرافي داخل النص، بقدر ما هي نظرية تفسير وتحليل ودراسة، للوجود الجغرافي داخل النص، ومدى تأثيره على ذلك النص. إذًا فدور النظرية هو الدراسة والتحليل، وليس التعداد والإحصاء. وبالتالي فالمطبق لفرضيات النظرية على نصوص الأدب، غير مطالب بإحصاء ورصد كافة العلامات الجغرافية، التي تحتويها جنبات النص المراد تحليله. فهذه تبدو مهمة تعجيزية وعقيمة، وبلا شك.

٣) المتأمل جيدًا في التطبيق السابق لنظرية التحليل الجغرافي للأدب، على نص رواية روبنسون كروزو، يلاحظ ويدرك بوضوح، مدى التشابه والتقارب، بين نظرية التحليل

الجغرافي للأدب ونظرية ما بعد الاستعمار أو ما بعد الكولونيالية Postcolonialism. نعم، تتشابه النظريتان في العديد من أوجه اهتماماتهما ونطاقات بحثهما.

الفصل الثالث: مواضع وحالات تطبيق النظرية.

- استعراض الأجناس.
- نماذج من النصوص.

استعراض الأجناس

كما ذكرنا من قبل، فإن نظرية التحليل الجغرافي، لا يمكن تطبيقها على سائر نصوص الأدب. وإنما هناك شرط أساسي يجب أن يتوفر في نصوص الأدب، كي تصير مؤهلة لتطبيق النظرية. وذلك الشرط هو، أن تصل النصوص بمحتواها الجغرافي، إلى درجة المبالغة الجغرافية. وقد سبق وأن تحدثنا عن موضوع المبالغة الجغرافية، بما يكفي من الشرح والتفصيل. إذا ما تأملنا جيدًا في نصوص الأدب، التي من الممكن أن تناسب أو تلاءم موضوع بحث النظرية وتطبيقها. نجد أن تلك النصوص تنتمي غالبًا، إلى الأجناس الأدبية التالية:

١) الأدب الجغرافي.

٢) أدب الرحلات.

٣) أدب البحر.

٤) الروبنسونات.

٥) البيكاريسك.

٦) أدب المغامرة.

الكثير من النصوص الأدبية التي تنتمي إلى الأجناس الأدبية سالفة الذكر، يكون موضوعها الأساسي هو الجغرافيا. فأفكار ومجريات أحداث هكذا نصوص أدبية، تكون غالبًا بشأن أشياء ذات بعد جغرافي، مثل: السفر، والترحال، والمغامرة، والنجاة من سفينة منكوبة إلى مكان منعزل، والسياحة، والإبحار، والاستكشاف الجغرافي، ووصف الأماكن، وأشياء أخرى غير ذلك.

الأجناس الأدبية سالفة الذكر، هي التي تخص تطبيق النظرية، بشكل رئيسي وأساسي (أي هي الأولى بالتطبيق من غيرها من الأجناس). فمعظم تطبيقات النظرية لا تخرج عن نصوص أدبية، تنتمي غالبًا إلى هذه الأجناس. لذلك يمكننا أن نطلق على هذه الأجناس تسمية (

أجناس النظرية). لكن علينا الانتباه جيدًا، أن هناك نصوص أدبية تنتمي لأجناس أدبية، بخلاف التي ذكرناها ضمن قائمة (أجناس النظرية). هذه النصوص تصلح لتطبيق نظرية التحليل الجغرافي، وذلك بالرغم من انتمائها إلى أجناس شاذة وغريبة عن تلك التي تتصدر اهتمام النظرية وتطبيقها (أي أجناس النظرية).

نماذج من النصوص

بداخل تلك الأجناس التي أسميناها (أجناس النظرية)، نجد الكثير من الأعمال أو النصوص الأدبية، الملائمة والمناسبة لتطبيق النظرية. وفيما يلي، بعض النماذج الهامة من تلك الأعمال أو النصوص:

١- رواية روبنسون كروزو Robinson Crusoe.

٢- رواية المغامرات اللاحقة لروبنسون كروزو The Further Adventures of Robinson Crusoe.

٣- رواية جزيرة الكنز Treasure Island.

٤- رواية أمير الذباب Lord of The Flies.

٥- رواية جزيرة المرجان The Coral Island.

٦- رواية الجزيرة الغامضة The Mysterious Island.

٧- رواية كابتن بلود Captain Blood.

٨- رواية جزيرة الدلافين الزرقاء Island of The Blue Dolphins.

٩- رواية الكأس الذهبية Cup of Gold.

١٠- رواية عائلة روبنسون السويسرية The Swiss Family Robinson.

١١- مجموعة قصصية، حكايات البحر الجنوبي South Sea Tales.

١٢- كتاب حول العالم في ٢٠٠ يوم.

هناك بعض النصوص الأدبية لا تنتمي إلى (أجناس النظرية)، لكنها في ذات الوقت تبدو مناسبة ومؤهلة لتطبيق النظرية، وهذه هي بعض النماذج من تلك النصوص:

١- رواية لورد جيم Lord Jim.

٢- رواية رحلة إلى مركز الأرض A Journey to The Center of The Earth.

٣- رواية قلب الظلام Heart of Darkness.

٤- رواية عشرون ألف فرسخ تحت الماء Twenty Thousand Leagues Under The Sea.

٥- مسرحية أوثلو Othello.

٦- قصيدة الأرض الخراب The Waste Land.

المصادر والمراجـــع

أولًا - المراجع العربية:

١ - فتحي محمد أبو عيانة: الجغرافيا الإقليمية، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٦.

٢ - محمد رياض: الإنسـان- دراسة في النوع والحضارة، الطبعة الثانية، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٤.

٣- الطيب صالح: موسم الهجرة إلى الشمال، طبعة دار العين، القاهرة ٢٠٠٤.

٤- أطلس العالم والوطن العربي، مكتبة الاقتصاد، القدس.

ثانيًا - المراجع الأجنبية:

1-Abrams M. H : A Glossary of Literary Terms - Fourth Edition - Holt، Rinehart، and Winston - Texas 1993.

2- Bressler C. E : Literary Criticism: An Introduction to Theory and Practice - Prentice Hall - New Jersey 1994.

3- Abrams M. H: The Mirror and The Lamp - Oxford University Press New York 1981.

4-William Golding: Lord of The Flies - G. P. Putnam's Sons - New York 1954.

5-Ballantyne R. M: The Coral Island - J. M. Dent & Sons - London 1967.

6- Daniel Defoe: Robinson Crusoe - Planet eBook - edition 2007.

7-The Times Atlas of The World - Second Family Edition -Times Books - New York 1997.

المحتويات

رقم الايداع / 2050 / 2014ط1
الترقيم الدولى / ٠- ٥٨ - ٥٣١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨



مطبعة سالم إبراهيم
٠١٠٢٢٦٦١٦٣٢- ٠١٢٢٤٢٧٢٣٢٧

شعرت بالاستياء عندما وجدت أن النظريات الأدبية في مُجملها، لا تلقي بالًا للجغرافيا، ولا تراعي الدور الكبير، الذي تلعبه الجغرافيا في صناعة الأدب. لقد درست كافة النظريات المعتبرة والمعروفة لدينا في علم النظرية الأدبية. وقد وجدت تلك النظريات جميعها، كأنها اتفقت مع بعضها البعض على شيءٍ واحد، وهو إنكار دور الجغرافيا، وتنحيتها من عالم النظرية الأدبية !!. جلست كثيراً مع نفسي، أفكر في الأسباب الكامنة وراء إقصاء الجغرافيا وتهميشها، فلم أجد سبباً وجيهاً واحداً، يبرر ذلك الإقصَاء الحاصل والتهميش.

تصميم الغلاف: فاطمة عشري

